

”أمراء الحرب في عمان”

”WARLORDS OF OMAN by P. S. ALLFREE”

تلخيص بما ورد في كتاب ”أمراء الحرب في عمان“ لفيليب ألفري طبعة 2008 ملخصا كل فصل في فقرة أو جزء منفصل ... و سأفصل الفصل ١ لأهميته بالنسبة لموقع عمان و مناطقها حسب ما ذكر المؤلف (النسر، منتدى الحارة العمانية):

١. واحة تحت الحجر

يبدأ المؤلف كتابه بحديثه عن قصة وسبب إنتقاله من القيادة العامة للجيش البريطاني في الشرق الأوسط في عام ١٩٥٣ م قبل أن يتم طرد القوات البريطانية من قناة السويس حيث قضى أكثر من عام في الثكنة العسكرية البريطانية في تل الكبير في الأراضي المصرية. حيث أجرى له العميد (البريجادير) الإنجليزي مقابلة ليتم نقله إلى القسم الشرقي من الجزيرة العربية المجهول من الكثير سكان العالم بما فيهم الضباط البريطانيين. يتحدث عن المنطقة ... عن عمان المتصالحة أو ساحل القراصنة و سلطنة مسقط و عمان ، هذه المنطقة المجهولة من العالم عدا على الخارطة التي أمام العميد البريطاني أضف إلى ذلك أن فكرة طورت بريطانيا عسكريا في تلك المنطقة أمر مستبعد. كان هدف المقابلة هو توظيف متطوعين للانضمام إلى "جندرمة ساحل عمان" الأمر الذي أيقظ فيه الحماس و الفضول برغم عدم معرفة طبيعة العمل و المهمة في تلك المنطقة النائية من العالم.

هذه المنطقة التي تشبه على الخارطة وحيد القرن حيث قرنها يتجه ناحية بلاد فارس أنفها يمتد إلى بحر العرب و إنها رمال منتجة للنفط يطلق عليها قطر أما بقية جسم الحيوان فتكون المملكة العربية السعودية و كل الطريق من قطر إلى عدن عبارة عن شريط مكون من دول (ولايات) مستقلة بالكاد تظهر على الخارطة و ما هي إلا عبارة عن قرى يسكنها صيادون. عدد من هذه الولايات تقع على الخليج الفارسي (العربي) عرفت هذه المنطقة بساحل القراصنة في القرن التاسع عشر حيث كانت القرصنة المهنة المفضلة لسكانها ولكن بفضل التدخل العسكري البحري البريطاني بالقصف و التهديد إقتنع زعماء هذه الولايات بعقد اتفاقيات هدنة بينهم و بين بقية الجنس البشري حيث عرف ساحل القراصنة فيما بعد بالساحل المتصالح أو المتهادن أو الإمارات (الولايات) المتصالحة أو عمان المتصالحة و خضعت هذه المنطقة لتصرف الوكيل السياسي البريطاني حيث تم تهيمشها و عزلها عن الساحة التاريخية للعالم.

أما خرطوم وحيد القرن و بعض أجزاء قرنه فهي منطقة مختلفة الطبيعة و التضاريس و بلاد و كانت لها أهميتها للمكتشفين و المغامرين بعد الحرب العالمية الثانية. هذه البلاد هي عمان و بعض الأحيان يطلق عليها "عمان الأصلية (Proper Oman)" و سميت الأصلية لتفريقها عن الاختلافات و التنوع في عمان المتصالحة. إنها مأهولة السكان و بها مناطق خصبة صالحة للزراعة حيث يتوفر الماء في المناطق الجبلية الغائمة و السهول الخصبة و إختلف سكانها عن بقية العرب بتطرفهم الديني و كرههم لبعضهم البعض و لكنها في الحقيقة واحة غناء في صحراء جرداء ، كما أنه هنالك همس هذه الأيام عن تواجد شركات النفط طمعا في إغراءات و ثروات مخزوناتها النفطية.

"عمان" في الحقيقة جزيرة محاطة من الجانبين بالمحيط و بالربع الخالي هذه الصحراء الرملية التي أشبه بالبحر الرملي و لهذا السبب كونت عمان جوا من الإطباع عبر القرون أنها تختلف عن بقية بلدان الجزيرة العربية كما أنها أهملت من قبل العالم إلا من قبل البوكركي البرتغالي و مجموعة من الإرساليين الأمريكيين و بالطبع من بنوا الإمبراطورية البريطانية العظمى.

لعمان يوجد منفذ واحد حيوي للتواصل مع العالم ... مع المدن الساحلية على الخليج أو مع المناطق المأهولة من السعودية العربية ، تقع في هذا المنفذ الذي لم تبتلعه رمال الصحراء الجائعة بعد واحة شديدة الأهمية و الحيوية يطلق عليها واحة البريمي.

يبدأ المؤلف الحديث عن واحة البريمي و تضاريسها و مناخها و قراها المكونة من سبع قرى المقسمة بين إمارة أبوظبي و سلطنة مسقط و عمان ، أهمية واحة البريمي تكمن أنها تقع على خط الطرق المؤدية إلى دبي و الشارقة و شمال الجزيرة العربية و إلى مناطق عمان الأصل (Proper Oman) يذكر المؤلف أن تاريخ البريمي متغير بتغير لون العلم الذي يرفرف في سماها حيث سيطر عليها الوهابيون في القرن تاسع عشر و الذين يعرفون اليوم بالمملكة العربية السعودية ، إلا أنه بعد ذلك تم تقاسمها بين حكام عمان الأصل و إمارة أبوظبي إحدى إمارات ساحل عمان المتصالحة ، و يذكر أيضا أن ثلاث من قرى البريمي و هي الأكبر مساحة تتبع "عمان الأصل" و تتبع البقية شيخ أبوظبي.

كما يتحدث عن لبس أهل البريمي و عاداتهم و لهجتهم و ميولهم فيذكر أنهم عمانيين و لبسهم لباس عماني بما في ذلك الثوب و الخنجر العمانيين ، و لهجتهم شبيهة باللهجة العمانية التي تختلف من منطقة إلى أخرى. و يقول أن البريمي كانت منطلقا للمكتشفين و الرحالة الأوروبيين للتوغل إلى عمان الأصل و الجبل الأخضر و هي بالنسبة لبقية الجنس البشري إسم غير معروف.

يتحدث عن الغزو الوهابي لواحة البريمي في عام ١٩٥٢ م بقيادة تركي بن عبدالله بن عطيشان الذي نصب نفسه حاكما على واحة البريمي بأمر من الملك عبدالعزيز بن سعود ... الأمر الذي أدى إلى إرباك كبير بين سكان البريمي حيث أن فرقة الجيش المتوفرة في الواحة كانت تابعة لشيخ أبوظبي و المكونة من رجال القبائل المسلحين الذين كانوا تحت سيطرة الحكومة البريطانية التي بصفتها حامي حمى المنطقة و التي كانت قواتها البالغ عددها نحو ٥٠ رجلا يتمركزون في إمارة الشارقة يأترون تحت قيادة ضابط بريطاني كما أن مندوب عمان لديه حفنة من العساكر الذين لا فائدة منهم عسكريا. إستخدم تركي بن عطيشان مناورات عسكرية للسيطرة على الجزء العماني من الواحة و كذلك بشراء ذمم رجال إحدى القبائل بالمال ، أما شيخ أبوظبي فكان لديه ممثلا مقيما عنه يدعى "زايد" و الذي عرف عنه أنه رجل فاضل و صاحب مبدأ و قيم و تأثير على القبائل الأمر الذي أعطاه الكثير من المصداقية و أبعده عن شراء الذمة بالمال.

كانت ردة فعل الحكومة البريطانية لتصرفات بن عطيشان التوسعية بأن قامت بإرسال جيش يتكون أفراد من العرب من عدن الذين سرعان ما دخلوا في معارك خصوصا مع رجال تلك القبيلة المعارضة التي معظم أفرادها من الجبال المحيطة بواحة البريمي ، كما قام سلطان مسقط و عمان بتجميع قوة عسكرية يبلغ عددها بالآلاف معظمهم من رجال القبائل الموالية له. كان المقدّر لهذه القوة إكتساح قوة تركي بن عطيشان و تأييد السعوديين له بسهولة و لكن و لو تم ذلك لما شهدت "عمان" الأحداث التي تلت بعد ذلك ... ففي الساعة الحادية عشرة من اليوم المقدّر للهجوم هرع القنصل العام لبريطانيا العظمى و هو يلهث أنفاسه إلى البريمي قادما من مسقط آمرا بوقف الهجوم و تفريق الجيوش و كان سبب ذلك خوف لندن من أن الحل العسكري يؤدي إلى نتائج وخيمة و أن الحل بالتفاوض و المحادثات هو الأنسب لمثل هذه الخلافات و تجنباً لأي إحراج للمسؤولين في "الوايت هول". و بهذا إستسلم السلطان و فرق جيشه و مواليه و عاد إلى قصره لينتظر و يرى النتائج ... و أعتقد أن السلطان لن يغفر لبريطانيا موقفها هذا!!!

بهذا التصرف أصبح معظم رعية السلطان خاضعين لأمر بن عطيشان و السعوديين و أصبح العلم السعودي يرفرف على معظم منازلهم و مزارعهم ، مما فرض الأمر على البريطانيين عزل هذه الواحة عن بقية أجزاء عمان تجنباً لتوسع نفوذ ابن سعود و أتباعه ... كما أن هذا الحجر (العزل) صحبه تأكيد بعدم الضرر بإبن عطيشان و أتباعه كما تم تحديد حركتهم و تنقلاتهم ، إلا أن هذا العزل لم يخلو من تصرفات خبيثة من ابن عطيشان الذي راوغ البريطانيين في بعض الأحيان ليكسب الوقت و العتاد و الناس.

أما الجيش العربي من عدن فقد تم إستدعائه إلى بلده لظرف طارئ الأمر الذي كان عبارة عن لطمة في وجه المندوب السياسي البريطاني الذي إستدعى نواة الجيش جندرية ساحل عمان المكونة من ٥٠ رجل كما تم توظيف عصابات من جنود عدنيين متقاعدين جيء بهم من الحواري و السكيك و الشوارع و تم نقلهم إلى الشارقة بالإضافة

إلى ضابط إنجليزي الذي إكتشف أن المهمة التي أتى من أجلها لم تكن تلك التي أنيط بها حيث تم إحقاقه بجندرية ساحل عمان أمرا على هؤلاء الجنود المطرودين و مكلفا للقبض على تركي بن عطيشان.

يتحدث المؤلف عن الجنود العدنيين بأنهم أكفاء و لكن مرتزقة ... و ماذا تتوقع من مرتزق ، أصبحوا يتاجرون بالسلاح و العدة و الذخيرة و كانت طرقهم في تحقيق ذلك ملتوية و ذكية كونهم عرفوا أزقة عدن و حاراتها و ما في الشارع من نوع من الجشع و السرقة و التجارة و ليس مهم لديهم أن يموت السلطان أو شيخ أبوظبي أو تركي بن عطيشان أو حتى ليس لديهم ولاء للمندوب السياسي البريطاني .. فإنهم مرتزقة و ما المرتزق يهدف إلى أن يحصل ما يستطيع الحصول عليه بالسلاح من مال و غنيمة.

و هنا يذكر حادثة تراشق بالنيران الصديقة و العدو لآمر الوحدة أوتو ثوايتس و مرافقه الضابط الأردني و طبيب الوحدة و ضابط بريطاني آخر ... وقع هؤلاء في وسط تراشق نيران مفتعل بين المرتزقة العدنيين و جيش بين عطيشان حيث توفي أوتو ثوايتس و الضابط الإنجليزي الآخر و الطبيب بينما أصيب المرافق الأردني.

كانت ردة فعل السلطات البريطانية سريعة حيث تم إرسال فرقة من الجيش في الشارقة و تجريد المتمردين العدنيين من أسلحتهم أما القتلة فقد فروا إلى الصحراء و إعتقلهم رجال زايد و سلموا إلى قيادة الجندرية ... كان الوضع معقدا في من يحاكم هؤلاء هل الحكومة البريطانية التي قتل مواطنيها أو شيخ أبوظبي الذي رجاله إعتقلوا قتله أم سلطان مسقط و عمان الذي في أراضيها وقعت الحادثة أم حكومة عدن ... و في الأخير تم تسليمهم إلى السلطان حيث حكم عليهم بالسجن لعدة سنوات.

كان هذا هو الوضع في نوفمبر ١٩٥٣ م عندما تمنى لي العميد (القرمزي) الحظ السعيد ... نائية هي تلك المنطقة و معقد هو الوضع و أن العميد معذور لعدم إعطائي معلومات كافية فقد كانت بالفعل غير متوفرة و لكنني أشعر بالراحة و الحماس بعد ١٨ شهرا قضيتها داخل أسوار و حواجز تل الكبير و على مرمى ومشاكسة اللصوص و قطاع الطرق المصريين.

٢. "صنادل متطائرة A SHOWER OF SANDALS"

يتحدث المؤلف في هذا الفصل عن وصوله إلى الشارقة إحدى إمارات عمان المتصالحة حيث يقول أنها ليست بالمكان الجذاب في الجزيرة العربية و لكن أسوأ منها و من عزلتها مكان آخر يدعى سناو على مشارف الربع الخالي. يصف الشارقة بأن لها رائحة فسفورية يمكن شمها من أميال عدة محاطة بتلال رملية من الجبس و يذكر أن هنالك مدينة على البحر العربي تدعى "غيزة" مليئة بالذباب الذي يسابق البشر على إلتهام طعامهم كما أن سكانها متحصنون و الكراهية ملئ قلوبهم و يقاتلون بعضهم بعضا.

الشارقة عام ١٩٥٤ م بها بعض مزارع النخيل بين الكثبان الرملية و بها قصر الحاكم ذو اللونين الأبيض و الأزرق أشبه بما يكون "جينة جروجونزولا" تحيط به عدة مدافع خاصة بالقرب من البوابة الأمامية و التي تستخدم لجلد المحكوم عليهم أمام العامة. المدينة بها عدد من الكلاب يضاهي عدد البشر و كلا الصنفين من سكان المدينة لديهم نفس المفهوم حول إستخدام وسائل الصرف الصحي (الحمامات) الأمر الذي يعزو إليه رائحة الشارقة النتنة .

هذا المكان الغير مريح كان أول موطن قدم لي في شبه الجزيرة العربية و في تلك الأيام كانت الشارقة المدينة الرائدة في إمارات ساحل عمان بالرغم أن جارتها القوية "دبي" إستحوذت عليها من حيث السمعة و التجارة و منذ أمد طويل ، فقد كانت مقرا للمندوب السياسي البريطاني و بها القاعدة الجوية البريطانية الوحيدة في المنطقة.

و في الشارقة يوجد المقر الرئيسي لجندرمة ساحل عمان و الذين إستأجروا مكاتبهم من السلاح الجوي الملكي البريطاني (R.A.F) التي كانت أشبه بما تكون حيا للفقراء برغم الجهد البطولي لأفرادها و هي مزودة بوسائل تكييف مائية و من غيرها تكون الحياة صعبة في طقس الشارقة الحار و القاسي و خاصة في فصل الصيف. أما مصادر المياه فهي إصطناعية بالرغم من وجود آبار مياه تباع في الأسواق في براميل محملة على ظهر الحمير. و لكن القوات البريطانية تفضل إستخراج الماء بوسائلها الخاصة كما أن هنالك الكثير منهم يستخدمون البيرة الباردة و الجين و الخمور الأخرى.

عند انتقال مقر الممثل السياسي البريطاني إلى دبي إنتقلت جندرمة ساحل عمان إلى مكاتبه الخاوية و سبب ذلك ادراك الممثل السياسي أن دبي أكبر و معاصرة للحدثة أكثر من الشارقة ... ثم يصف العيش في الشارقة و حرارة الجو و الضباب في فترات الصباح و يقارن مدينة الشارقة بمكاتب الجندرمة الجديدة و الذباب المتطاير في سماء الشارقة و شرب الخمر الذي يمكنهم من النوم براحة في جو حار رطب رائحته نتنة ملئ بالحشرات القارصة.

في هذه البيئة الغير موحية يعيش حفنة من الضباط الإنجليز بالطبع يجاهدون بإصرار لبناء جيش.

بعد التمرد و القتل الذي حدث في البريمي تم ترحيل المتمردين العدنيين إلى بلادهم التي تبعد نحو ٨٠٠ ميل و إتخذ القرار بأن تكون جندرمة ساحل عمان مكونة من جنود مواطنين ... و كان لا يوجد ندم على ذلك فرجال القبائل جميعها كانوا تحت تصرف الحكومة البريطانية و الكثير منهم موالين من الناحية المالية للشيخ زايد حاكم البريمي ، و لم تكن المشكلة في توظيف هؤلاء الجنود بل في تدريبهم و في أسرع وقت ليتم ترحيل العدنيين و التخلص منهم قبل أن يقوموا بعمل مشين آخر ... وقد كلفت بمهمة تدريب هؤلاء الجنود المستجدين.

و أعطينا مهلة ٦ أسابيع لتحويل هؤلاء من غوغاء ملتحين إلى جنود مدربين أكفاء و من جمالين إلى حاملي بنادق و من بربري صحراوي إلى رجل متمدن من الدرجة الثانية ... و تم ذلك بصعوبة و كفاءة فكانوا جنودا حقيقيين و

لو أنهم غير مكتملين. و كان هذا بفضل الكلونيل أريك جونسون الذي كان لتعاطفه مع العرب و تقديره للإحتياجاتهم و نفسيتهم العامل الكبير في تعاون هؤلاء المتدربين في إنجاز مهمتنا. لقد واجهنا صعوبات في تدريب هؤلاء و تعليمهم الرماية و إصابة الهدف و إحتاج الأمر إلى كثير من الجهد و الصبر ... و أصعب ما كان تعليمهم هؤلاء الصحراويين النظام و الإصطفاف في الطابور و كيفية توجيه السير و الوقوف في الطابور كجنود منظمين ... و كانت أصعب مهمة تعليمهم قول "نعم سيدي (Yes Sir) "بدلاً من "إن شاء الله".

كما أنا واجهنا مشكلة في تعليمهم كيفية لبس الصنادل و المشي بها ... الأمر الذي أسميه حاجز الصنادل في تعليم هؤلاء ... فعندما نصفهم في الطابور و نأمرهم بالسير تتطاير صنادلهم حيث أنهم لم يعتادوا لبس الصنادل من قبل ... و هذه الصنادل المتطايرة أشبه ما تكون علينا "بحمام من الصنادل" بدلاً من الماء حيث كانت تهطل علينا و في كل إتجاه. و كنا نضطر إلى وقف سير الطابور لإعادة تجميع هذه الصنادل كل ٢٠ دقيقة. إستطعنا التغلب على هذه المشكلة بعد نحو ٤ أسابيع.

مشكلة أخرى واجهناها مع (R.A.F) إلا وهي رفض هؤلاء البدو إستخدام الوسائل الصحية المتاحة ، حيث أن طبيعة العربي و عيشه في الهواء الطلق لا يهتم بالوسائل الصحية المتاحة حاله من حال جملة الذي يتخلص من روثه في الهواء الطلق ... فالعربي كذلك مثل جملة ... و هذا أمر طبيعي في الصحراء ... الأمر الذي زاد من سوء النواحي الصحية و زيادة النتن في رائحة جو الشارقة. و على كل حال أن القرية العربية ليست أفضل حالا من ناحية الرائحة من أي قرية إنجليزية. و لكن أن يكون الأمر في مدينة مكتظة فقيرة مثل الشارقة حيث الجو الرطب الحار فهذا أمر يمكن ملاحظته و بإشتمزاز. هذا الأمر الذي كان فيه الجنود يقضون حاجتهم في داخل المخيم و في وسط المباني خلق لنا مشكلة مع قيادة (R.A.F) فالعربي رجل تقاليد و عادات متمسك بها و منها أن لا تدع طروثك بالقرب من "روث شخص آخر" و هذا صعبا داخل المباني و في وسط المدينة... و كانت هذه من المشاكل و المعوقات في إعادة بناء جندرية ساحل عمان.

و برغم العنصرية و التفرز التي في نفوسنا ضد هؤلاء البدائيين الذين لا يعرفون سبيلا للمراحيض واصلنا الإعداد لبناء جيش جندرية ساحل عمان.

و في هذه الأثناء بدأت إكتشاف عادات العرب و طريقة معيشتهم بتطور إنطباعاتي عن العرب المغيرة تماما عما قرأت من كتب و قصص و سمعته من روايات و أحاديث رومانسية و مغامرات المستكشفين.

فبعد وصولي مباشرة و ملء نفسي بالشعور بالعجب و الإندهاش أقام الجنود العرب حفل و كانت هذه أول مواجهة لي بالولائم العربية و التي كتب عنها الكثير بأنها غير مشهية و طريقة تقديمها المقزرة ... **يصف المؤلف هنا طريقة أكل عرب الجزيرة العربية الذين يجتمعون على السفرة بشكل جماعي دائري حيث الرز و يوضع عليه لحم الغنم و**

لأشياء غير لحم الغنم و طريقة الأكل باليد التي يصفها بالمقرزة و الغير حضارية ، حيث يظهر أنه يشارك الجمع الوليمة و لكنه في الحقيقة يحفر بين الرز ليوهم مضيفيه أنه يأكل بالرغم أنه لم يضع أي لقمة في فمه ، كما يوصف كيف يقوم العرب بوضع اللقمة في فمهم بعد عصر الرز و اللحم باليد ثم يقذفو العجينة إلى الفم. كما يبين أن عند الحاكم تكون الوليمة ليست بأحسن حال و لكن هنالك خصصت أماكن عدة يتجمع المدعوون عليها ليأكلوا بنفس الطريقة المقرزة له.

يتحدث عن صعوبة التنقل في عمان المتصالحة حيث يبين أن التنقل بين الشارقة و دبي قد ينتهي بكابوس لوعورة الطريق لما بها من صبح و متغيرة حسب مواعيد المد والجزر. و يروي أحداث و تجارب عن معاناة مستخدمي الطريق خصوصا السكارى منهم من الإنجليز. و يتحدث عن وعورة الطريق الرملية أيضا بين دبي و البريمي و كيف أن الركاب يحملون السيارات و يدفعونها في بحر الرمال.

كيف غادر تركي بن عطيشان البريمي: وافق الملك في الرياض للجوء إلى التحكيم في جنيف بينه و بين المملكة المتحدة ممثلة لسلطان مسقط و عمان و شيخ أبوظبي ، في هذه الأثناء على تركي و رجاله أن ينسحبوا من معقلهم أما نحن علينا أن نوقف جنودنا من الهجوم عليهم. و ذلك تم إعلان البريمي "منطقة محايدة" بين الطرفين بنطاق ١٥ ميل فلا نفوذ للسعوديين أو البريطانيين أو العمانيين أو أبوظبي فقط مجموعة صغيرة من الشرطة مكونة من السعوديين و من جندرمة ساحل عمان بقيادة مشتركة من ضابط بريطاني و مسؤول سعودي.

تم ترحيل تركي من البريمي بشكل مهيب تم الإعداد له على ظهر سفينة صاحبة الجلالة البريطانية الأمر الذي زاد من مهام الضابطين المتجولين ... فقد كان لزوما على تركي أن يغادر البريمي برفقة الجيش البريطاني إلى الحدود الدولية السعودية و لكنه أصر أن البريمي جزء متكامل من المملكة العربية السعودية و أنه متواجد في هذه الحدود الطبيعية للمملكة و لا يحتاج إلى مرافقة بريطانية و أن البلاد بلده و أنه يعرف الطريق جيدا و لا يحتاج إلى مرافقة و دليل في ذلك ... هنا كانت مشكلة دبلوماسية صغيرة ، و بصفتي ضابط مناب في الشارقة قمت برحلات عديدة إلى دبي للتشاور مع الوكيل السياسي البريطاني و في النهاية إقنع الوكيل السياسي بأن تركي شعر بالأمر و أهميته أكثر منه و بذلك سمح للكتيبة بالمرور و المغادرة من غير مرافقة من قبلنا ... آخر ما سمعت عن تركي بعد ذلك أنه وصل سالما إلى دياره ، و أثبت أنه على صواب.

و بذلك رحل السعوديون و اسست جندرمة ساحل عمان قاعدة عسكرية لها نطاق ١٥ ميل دائريا. و في تلك الأثناء كانت الشارقة تشبه حماما بخاريا تركيا و مجندونا لا يزالون يقذفون صنادلهم المتطايرة في شمس أغسطس. و بعد فترة قصيرة إنتهت مهمتي في المقر الرئيسي "الفاخر" و بدأت أكتشف كيف تكون الحياة غير مريحة حيث كلفت بمسؤولية فرقة من المجندين و قضيت معهم أشهر عدة في مناطق نائية غير محببة.

في هذا الفصل لا يذكر المؤلف أحداثا كثيرة سوى أنه إنتقل إلى "الطريف" بالمنطقة الغربية في إمارة أبوظبي ليشرف على فرقة من الجنود تابعة لجندرمة ساحل عمان لحراسة و حماية شركة البترول و منشآتها من شرور تركي بن عطيشان. يتحدث عن نوعيه مرافقيه من العرب و الأفارقة ، كما يذكر أن غالبية جنود الفرقة يتكونون من قبيلة "بني قتب" هذه القبيلة المشهورة بالقرصنة الصحراوية كقطاع طرق و من ضمن أفراد الفرقة ابن شيخ القبيلة الذي يصفه أن له تأثيرا كبيرا على أفراد الفرقة ، كما ضمت الفرقة صبيا أتى يلتهث لينضم إلى الفرقة حيث تبعه أحد شيوخ الشارقة الذي حسب أنه تربطه علاقة دم بالصبي حيث أصر على عودته و الرجوع معه و لكن إكتشف أن الشيخ له نوازع جنسية وراء طلبه الأمر الذي ساعد على تقبلنا لإنضمام الصبي إلى الفرقة.

يصف الحياة في "الطريف" و صعوبة الجو و الطريق و منشآت الشركة التابعة لشركة نفط العراق هذه الشركة التي ستحول خيام أبوظبي إلى كويت جديدة ... يقول أن رجال شركة النفط مرفهين بالمقارنة للتسهيلات الممنوحة لفرقة الجيش ... لديهم مكيفات مائية و لوبستر (الشارخة) و لحم (ستيك) و مؤكولات طازجة بما في ذلك الفاكهة ... كل شيء طازج إلا البيرة. و قد كان كل ما يخشاه هو دخول تركي بن عطيشان مرة أخرى و هذا الأمر بدأ يتلاشى مع مرور الزمن ... و لكن مغامرات الطريق الوعر كانت متكررة بشكل يومي فالسيارات تغوص في الرمال و الصبخة المتحركة و لكن مهارة موظفي شركة النفط ساعدت على تذليل هذه العقبات.

يتحدث عن تمرد قام به الجنود من قبيلة بني قتب تحت قيادة ابن شيخ القبيلة و ذلك إحتجاجا على التمارين القاسية و الأوامر التي لكبريائهم لم يستطيعوا تقبلها و ذلك بسبب عدم الرغبة في إظهار فشلهم و ضعف قدراتهم أمام رجال قبيلتهم الأمر الذي دفعني إلى التشدد و إظهار من هو المسؤول أنا أم ابن شيخ القبيلة.

فجندرمة ساحل عمان أصبحت في وضع غريب ... من يدفع المعاشات هي وزارة الخارجية البريطانية و ممون الذخيرة هي وزارة الخارجية البريطانية و ليس شيخ قبيلة بني قتب أما الضباط فهم من الجيش النظامي البريطاني و ليسوا من أفراد قبيلة بني قتب ، كما أن أفراد هذه القبيلة ليس لهم ولاء لبريطانيا و لتاج الملكة الأمر الذي دفعني إلى اللجوء إلى العلاقات الإنسانية لإنهاء هذا التمرد الذي قام به هؤلاء البدو الذين أزيحوا عن جمالهم و عاداتهم ليلبسوا الزي العسكري و يساقوا إلى نوع من الإنضباطية و الحياة المتحضرة ... فما كان علي إلى أن أصدر أوامري العسكرية الإنضباطية الصارمة لأريهم كيف يجب أن يكون الجندي ، و بهذه الصرامة و القسوة و التعامل الإنساني من ناحية أخرى تم إنهاء الإضراب ... و لكن بعد فترة قدمت تقريرا يبرر تصرفي الجاف مع هؤلاء البدو ذوي العقلية و الولاء القبلي ... و هنا تكمن لمن تكون القيادة.

إنتهت مهمتي في "الطريف" و عدنا إلى الشارقة و منها إلى المنطقة المحظورة "البريمي" حيث علمت أنني هناك

سأنفصل عن جنودي و سوف أكون في "محضة" مع بعض السكان المحليين الذين يجب علي أن أحدثهم بالعربية ... كنت لازلت شابا و الحماس في نفسي لم ينطفيء في بعد ... فلم أمانع من الذهاب إلى "محضة".

٤. " المنطقة المحظورة THE FORBIDDEN ZONE "

يذكر المؤلف في هذا الفصل الفترة التي قضاها في "محضة" الواقعة على تخوم واحة البريمي و مواجهته الأولى مع العنكبوت العربي الكثيف الشعر و الكبير الحجم الأمر الذي دفعه لكتابة لو أنه كان وحيدا لأقسم أن يمتنع عن شرب الكحول نظرا لحجم العنكبوت الذي يبلغ طوله نحو ٦ إنشات. و يستمر بوصف العنكبوت الذي يكتف من تواجده في الليل و يعيش في شقوق الجدران و يستطيع مصارعة و مقاومة القطط الصغيرة بالإضافة إلى تواجد العقارب التي تتجنبها القطط لعلمها بالفطرة أنها سامة.

يتحدث عن الأسماك في محضة برغم بعدها عن البحر بنحو ٨٠ ميلا (سمك الصد في الأفلاج) التي وصفها بالعدوانية نظرا أنها تأكل و تهاجم جسم الإنسان حيث يذهب إلى الفلج يوميا ليهرب من حرارة الجو ، و شبه أسماك الصد بذباب الشارقة الذي يهاجم الأماكن الحساسة في جسم الإنسان.

يصف المخيم في محضة الذي يتكون من أكواخ مصنوعة من سعف النخيل ... كل شيء هناك ساخن الماء و الحديد نظرا لحرارة الجو حيث يستلقي عاريا في سريره و تأتي قططة العطشى للحس جسده بحثا عن الملح ... و لكن الجو يتحسن في الليل و يصبح مقبولا .

لقد ترك جميع صحبه و معاونيه و أصبح يقوم بكافة المهام فهو طبيب و ميكانيكي و مسؤول عن الذخيرة ... يتحدث كيف واجه حالة وصفها بأنه سيواجهها فيما بعد أكثر من مرة في "عمان" هذه الحالة هي سيطرة الشيطان على أحد الجنود (مسكون بجني) و يصف الحدث بشكل دقيق و كيف أن الجنود مسكوا بالشخص المسكون و كيف هو أعطى أوامره الصارمة ... في الصباح رأى الجندي في أحسن حالته و أنه قيل له أن ضيفه غادر إلى الدرك الأسفل من العالم ... و كأن شيئا لم يكن.

يصف معاناة فرقته في الطرق الوعرة في محضة و في ساحل عمان ككل و كيف أنه من الصعوبة الحصول على قطع غيار مما يجبرهم ترك السيارات المتعطلة و ترك هياكلها في الصحراء و أخذ ما يمكن الاستفادة منه من قطع غيار.

يتحدث كيف أنه إعتاد على الحياة القاسية في هذه البقعة من العالم و على هوس و جنون وظيفته و مهمته و الأشخاص المجندين الجدد الذين قابلهم منهم رجل عجوز يناديه "يا أبنّي" و يعامله كوالد و ليس كضابط مسؤول و

كيف أنه وجد نفسه وحيدا عندما وقف الجميع لأداء الصلاة هذا الموقف الذي تكرر دائما حيث أن الصلاة لدى المسلمين لديها مواقيتها المعينة. كما أن الوقت و المواعيد عند العرب ليست مراعاة و ملتزم بها فإذا قلت الساعة الثانية ظهرا فيمكن أن تكون و تلبى في الثامنة مساء فالحياة عند العرب لا ميقات لها ... و هذا الحال ينطبق أيضا على الإجازات حيث لا يلتزمون بوقت العودة من الإجازة فقد يكون الأمر قبل أو بعد ثلاثة أيام من موعد إنتهاء الإجازة. هذه الحياة و الشخصية البوهيمية عند العرب يمكن ملاحظتها خاصة عند ذهاب الجنود في إجازات.

كان جاري في محضة ممثل عن حكومة السلطان الواقعة الآن خارج البريمي المنطقة المحظورة. إسمه الحقيقي السيد سالم بن حميد السعدي و لكننا كنا نطلق عليه "**Grock**" نسبة إلى المهرج الشهير لأنه جلب البهجة و المسرة لحياتنا التعيسة و القاسية ... لقد ولد كومديا و على الفطرة و بالرغم أنه يجهل ذلك .

كان "**Grock**" يسكن على بعد ٥٠ ياردة من سكني و يعمل موظفا مدنيا للجبايات الجمركية التي تفرضها حكومة السلطان على البضاعة و الشاحنات المحملة لها المارة على نقطة التفتيش في مدخل المنطقة المحظورة من البريمي ... فبعد أن أنهى دوري في تفتيش هذه الشاحنات و المسافرين بحثا عن الأسلحة يأتي دور "**Grock**" لأخذ الجبايات الجمركية.

هنالك تفسيراً غامضاً للأوامر التي يطبقها "**Grock**" في إداء مهمته و عمله ... أستطيع القول أن سكنه ملئ بالأثاث و المتاع المريح الفاخر الذي تمت مصادرتة عبر مركز الجمارك من الحافلات ... و لكن أستطيع القول أنه لم يأخذ مالا أو يرتشي إلا ذلك المال المستحق لرسوم الجمارك و قد كان يفسر السعر و سعر الإستهلاك (خفض القيمة) حسب الأوامر التي يتلقاها. و كان عند مساءلته عن أمر ما يظهر الدليل بالوثائق المعتمدة و الموثقة و وفق مسؤوليته و صلاحياته .

يستمر المؤلف بوصف هذه الشخصية ... ليس له أسنان كما أنه يتحدث بلغة الإشارات و كيفية نومه و لبسه للعمامة الكشميرية ... إلخ.

كما يتحدث عن شخصية أخرى قابلها في محضة ... شخصية بريطانية تمثل "عمان" القديمة و يطلق عليها "**Gasper**" الذي لم يكن إسمها الحقيقي ، إلتقيت لأول مرة ب "**Gasper**" عندما أتى ليحقق معي من الشارقة عند تدريبي للجنود و تنظيمي لهم خلال التمرد بقيادة ابن شيخ بني قتب قادما من الشارقة ... إنه شخصية فيكتورية كلاسيكية تراثية بريطانية ... مكث "**Jasper**" في المخيم فترة وجيزة كافية للتأكد أن سلوكي طبيعيا و أنني لا أعاني من مشاكل نفسية كما أن التقارير عني مبالغ فيها ...

سوف أقابل الكثير من أمثال "**Grock**" و "**Gasper**" كثيرا في السنوات القادمة.

حدثت مناورات غامضة في المناطق الغير معروفة إلى الجنوب من مخيمنا. ففي تلك الأيام كانت عمان الأصل ، منطقة الجبل الأخضر ، معقل الإمام و أرض بها عقب الرومانسية حيث منحت الطبيعة القاسية و الصحراء القاحلة تلالا من الخضرة و ينابيع فوارة و مدن مليئة بالحصون و القلاع و أبراج المراقبة و أسواق مليئة بعقب و روائح التوابل ... جبال تعانق السحب و ما فوقها و سهول خضراء مفعمة برطوبة الندى حيث تنبت كروم العنب و أشجار الرمان و اللوز و الجوز ... هناك يحكم الإمام متواريا بذكاء غامض و هناك أيضا يتمخطر بدهاء سليمان بن حمير سيد الجبل الأخضر و ملك النبهانيين الطاغية الغير منافس في سفح الهضبة الخضراء ... هذا كان هو التصور الذي كان لدينا عن هذه المناطق المبينة على الخارطة بأقل التفاصيل. قام أحد المكتشفين بالتجول في المنطقة في السنوات القليلة الماضية و لكنه لم يتمكن من الوصول و النفاذ إلى هضاب الجبل الأخضر.

و لكن أشياء غريبة كانت تحدث و بسرية مطلقة ... حيث كنت أنا و من موقعي في محضة ألعب دور "الوقوف الطويل" أو الإسترخاء للعملية ... و لم يخبرني أحد بذلك. و فرقة مميزة تعرف بقوة سلاح مسقط و عمان الميداني أسست لها مركزا في مدينة تعرف بعبري على بعد مائة ميل من جنوب البريمي و في منتصف الطريق إلى عمان الأصل. و حيث أنهم لم يملوا على البريمي تمت الفرضية أنهم سلكوا طريقهم إلى هناك من الإتجاه الآخر من الجنوب عبر عمق الصحراء. كان معرفتي الأولى بتواجد هذه الفرقة الرديئة بواسطة تعليمات أنه علي أن أرافق حملة من الشاحنات المدنية عبر محضة في طريقها من الشارقة إلى عبري هذه الرحلة المورعة تحمل شحنة من الوقود للقوات الميدانية. لقد سبقوا التواصل مع قيادتهم و إتصالاتها الأمر الذي مكنهم من الإستمرارية في الطريق.

و لذلك و في إحدى الأيام و قبل شروق الشمس قدت دورية صغيرة إلى الحاجز الرملي من محضة في إنتظار قدومهم و كل هذا تم تصريحه بالدقة و السرية التامة ، و قد تم التأكيد عي أن هذه الفرقة يجب أن لا تطأ أقدامها على المنطقة المحظورة في البريمي و كان علي أن أسلم الحملة بالقرب من تل سري صغير إلى مندوب من قوة مسقط و عمان الميدانية الذي كان من المفروض أن يلاقينا في الساعة المناسبة في منتصف الليل و من ثم يقودها إلى أعماق شبه الجزيرة العربية.

و مضت العملية كما هو مخطط له ... (يصف كيف الفتان السود قاموا بإعادة نفخ الإطارات التي تم تفريغها لتمر عبر الكثبان الرملية و كيف إستراح الجنود في ظلال الأشجار الشوكية في هجر الهجيرة). و عند اقتراب المساء تحركت القافلة مرة أخرى لتواصل سيرها دون الإقتراب من المنطقة المحظورة الأمر الذي كان صعب تطبيقه لعدم إنصياع رجال الحملة للأوامر إلا بعد تفاوضي مع المندوب القادم من عبري و تم ذلك بالإقناع و التهديد و الصرامة العسكرية و وصلنا إلى نقطة الالتقاء و التي صعب تحديدها لردائة رسمها على الخارطة التي أغلب بياناتها خاطئة ... حيث أن المنطقة مليئة بالتلال المتشابهة ... و نتيجة لصعوبة تحديد الموقع و جدنا أنفسنا في دوامة من التجول و البحث من تلة إلى أخرى و فجأة أضاعت سماء الليل بوابل من شظايا الرصاص. و تم محاصرتنا من قبل قوات مجهولة و لحسن الحظ أنهم بادروا بالحديث و إعطاء الأوامر باللغة الإنجليزية حيث أمرونا بالتوقف و تعريف أنفسنا

... حيث كانت هذه اللحظة السعيدة حيث أنني أيضا أتحدث الإنجليزية فقد قمت بالإجابة عندما سألنا بأن نعرف أنفسنا: جندرمة ساحل عمان ، فرد علي متحدي أنزل سلاحك و عرف بنفسك و لبيت مرتجفا مرتعدا ... حيث قام ضابطان يلبسان لباسا خاكيا بتفحص وجهي عبر مصباح كاشف. حيث تأكد الضباط البريطانيين بأنني لست تركي بن عطيشان متنكرا بهيئة ضابط إنجليزي ... و عدنا جميعا إلى محضة حيث تم تسليم شاحنات الوقود لهم و غرقت في راحة تامة بتسليمي لهم هذه الشاحنات ... إبتعد الجميع بما فيهم رفاقاء ثقافتني و حضارتي القادمين من عبري و سائقو الشاحنات القادمين من الشارقة و ضوضاء الشاحنات ... خلدت للنوم العميق و عندما صحت في الصباح لم أجد أحدا ... جميعهم ذهبوا تاركين آثار سيرهم إلى أعماق شبه الجزيرة العربية.

بعد ذلك بفترة وجيزة إنتهت مهمتي مع جندرمة ساحل عمان ... ودعت "Grock" و الجندي العجوز الذي يناديني يا "إبني" و وطأت بحذر فوق آخر عنكبوت أصفر أراه و سلمت رجالي و وظيفتي إلى رجل ممتاز يدعى جون رودس و توجهت إلى الشارقة و منها جوا إلى لندن.

قدر لي أن أغيب عن أهم الأحداث المثيرة في البريمي و أهم تطور للأحداث في عمان الأصل و عملت في السنتين التاليتين في سلاح الإشارة البريطاني في ألمانيا و من ثم طيارا في السلاح الجوي الملكي البريطاني ... و في تلك الأثناء كان القرن العشرين ينفجر بقوة و بقسوة بعد خمود لقرون عدة على سلطنة مسقط و عمان.

هـ. "سلطان ضد إمام SULTAN VERSUS IMAM"

إنهارت المباحثات الصبورة في جنيف عندما أصبحت الوسائل الدبلوماسية للملكة العربية السعودية عدوانية و صاخبة و غير قابلة للتغاضي عنها. و بإيجاز لقد قاموا بتغطية عجزهم و إفتقارهم للمناقشة القانونية و السندات الموثقة بالتوزيع الحر للمال (الرشوة) و الذي هو عرف ثابت و معتاد و مقبول في عاداتهم و الذي كان صدمة كبيرة بالنسبة للرجال المهذبين المرتدين للبدل المحترمة على الجانب الآخر من طاولة المفاوضات .

النتيجة لهذا التصرف الغير حضاري كانت إطلاق العنان لجندرمة ساحل عمان هذه الخطوة التي منع من إتخاذها سلطان مسقط و عمان في عام ١٩٥٢ م و التي تم إنجازها عام ١٩٥٥ م.

لقد كانت مهمة نشطة و فاعلة تحت القيادة الصلبة و الصارمة لأريك جونسون (Eric Johnson) الذي أحضر قوته الضاربة إلى محضة على هيئة فرقة محرر مطهرة. إكتسحت قوات الجندرمة الشرطة السعودية في مطلع النهار و طوقتهم قبل أن يستطيعوا لبس سراويلهم. و في طريقهم إلى تلك المهمة إعتقلوا الشخص الذي من المفروض أن يحل محل "Grock" في وظيفته المكلف بها من قبل السلطان حيث أخفي عليه أمر العملية و بينوا

أنه مختطف و وضع تحت الإقامة الجبرية حتى إنتهاء العملية و عند ذلك تم إطلاق سراح هذا الشخص الذي شعر بالإرتباك و عدم الفهم بما يجري و وضع بعد ذلك في مقر عمله.

إعادت الجندرمة إحتلال الواحة بالقوة و إتخذت مقرا للأفرادها قلعة منهارة لها شكل مميز حيث قامت الجندرمة بإعادة بناء القلعة و تقديمها كهدية لجيش السلطان لتأسيس مقر قيادة له في البريمي.

و ظن الجميع أن الأمر قد إنتهى ... و لكن التأخير في تنفيذ العملية كان أمرا كارثيا. حيث أن السنوات التي وقعت بين التجمع القبلي الكبير لنصرة جيش السلطان و الذي تم صرفه نتيجة تدخل القنصل العام البريطاني في مسقط و طرد الشرطة السعودية من الواحة ... إستخدمت هذه السنوات بشكل جيد من قبل الحكام المخادعين الموالين للملك. لقد كانت البريمي و الإمارات المتصالحة ... على الأقل بالعين المجردة ... بعيدة عن التأثير و العدوى و و تراجع عافيتها و أنفاسها بعد عملية طرد السعوديين ، و لكن الوباء قد إنتشر و بالأخص إلى الجنوب حيث السهول الباردة المليئة بأشجار النخيل و مدن عمان التراثية ... حيث وجدت حقائب المال السعودية أيادي جشعة طامعة!!!

عبر تاريخها المدون و الذي يمتد إلى أكثر من ألفي سنة ظلت عمان مستقلة معطية ظهرها إلى شبه الجزيرة العربية و بقية أنحاء العالم ، و لفترة وجيزة حكمت بطريقة دموية بواسطة الخلفاء في بغداد و بخلاف ذلك حكمت عمان نفسها بطريقة مميزة و مختلفة ، ففي بعض الفترات حكمها ملوك النباهنة سادة الجبل الأخضر و أجداد السيد الحالي "سليمان بن حمير" الذي لا يزال يطلق على نفسه "ملك النباهنة" عندما يغيب الجمع عن النظر ... و في بعض الأحيان حكم عمان إمام و في أحيانا أخرى تواجد إمامان على دفعة الحكم و أحيانا أخرى لا يوجد إمام أو سلطة معترف بها.

في القرن الثامن عشر كان يحكم إمامان اللذان قادا البلاد إلى الهول و نشرا حربا أهلية حتى قام أحدهما بتكليف جندي مرتزق يدعى أحمد بن سعيد للقضاء على الآخر. و إثر ذلك و بطريقة رومانية بحتة نصب أحمد بن سعيد نفسه إماما. نظام حكم الإمامة يجب أن لا يكون وراثيا و لكن عائلة أحمد جعلتها كذلك ، كما أنها ليس من المفروض أن تحكم من مسقط تلك المدينة الساحلية التي لديها إتصالات مشبوهة و مريبة مع المسيحيين و بعض العناصر القدرة و الفاسدة ... و لكن الحكم يجب أن يكون مقره نزوى المدينة الغامضة و المقدسة عن بقية المدن العمانية. و لكن سلالة أحمد من الحكام غيروا كل ذلك و نصبوا أنفسهم أئمة على مسقط و عمان و ذلك قبل أن يرتكبوا جريمة أخرى و يلقبوا أنفسهم اللقب المستورد الغريب "سلطان" ، و كان هذا أمرا غيرا مقبولا و غير محتملا من قبل عبق القيادات الدينية للمنطقة الداخلية و الذين قاموا بردة فعل معاكسة بإنتخاب إماما لهم من زعمائهم الملتزمين.

و بهذا نشأ وضع ظل متذبذبا و لمدة قرن و نصف من الزمان ... فيوجد إمام لعمان و سلطان لمسقط و عمان ، و كانت هنالك تغيرات معقدة ... ففي بعض الأحيان يطلق السلطان على نفسه إماما و في بعض الأحيان تدخل البلاد في

فراغ سلطوي حيث لا يوجد إمام ولا سلطان. وفي بعض الأحيان يوجد سلطان وإمام في آن واحد وفي توافق و تواجد تام فالسلطان يعتبر موجودا كقلب و لكن الإمام مستقل بحكمه الذاتي في الداخلية.

حدث مثل هذا الوضع في مطلع الخمسينات. لقد كان الإمام رجلا حكيما محترما و عادلا و كان هو السلطان على توافيق تام. عندما قام السلطان بالتفاعل ضد هجوم تركي بن عطيشان و ذلك بتجميع رجال القبائل و ذلك لطرده من الأراضي العمانية كان الإمام من حشد الرجال و القبائل لمناصرة جيش السلطان. لقد كان الإمام رجلا صلبا و معارضا قويا للتواجد و التأثير الخارجي و ضد المسيحيين و الملحدين و حتى السعوديين و كان يريد إخراج جيش الملك إلى خارج الحدود العمانية.

و لسوء الحظ و الطالع توفي هذا الإمام مباشرة بعد الأحداث التي تم ذكرها في الفصل الأول من السرد التاريخي لهذا الكتاب. و بدأت القوى و المصالح و المنافع تأخذ طريقها في إنتخاب خليفة له. و بالرغم من كفاءة الجيش و كتابه وجدت نفوذ تركي طريقها إلى العمق العماني ... حيث تم في النهاية إنتخاب إماما جديدا و الرجل الذي تم إنتخابه و ظهر على السطح في أبريل ١٩٥٤ و بكل الدوافع و المصالح و الأهداف ما هو إلا "دمية" في أيدي السعوديين. إسم الإمام الجديد غالب بن علي و لديه أخ يدعى طالب و الذي سيلعب دور "دانتون" في الثورة الفرنسية ، و سيكون طالب معروفا بالدهاء و التساهل و الجدل في السنوات التي ستلي .

يناصر غالب لتحقيق أهدافه و مصالحة سليمان بن حمير من قمة مملكة الوعرة و كذلك يناصره من المقاطعة الشرقية البعيدة و إلى الجنوب من نزوى شخص محلي عظيم النفوذ يدعى صالح بن عيسى. و حيث سليمان و جبله و صالح و مقاطعته و قبيلته القوية أيضا أحكم الإمام الجديد قبضته على المناطق الداخلية المتاخمة لمسقط.

أدخل شركة نفط ... فرعا من شركة نفط العراق لديه الرغبة لتعزيز تواجدها على التخوم الصحراوية لعمان منجذبة إلى قبة صخرية من الحجارة تدعى فهود الشبيهة لما ورد في كتابهم لظاهرة التجمع النفطي و الذي لم تتمكن الشركة من المقاومة لإستكشافه. و لكنه الآن ظهرت خلافات دبلوماسية و قضائية. يدعي السلطان بصفته الحاكم الأوحد لكل البلاد أنه هو و هو فقط الذي يجب التعاون مع فتيان شركات النفط و إلى جانب ذلك أنه شأن سياسة خارجية و التي كانت على الدوم من صلاحياته.

لا و كلا ... قال الإمام و رفاقه السريين المتآمرين ... إذا كان الشأن أمرا داخليا فهو النفط و لا يوجد شأن داخليا مثل النفط في أعماق صدر أرضنا.

لمواجهة هذه العقبة قامت الحكومة البريطانية بتشجيع السلطان على شن هجوم مباغت. الهدف هو موقع لحقل نفطي يدار من قبل شركة بريطانية مع منفذ على المحيط خارج الخليج الفارسي المضيق المعرض للتهديد و مهم للقوات الملكية البريطانية. و لتحقيق ذلك الهدف أن يضع السلطان قبضته على أرضه الخصبة بالإعداد لخطه لا تخلو

من التشويق و الجاذبية. و لذلك كانت تلك الشائعات المتميزة و التحركات الكثيفة التي حامت حول مخيمنا في محضة في الشمال البعيد و الموعد السري في التلال المحيطة بمحضة و قوافل شاحنات الوقود و بقيه الأحداث الدرامية المتتابعة أمور لا تخلو من التدبير و الإعداد المدروس. فقد قامت شركة النفط بإستئجار جيش محلي برفقة الجيش المسيحي الممعداني المبجل من أفراد القوة الميدانية لمسقط و عمان ليشن هجوما يحتل به فهود و لتبدأ الشركة بالتنقيب. القوة الميدانية و بحماسها المتوهج توجهت شمالا إلى عبري و إستولت على المدينة بشكل مثير و لكن بلا ضحايا أو دماء. و بهذا النصر توج السلطان ذلك بالإنتلاق من قصره عبر الصحراء إلى نزوى ... نزوى المقدسة حيث قابله ملك الجبل سليمان بن حمير الذي كان يهدف كسب الوقت. و تم عزل الإمام ، بينما سليمان و قد قام بأداء مجاملته بزيارة السلطان عاد إلى الجبل ... بينما بدى الأمر بسيادة السلطان و تشجيع و موالة العمانيين له و الترحيب به بالزهور و الهتافات ... هرب صالح بن عيسى إلى خارج عمان.

سحابة حزن واحدة حامت فوق هذا المشهد السعيد و لم يلاحظها أحد. فقد كان طالب شقيق الإمام متحصنا في مدينة الرستاق الجبلية القريبة من ساحل البحر. ففي نفس الوقت الذي كان موكب السلطان يتجه إلى نزوى تمت محاصرة طالب من قبل أحد قوات السلطان الخاصة الثلاثة و التي تعترف بقوة الباطنة تحت قيادة ضابط شجاع قوي مهيب حكيم هاديء يدعى كولن ماكسويل (Colin Maxwell) أخبار عزل الإمام وصلت إلى علم طالب متأخرة ... فقد تحدى ماكسويل و جيشة و تم الضغط عليه و محاصرته و لكنه قاوم و أبى الإستسلام ... و استطاع التسلل خلسة بين جيش ماكسويل و أفراد الشجعان و إستطاع الوصول إلى المملكة العربية السعودية حيث بدأ بالعمل للعودة من جديد.

لم يمض وقتا طويلا لتثبيت حكم السلطان في نزوى ، فقد بدأ طالب لتجنيد و تدريب أفرادا لجيشه تحت نظر عين الملك سعود ... جيشا للتحرير و الذي يهدف إلى إعادة حكم الإمامة و مجدها.

ظل سليمان في الجبل حيث لا يستطيع أحد الوصول إليه قاضيا وقته متجولا من قرية إلى قرية مختارا رفيقته لقضاء الليل معها. كان الطاغية لديه عصا حيث يضعها على عتبة باب من يختارها خليلته في تلك الليلة. و عندما يعود الرجل الطيب صاحب المنزل من يوم عمله الطويل و يرى ذلك الرمز أمام باب بيته يبتعد مباشرة و لا حيلة له أمام تصرفات ذلك الطاغية حتى ينتهي ذلك العجوز و الوحش المرعب من زوجته ... سليمان بن حمير كان رجلا عجوزا قدرا.

و في ذلك الوقت تمكنت قوات مسقط و عمان الميدانية من تعزيز تواجدتها في المناطق التي سيطرت عليها بواسطة سيارات اللاندروفر بتأسيس وحدات عسكرية و مخيمات. و بخلاف التوقعات و تدريجيا كما تتكون سحب العاصفة ثم تنجلي كان سليمان رجلا مجاملا مضيافا كلما قابله ضباط جيش السلطان و لكن لا يسمح لهم بالصعود إلى الجبل و

لكنه يستقبلهم في عاصمته تنوف في السهل أسفل للجبل ... و لكن الشائعات تضاعفت و مناصروا طالب بالتأكيد تزايد عددهم و بسرية و الوضع أصبح مترديا كما ذكر في التقارير الإستخباراتية.

و في النهاية انفجرت العاصفة في صيف ١٩٥٧.

كانت خطة طالب الأصلية تنفيذ عصيان و تمرد في آن واحد في مقاطعة صالح بن عيسى و في وسط عمان بحيث يقود أخو صالح بن عيسى و يدعى إبراهيم الجبهة الجنوبية و يقود طالب الجبهة الوسطى. هذه الخطة فشلت و ذلك بسبب تعطل سفينة. وصل إبراهيم في أبريل لمحاولة إثارة المنطقة الشرقية و لكنه قوبل بالرفض من سكانها المتقاعسين. قامت قوة السلطان الميدانية مستخدمة سيارات اللاندروفر لمواجهته حيث واجهت القوة الميدانية إبراهيم و لكن إبراهيم علم بتعطل سفينة طالب فقام بعد ذلك بالتوجه إلى مسقط للتفاوض مع السلطان و فور وصوله تم إلقاء القبض عليه و إيداعه في السجن الذي يمكن أن يكون محجوزا فيه حتى الآن ... تم تطبيق حالة السلم في عمان.

و لكنه كان سلاما خادعا لأن طالب لم يبلغ رحلته البحرية ، فقد تدبر سفينة أخرى أو تم إصلاح سفينته الأولى و أبحر مع قلة من أنصاره و رسى بالقرب من شمال مسقط حيث الكثافة السكانية و القرى المتعددة المليء بأشجار النخيل و استطاع النفاذ إلى اليباسة من دون أن يشعر به أحد.

علمت القوات الميدانية بخبر طالب حين علمت أنه وصل إلى بلاد سيت. بلاد سيت هي مدينة طالب و عاصمته و هي جبلية محصنة بقوة تبعد عن نزوى بنحو ٢٠ ميلا. و هناك قام بتطبيق معايير و أعلن إعادة حكم الإمامة. و أخوه غالب لم يكن لديه الخيار إلا الطاعة. فإنضم إلى طالب من المدينة التي كان يعيش بها كمواطن عادي مآدب و محترم و أصبح إماما مرة أخرى. و رفع علم التمرد و رفر في أنحاء المدينة.

كان سليمان في تلك الأيام في مسقط حيث تمت دعوته من قبل السلطان كخطوة إحترازية حكيمة ، و لكن سليمان حتى ذلك الوقت تصرف بتعقل و إحترام فقد وضع فقط تحت الإقامة الجبرية في منزل الضيافة.

قامت القوة الميدانية بالتصعيد لمواجهة تحدي طالب. فلم يكن لديهم خيار آخر سوى ذلك حيث أن كل المناطق في عمان الداخل أصبحت تضم العداء للقوة الميدانية و السلطان الذي تمثل حكمه. قامت القوة بمحاصرة بلاد سيت مستخدمة سيارات اللاندروفر التي بحوزتها.

الطريق إلى بلاد سيت تمر عبر تلال صخرية حيث الممرات الملتوية و المتعرجة. و لكونهم رجال تربوا على العسكرية قامت القوة الميدانية بإعتبار خطوط مواصلاتهم بالشك و الريبة ، و بالفعل تأكد ذلك حين لم تلتزم قبيلة العبريين القبيلة الصديقة للقوة البرية و الموالية للسلطان و التي كنا نظن أنها تضم العداء لطالب و ملته بالتمركز

في مواقعها لمراقبة تحركات طالب و أنصاره .قامت القوة البرية بالتقدم نحو بلادسيت ظنا منها أن الطريق سالكا و مراقبا من قبل العبريين ... و لكن إثر تقدم القوة قام عناصر من جماعة طالب بمهاجمتها ... علما بأن القوة زودت بأسلحة لا توجد إلا في المتحف الإمبراطوري الحربي في لندن ...إستمر إطلاق النار لمدة سبعة أيام و ليال متواصلة.

في مسقط إستنشق سليمان الهواء و قرر في أي إتجاه تسير الحرب ففي إحدى الليالي تمكن من مخادعة حراسه و ركب سيارته و إتجه إلى الجبال حيث موقع المعارك ، و في الطريق قابل سيارة لاندروفر للقوات البرية حاملة جرحى من موقع المعركة ، أوقف اللاندروفر و أطلق النار على الجنود الجرحى و أرسلها إلى مسقط مع حملها الميت بهدف كسر معنويات الجيش في مسقط.

و فور وصول سليمان إلى منطقة المرتفعات الجبلية أعلنت مملكته الجبلية الحرب ، و ناصرت قبيلته كلها الإمام ، و هذا يعني أن ليس فقط الكتلة الجبلية اضخمة للجبل الأخضر بل جميع القرى و المدن المحيطة بها حتى الضواحي الشمالية لنزوى. هذه المناطق كلها ضد القوة الميدانية و هذا يعني أن كل عماني قادر على حمل السلاح يمكنه تصويب سلاحه و من أي منزل و مزرعة على أفراد القوة الميدانية. أصبحت القوة الميدانية و بكل يأس مقطوعة عن مركز مخيمها في الطرف الآخر من نزوى . فقد كانوا محاصرين بين جنود طالب و حصونهم الواقية من الرصاص و قرى سليمان الغاضبة الناقمة. و لجعل الأمور أسوأ خذل العبريون الذين كانوا من المفروض حراسة الممرات و عيون قوة السلطان بتقاعسهم عن المراقبة ... نصب كمين لأفراد القوة و دمرت شاحناتها و زرعت الألغام في طريقها.

فلم يكن من سبيل سريع و عمل عاجل يتخذ ألا التراجع إلى مواقعهم. و قصة هذا التراجع حسب معلوماتي لم يتم نشرها. إنها كانت مريعة و لكنها كانت رائعة. فقد كانت القوة تضم فرقتين بالإضافة إلى الصواريخ و مراكز القيادة و المسافة نحو ٢٠ ميلا بين سكان جبليين قذرين أوغاد و شوارع و أزقة عبر قرى و مزارع و بيوت و شبابيك ملئ بالعرب التي تقطر من عيونهم الكراهية و الحقد و أيديهم على زناد البنادق.

درجة الحرارة كانت تقريبا 120°.

ليس كل من توجه إلى دارسيت عاد إلى المرسى. فقد تخلى الجنود عن بنادقهم و تخلى السائقون عن شاحناتهم و سلكوا الطرق الجبلية أما ركاب الشاحنات فتركوا كل يختار الطريق التي يمكن أن ينجي نفسه بها في جو مغبر حار و طقس قاس جاف حيث رائحة الموت ... فرقة واحدة إستطاعت النجاه و الضباط الأوروبيين جميعهم إستطاعوا النجاه عدا واحد منهم الذي إختار السير على قدميه و أنقذ من الموت و العطش و ضربة الشمس بواسطة مسؤوله

(سارجنت ميجور) الذي رفض التخلي عنه ... بالنسبة للبقية البعض توفى نتيجة العطش و حول الصخور و البرك الجافة ... و البعض تم أسرهم بواسطة طالب.

أما البقية فقد إستطاعوا التوجه إلى فهود و مخيم شركة النفط عبر نحو ٨٠ ميلا من الصحراء ... و فور إخلاء الكتيبة من نزوى وقعت القلعة الشهيرة تحت رحمة طالب.

و رفر علم الإمام ذو اللون الأبيض فوق نزوى ثانية.

أما مقاتلوا طالب أخذوا يتجولون في موقع القوة الميدانية الذي تم إخلائه مثل الغربان التي تحوم حول الجثث يضربون و يخربون و يطلقون الرصاص و يدمرون كل شيء يرون أنه صالح للإستعمال.

أما الهاربون المحبطون من جنود القوة الميدانية لجأوا إلى التلال الجافة الحارة و إستلقوا فيها ليلقوا حتفهم.

السلطان أرسل طلبا للمساعدة العسكرية من بريطانيا.

لقد إخترت هذه اللحظة بالذات لتقديم طلب الإنضمام إلى جيش السلطان. و يجب علي أن أضيف بسرعة أن هذا ليس سباقا بطوليا لأي طلب عون من السلطان بل أنه محض صدفة بالغة ، حيث أن أخبار الكارثة في عمان لم تنصدر صفحات الجرائد عندما طلب من و بكل إحترام أن أتخلى عن طموحي في قيادة طائرة صاحبة الجلالة عندما توجهت لطلب شيئا جديدا و تذكرت أن سلطان مسقط و عمان يقوم بتوظيف مرتزقة للعمل في جيشه. حيث أصبحت من هؤلاء. فقط عندما بدأت بالأمور الإجرائية لذلك كالفحص الطبي و المقابلات بدأت الصحف اليومية تكتب عن الأخبار من نزوى. في تلك الأثناء كنت قد إلتزمت و غادرت إلى مسقط متسائلا بأي سبب من الأسباب و ضعت نفسي في هذا الموقف.

٦. لا شيء تستطيع أن تسميه خبر

من هو سلطان مسقط و عمان هل هو رجل كلمة نعم أم كلمة لا ؟

هل هو نبيل مثل الرومان ، أم بغيز كرجل الثلج ؟

هل هو ضد أم مع الشؤون و الأوضاع القائمة ؟

هذه الكلمات من مجلة "Time" تشير إلى كيف يشعر بقية العالم نحو السلطان عندما طفق إسمه على رؤوس الأخبار العالمية. "صاحب السمو السيد سعيد بن تيمور بن فيصل بن تركي السعدي" ... هنالك سحر لا يقاوم لكونك

سلطان مثل كونك الخليفة في بغداد أو أكوند في سوات ، كما أنه هنالك بريق بخصوص الألقاب المتعدد مثل ديوق ماديناسيدونيا و أمير ساكسكوبيرجوثا في باث ... بالرغم أن التعداد السكاني لمنطقة حكم السلطان لا يتجاوز نصف مليون نسمة و هذا يعتبر تفوقا مقابل ذلك العدد الذي تحت حكم الإمام الذي يبلغ نحو مائتي ألف نسمة ... و لكنه لا يزال يتمتع بذلك القدر من السلطة و الهيبة و القداسة الذي يحسده عليها قيصر روسيا.

قابلت هذا الرجل الفاخر بعد وقت قصير من وصولي إلى مسقط . و كان هذا بعد أسبوعين من تدمير القوة الميدانية ... حيث تم بناء و تجهيز الهجوم إستعدادا للهجوم الإنتقامي بسرعة ... و كان الهدف من ذلك إنجاز الأمر و الإنتهاء منه قبل أن تهرع ذئاب الصحافة و تنشر الأخبار و قد تعلمنا هذا الدرس إثر الأحداث التي واكبت حرب السويس .

قوات صاحب السمو بدأت في الإستعدادات و التسجيل في مسقط . و قد تشكلت من كتيبة مسقط و هي عبارة عن جهاز إحتفالي تحت قيادة فارس سابق يدعى فرانك هيو ، و كتيبة من المتدربين تحت قيادة رجل مهيب ملتحي مرعب و صاحب طباع مذهلة يدعى بات جري . و كان الجميع تحت قيادة رجل صاحب مزاج "مكيافيلي" يدعى كلونيل بات ووترفيلد الذي منح الثقة و البهاء لمكتب رئيس الأركان . الجنود في مسقط كانوا ينتظمون في مجموعة بقيادة فرانك هيو و المعمداني هيوكول و كانت مهمتهم توفير طريق إلى عمان الداخل عبر الجبال الوعرة بقدر الإمكان بينما يكون الهجوم الرئيس من مسؤولية الفرقة في فهود عبر الصحراء . لم يكن الكثير متوقع من هيوكول و ذلك لخطورة و وعورة الممر الذي كلف به الشبيه بممر خيبر . و كان الأمل الرئيس للسلطان و البريطانيين معقودا على الهجوم من فهود و الجيش تحت قيادة المجدد و المعتمد عليه كولن ماكسويل ذلك الأسكتلندي المتعطش للدماء القادم من الجيش البريطاني و من القوات المساندة من كشافة ساحل عمان .

و أود أن أذكر هنا و منذ أن غادرتهم قبل عام و نصف شهدت جندرمة ساحل عمان تغيرات و تعزيز للكفاءة و القدرات . لقد غيروا لباسهم و أصبح ضباطهم لا يتجولوا في المناطق بأي لباس يروونه لائقا فقد حببوا انفسهم بلباس جديد مثل جنود جلوب باشا (الغتره الحمراء و العقال) و لا يطلقون على انفسهم جندرمة كما انهم يجندون الأشخاص المناسبين الصالحين و تم تسميتهم بكشافة ساحل عمان . و يعود الفضل في هذا التغيير لقائدهم الجديد ستيوارت كارتر الذي حل محل إريك جونسون (هنا يوصف كارتر و كأنه يتغزل فيه كما كان يفتخر و يعتز و يمدح بقية الضباط الإنجليز كما يعتز و يفتخر بسيارة اللاندروفر) . أن كشافة ساحل عمان تحت قيادة ستيوارت كارتر تبدو و أنها كتيبة جيش حقيقية و منضبطه أفضل من ما كانت عليه تحت قيادة أريك جونسون ... و كما أن كتيبة كشافة ساحل عمان تبدو رائعة كذلك يبدو ستيوارت كارتر .

التجول بشكل غير لائق حول جنود سمر البشرة و ملتحين و ضباط مرتزقة متهورين حيث يوجد بينهم جندي أو إثنين ورديي البشرة يرتدون ملابس خاكية و قبعات زرقاء . هؤلاء تمت إعارتهم من سلاح الجو الملكي البريطاني و

يحملون أجهزة إتصالات متنقلة يتم بواسطتها إشعار الطائرات لمساعدتنا إذا دعت الحاجة. و هنا توجد فائدة كبيرة. فخلال الأيام بين الغير واضحة القرار و التي وقعت في فترة إخلاء سلاح الجو الملكي و إعداد جيش التحرير كانت قوات سلاح الجو مشغولة بالتحليق فوق قلعة طالب و مناطق نفوذه بإلقاء المناشير تدعو فيها القبائل إلى طرد المغتصب و إعلان ولائها إلى صاحب السمو السلطان و بذلك ينجون بأنفسهم من الغضب المحدث. و كذلك إطلاق صواريخ مضادة للدبابات في معقل طالب المحصنة و إعاقه سيارة سليمان بن حمير. حدث بعض الإرتباك خلال هذه العمليات الأولية حيث أن علم الأمام لونه أبيض و علم السلطان لونه أحمر و ظن الطيارون أن اللون الأبيض يعني الإستسلام و اللون الأحمر الذي يرفعه السكان عندما يسمعون أزيز طائرات "الفيوم" المقاتلة و الذي يعني التحدي ... الأمر أصبح أكثر تعقيدا عندما رفع بعض المتحمسون الراية السوداء و التي تعني الحرب المقدسة و حيث أن هذا هو قمة التحدي و الجنون من قبل المتمردين إلا أنه أعطى مجالا أكبر للطيارين المرتبكين للقيام بمناورات أكثر .

القصف المدفعي و الصاروخي كان له تأثيرا محدودا ، و هذا ما علمناه فيما بعد بالرغم أن هذه الصواريخ كانت تحدث دوبا مزعجا في القرى المتقاربة. أغلب القلاع كانت مبنية من الطين و كان تأثير الصواريخ بالكاد فتحات صغيرة في جدرانها و واحدة منها و هي القلعة العظيمة في نزوى كانت صلبة كالصخر و كجبل صغير صلد و كان تأثير الصواريخ مجرد فرقعة صغيرة مرت بالقرب القلعة.

و لكننا الآن لدينا الفتيان بالزي الأزرق لإعطاء الدعم الكافي للوحدات المتقدمة. و حتى تلك الفترة كان الطيارون ممنوعين بشكل صارم من مهاجمة هدف حي ، و لديهم التعليمات بأنهم يستطيعون قصف القلاع بعد التحليق لمرتين فوق الهدف و ذلك لإعطاء الفرصة لإخلاء الهدف و إنذار الناس بأن سلاح الجو الملكي البريطاني قادم. إن جنود القبعات الزرقاء لديهم الأوامر العسكرية و يمكنهم إيجاز الطيارين و إعطائهم الأوامر العسكرية للقصف كلما لزم الأمر .

بينما الوحدة الرئيسية تعزز في فهود و التموين و تعزيز هذه القوات من الجو كان الوسيم هيوكول يستعد في ميدان العرض في بيت الفلج. و كان هذا المقر الرئيسي لكتيبة مسقط و تبعد نحو خمسة أميال عن مسقط و تقع على سهل جبلي و بها قلعة جبلية بيضاء جميلة و منشآت سكنية بيضاء. و في موقع مرتفع يقع بيت بات ووترفيلد و في موقع مرتفع آخر يقع منزل فرانك هيو و الحرارة كانت شديدة حيث يمكننا شمها مثل بخار الحديد الساخن ، أما الليل فكان مثل ليالي الشارقة بخارية رطبة و كثيفة كأنها خبز طازج ... و هنا أيضا كان الوسكي يتجرع مثل الماء.

هيوكول يتأهب و جنده مشغولون يرتدون قبعات خاكية ، و جري يجند جنود في لباسهم الغريب و أسلحتهم و بنادقهم إستعدادا للإطلاق نحو الجبال العالية بنحو الميل و مخاطر الحرب و تحت عين سلطان مسقط و عمان.

إنه رجل ضئيل الحجم صاحب هيبة و قوة أنه يشع سلطة و بسرعة من غير أن يبدو أنه يقوم بأي شيء . أنه في

منتصف العمر و به ملامح زنجية و لحية بيضاء ممشقة ذات رائحة معطرة تليق بملك أسبانيا و يلبس عمامة بيضاء منقشة و عباءة سوداء مطرزة من الجوانب بخيوط من ذهب و خنجر منقش بالذهب ملتف حول خصرته و رد على تحيتي بكل إمتنان و إحترام و مجاملة و سألني أسئلة مهذبة بلغة إنجليزية رقيقة رصينة ، و قام بالترحم و التجول بين صفوف الجنود بمختلف رتبهم تحدث العربية مع العرب و الهندية مع الهنود. إنه في الحقيقة ليس إلا طاغية مستبد مسكين ، و إنه لا يملك ولائي عدا أنه يدفع معاشاتي أكثر من أي من عملت عنده من قبل. و لكن هذه الشخصية الضئيلة المعطرة السمينة القادمة من عصر ألف ليلة و ليلة العربية إستذكر في عقلي المحادثة بين "لير" و "المتنكر" كنت:

"-لديك في محياك ما يدل و يدعني أقول سيدي ."

"- ما هو ؟"

"-السلطة ."

أعلم أن السلطان عزز الثقة و الحماس في أغلب الموالين له من جنوده الذين قابلوه و الذين عرفوه. و لكن في السنة اللاحقة عندما سحب نفسه من مسقط إلى منطقة نفوذه الخاصة في صلالة التي تبعد مئات الأميال جنوبا ... لقد فقد هذا النوع من التواصل مع رجاله و بذلك ماتت تلك الروح فيهم و تلاشى الحماس لديهم.

إنطلق هيوكل نحو التلال متوعدا الشياطين و الحقراء الذين في الأفق على بعد ٨ أميال. و قد تأخرنا عن الإنطلاق في اللحظة الأخيرة لأن المقاول الهندي الذي كان من المفروض أن يوفر لنا وسائل النقل لم يجهز شاحناتنا حيث كانت هذه الشاحنات في الخارج تنفذ عملا آخر ... تنقل السمك من الساحل و تشحن أخشاب المنازل و علب البارافين و تتاجر في المناطق حيث أن قوات السلطان في مسقط ساكنة ليس لديها شاحنات لنقل بضائعها و أفرادها ، كما أن السلاح الميكانيكي تم تدميره أثناء عملية التراجع من بلاد سيت.

و لكن في الأخير إنطلقنا من بيت الفلج بواسطة سيارات لانروفر عتيقة و شاحنات سمك ذات جوانب خشبية و كنا نشعر مثل الجيش الفرنسي قبل باريس عام ١٩١٤. و كان معظم خط سيرنا يقع في وادي مأهول السكان يعرف بوادي سمائل حيث المدن المحصنة دفاعيا بواسطة قلاع مراقبة صغيرة مبنية فوق التلال و أشجار النخيل الكثيفة واقعة بين نهر على أطراف الجبل الأخضر من جهة و من جهة أخرى صخور حمم بركانية سوداء. أؤكد لنا أن سكان وادي سمائل موالين للسلطان مثل العبريين في بلاد سيت ؟ و تعجبنا و لكن على رأس الوادي يمتد الممر حتى العمق العماني المقدس إلى سفح الجبل حيث منطقة نفوذ سليمان بن حمير ، و لكن في منطقة مجرى المياه في الوادي كنا نتوقع أن يتم إطلاق النار علينا.

في الطريق إنضمت إلينا قبيلة موالية سبب تواردها أفرادها الخوف و الرهبة فينا. كانت مهمتهم السيطرة على قرى سليمان و طالب في حال تحريرنا لها. لقد كان مسلما به أن جيشنا البالغ ١٠٠ جندي من الصعب إعتباره قوة مسيطرة ، و لكن تم معارضة ذلك في مجلس الحرب حيث قيل أن الجيش ببنادقه و آلياته و طائراته يمكنه مطاردة عصابة الإمام و بعد ذلك تقوم القبائل الموالية لنا إحكام سيطرتها على القرى و منع الزمرة الحفيرة من العودة.

قوبلنا بهذا التصور من قبل هذا التجمهر القبلي في وادي سمائل. المقاول الهندي كان يدر على نفسه كنزا من المال من خلال هذه الحرب حيث تم إضافة العشرات من شاحناته إلى ركب الجيش عبر الطريق الممتد من مسقط ، كل شاحنة مملوءة برجال القبائل الغوغائيين المعممين الذين غلب عليهم الحماس مجهزين بكل أنواع الأسلحة التي يمكن تخيلها ... و تصورنا و مثل ما تصور (Duke of Wellington) أنه مهما كان وقع تأثير هؤلاء على قوات الإمام إنهم و لله أربونا .رجال عددهم كثير و مسلحين إلى حواجبهم و بدون إنضباط أو كفاءة أو تخصص معين ... إنهم نذير حيلة و حذر و لكنهم في صفنا.

مسؤول عن كل هذا الجيش الأخ الغير شقيق للسلطان و يدعى طارق ... إنه نصف تركي و تلقى تعليمه في ألمانيا و يتحدث الألمانية و الإنجليزية أحسن من إتقانه العربية ، إنه يهوى بتهوفن و يمارس لعبة "البريدج" و هو ككل أمير غير متوافق مع طبيعة القرون الوسطى البارونية في مسقط. و لكن هذا هو الدور الذي منحه إياه قدره و أداه بإمتياز و واجب. إنه سمين و لكن نشط و يتمتع بكبرياء شامخ و سحر هادئ. كان علي أن أقابل طارق كثيرا في السنوات القادمة و أكون ممتنا للفرصة التي جمعتني به و تعرفت عليه ، رجل مثقف راق دفعت به الأقدار و أجبرته العيش في بلد يعيش في القرون الوسطى ، و إنه من الواضح أنه عالق بين ولائه لأخيه السلطان و إدراكه الحزين كيف أن العالم المتحضر يمر على وطنه المتسمر عند بوابة التاريخ العتيقة.

في مساء اليوم التالي تركنا رجال القبائل المتحمسين خلفنا و وصلنا من دون إشعار أو راحة إلى رأس وادي سمائل. على يميننا يقبع الجبل الأخضر باسقا بتعنت إلى السماء ، أنه عبارة عن قطع سميكة صلبة لونها رمادي تمتد عموديا على إمتداد ميل إلى أعلى .هناك تقبع تحصينات و أعمدة سليمان الحصينة. كل بضعة أميال كانت هذه السلسلة الجبلية تنفصل بأخاديد متعرجة و يمكن رؤية قمم هذه السلسلة الجبلية التقاطعات التي تفصل بينها ، لها لون بني مغبر محجوبة الرؤية بواسطة الندى الرطب على انتداد المسافات و الإرتفاعات . الخضرة في الجبل الأخضر ليست واضحة ، إذا كنت آمل في رؤية أشجار و أحراش على منحدراته فإني سأصاب بخيبة أمل. فاللغة العربية تفتقر إلى معالم الوصف للألوان و على سبيل المثال يوصف الجمل بأنه أحمر أو أبيض أو أخضر بينما يمكننا تمييز الألوان و ظلالها و التفريق بينها كالفرق بين اللون الأصفر البني و اللون الرمادي. و كذلك بالنسبة للجبال. عمان مليئة بالجبال فهناك الجبال الحمراء و و السوداء و البيضاء كلها فقط عبارة عن تغير في اللفظ و النطق و هي في الحقيقة جبال صخرية. شكل الجبل الأخضر هو رمادي قريب إلى لون الملح و لكنه رؤي من قبل السكان أنه

قريب من اللون الأخضر من أي لون آخر ... (هنا يصف صخور الجبل الأخضر و طريقة تشكيلها و تنوعاتها و بروزها و التي يعتبرها حتى الآن صامدة في وجوههم كدخلاء على المنطقة).

و لكن أن مهمتنا ليست مع الجبل الأخضر حتى هذه اللحظة بل مع مجرى نهر وادي سمائل الذي يلتوي و ينتهي في اخدود صغير. و عبر مسيرتنا بين صخور الوادي و تعرجاته لا نجد قطرة من الماء إلا بسيطرتنا على قرية من القرى ... و أمامنا و على بعد نحو ٥٠ ميلا و في خلف الجبال يخيم ستيوارت كارتر و كشافته و كولين ماكسويل و رجالة الأسكتلنديين و مجموعة معاونيهم ... و هنا و بين محرى الوادي و إلتواءاته شعرنا أننا صغارا و وحيدين.

كنا نتوقع في أي لحظة إطلاق الرصاص من العدو المدافعين من على قمة الجبل ، و وجهنا شاحناتنا إلى مرتفعات الجبل و تشجعنا بهمة. و صلنا هناك من دون حادث أو مواجهة. لماذا طالب لم يحاول إيقافنا ؟ ... من التقدم لم نكتشف ذلك. و بتقدم نهائي مصاحبا بسحاب من الغبار كنا في معقل الإمام. لأمامنا كان إمتداد الجبل حتى نزوى ... صخور جبلية ذات طبيعة الحمم البركانية محصنة نفسها و لكنها أشبه بالأقزام مقارنة بعلو الجبل الأخضر. و على بعد ١٠ أو ١٥ ميل تبعد عنا أول قرية - مطي و من ثم إزكي - من قرى سليمان المحتمل أن تكون نحصنة بمئات الرجال المسلحين مهووسين ، هذه القرى التي حصنت بالقلاع و الحصون و أبراج المراقبة و وفق تضاريس جغرافية جبلية. تقع مطي في أسفل الجبل و يمكن منها الوصول إلى قمته أما إزكي فتقع على فضاء مفتوح و بعيدة عن الهضاب و السلسلة الجبلية حيث الطريق تلتوي عبر الجبال و التي من الفروض أن تكون تخفي بين إلتواءاتها القناصة يصطادون مثل الكلاب التي تصطاد الحشرات.

عند الغروب لمحنا جسم طويل القامة قادما راكبا حمارا رمادي ، إنه رجل ملتحي و قد طغى الشيب على لحيته ... و تنهدنا متسائلين: رسول من الإمام ؟ هارب ؟ منشق ؟ و لكنه كان راشد بن حارب أحد مشائخ وادي سمائل (يبدأ في وصف الرجل و يصفه بأنه قزم و كان يزور أصدقاء له و ليس عند أخبار إلا أنه سمع عن تمرد و أن قوات السلطان تم طردها و ان الإمام قد عاد ... لا شيء تستطيع لأن تسميه خبرا ... إلخ و لم يبد راشد أي إهتمام بنا أو بمهمتنا و واصل سيره ممتضيا حماره قائلا انه قابل سليمان بن حمير في مطي و هو في صحة جيدة و لديه ٦٠٠ مقاتل و أنه سيقوم بذبحنا الليلة ... الله و أكبر ، و إتخذ طريقه نحو سمائل.

العرب لديهم طريقتهم الخاصة كيف يصورون الخبر ، فعندما إشتبكت القوة الميدانية مع قوات الإمام في عبري قام الضابط المسؤول و معه ممثل السلطان بزيارة مجاملة إلى الحاكم المعين من قبل الإمام و الذي كان على رأس عمله و قاموا بشرب القهوة و تناقشوا عن حالة الطقس و سعر الرطب و حالة المراعي ... أكد ممثل السلطان و حاكم عبري أنه لا توجد أخبار و في الختام قام مندوب السلطان مستأذن للإتصراف قائلا: أه ... على فكرة هنالك شيء آخر ، إن جيش السلطان على مسافة قصيرة منكم و سوف يقوم بقصف المدينة إذا لم يتم إخراجها خلال ساعة ... مع السلامة و شكرا جزيلا على القهوة.

قوينا عزائنا و حصنا مواقعنا و وزعنا الحراس على التحصينات و أنعشنا أنفسنا بجرعات من الويسكي ، و لكن الليلة مضت من غير أي قلاقل سواء خواء الماعز في أسفل الوادي ... و يبدو أن راشد بن حميد تقيمه للأمور للأخبار صحيحة.

في صباح اليوم التالي جهاز هيو و كارتر كرسيهما تحت مظلة سيارة لاندروفر و أرسلاني للقيام بدورية حيث إصطحبت معي ثلة من كتيبة مسقط مدعما بطلعات من سلاح الجو الملكي ، كنا قلقين من الألغام و لذلك خرجنا بسيارتنا اللاندروفر عن المسار الحقيقي للسيارات و بهذا قطعنا المسافة مختصرين أحيانا الطريق و أحيانا نطيلها و ذلك بسبب الحيطنة ... قطعنا الطريق حتى منتصف الصباح حيث بدأ حرارة الجو في إزدياد و استظلينا تحت ظلال تل صغير حواله أشجار صغيرة.

فجأة إختفت الأشجار و إشتعل التل بالدخان ... و بدأ إطلاق النيران علينا.

أخذنا مواضعنا للبدء في إطلاق النار على المهاجمين و تطويق جماعة طالب و الحد من سيطرتهم، و قام مندوب سلاح الجو بمخابرة الطيارين لضمان الحماية الجوية لنا (يصف هنا الموقعة و كيف حاصرهم العرب العمانيين و كيف قامت الطائرات بعمل مناورات يقول: أن سلاح الجو الملكي البريطاني دأب على إلقاء المناشير على القرى و المدن العمانية يدعوههم عدم الإنصياع لأوامر طالب و سليمان بن حمير ... و في هذه الحادثة عندما رأى أتباع طالب الطائرات قادمة خرجوا من مواقعهم ظنا منهم أنها ستلقي مناشير مستخفين بقدمها و كان ضابط الإتصال مندوب القوات الجوية البريطانية يبلغ الطيارين و يرشدهم لمواقع العمانيين ، فلما خرج هؤلاء العمانيين السذج الذين لم يروا في حياتهم طائرة أو حتى سمعوا بها بالرغم أن طائرات سلاح الجو البريطاني أخذت تحلق في سمائهم بشكل متكرر في الآونة الأخيرة ملقية المناشير و أحيانا القنابل ... خرج هؤلاء السذج ملوحين بأسلحتهم إبتهاجا ألقت الطائرات قنابلها عليهم فمزقتهم أشلاء.

واصل هيو كول إستطلاعاته في أراضي سليمان و ضرب معاقله و لكن الشعور بالمنطق لم يجعله يشن هجوما مباشرا عليها حتى يكون هنالك تقدما للقوات القادمة من فهود فقد واجهت هذه القوات بعض المصاعب و ذلك لتحصن بعض المقاتلين العرب في الجبال المطلّة على نزوى كان ذلك عائقا لهذه القوات مقارنة بما واجهه هيو كول في تقدمه في أراضي سليمان. إنتظرنا عدة أيام ليتم التأكد أن القوات القادمة من فهود أستطاعت أن تحتل مواقعها إستعدادا للهجوم الشامل .

إنهيار القوات المعادية عندما حدث كان كاملا ... فقد علمنا أن تحصينات العدو بالقرب من قلعة نزوى قد تم تفجيرها حيث إستطاع الأسكتلنديون بهجوم مباغت في منتصف الليل من السيطرة على المرتفعات كما تم قصف مطي بطائرات

الفينوم الأمر الذي جعل تحصينات سليمان تطلب الإستسلام ... قدم رجل من إزكي يؤكد ولاء الناس فيها لصاحب السمو السلطان.

لقد كسبنا الحرب ... عمان أصبحت لنا أو بمعنى آخر للسلطان . تقدمنا منتشيين بالنصر عابرين قرية إثر قرية و الأعلام الحمراء ترفرف من النوافذ ... و النساء المرتديات الوشاح الأسود اللاتي يمكن تشبيههن بالغربان السود ينظر بسحر آخاذ لرؤيتهن الأولى للرجال الأوروبيين.

بقي سؤال واحد يتبادر بقلق في عقولنا و مخيلاتنا و من وراء أهازيج النصر:

أين سليمان بن حمير ؟

أين طالب ؟

و فوق الكل أين الإمام ؟

٧. حصان جاسبر (Jasper's Horse)

في الحقيقة أين الإمام ؟ لم يتم رؤيته هذه المرة ... هل عزل بهدوء ؟ أيضا أين سليمان ليس له أثر و لم يقم بزيارته الملكية المعتاده للسلطان القاهر ، و أيضا لا يوجد أي أثر حتى لو كان ضئيل لطالب.

و كلما واصلنا إستفسارنا و تفحصنا تبدو لنا الحقيقة غير مخطئين في إستنتاجها من تعابير الرجال الكبار السن الذين يبدو عليهم الوقار و الحكمة و الذين ألقوا بأسلحتهم بكل هدوء ... فهم يأتشرون إلى الشرق و عموديا بدلا من الإتجاه الأفقى. تتبعنا إرشاداتهم بشك و تقصي و لكن يبدو أن لديهم نفس الرسالة و المعلومة.

المشاكسين الثلاثة صعدوا إلى الجبل.

البريجادير البريطاني الذي كان مسؤولا على الهجوم على نزوى و السيطرة عليها ذكر أنه لن يتجرأ الذهاب إلى الجبل إلا بفرقة "الخوركاس النيبالية" الملحقة بالجيش البريطاني ... هذه الفرقة تضم آلاف الرجال المقاتلين بكامل معداتهم الحربية. نظرنا إلى رجالنا الذين يبلغ عددهم 300 رجل مسلحين بأسلحة عفى عليها الزمن و من مخلفات

الحرب العالمية الأولى و تيقنا أننا لا نستطيع القيام بمهمة صعود الجبل حتى و إن كان لدينا الحمير اللازمة لتساعدنا على الصعود.

و كما أن قوات السلطان و بعد أن أحكمت قبضتها على نزوى تم سحب جميع القوات الأجنبية و ذلك تجنباً لنقد الصحافة في البلد (بريطانيا) التي شنت هجوماً لاذعاً على الجيش إثر فشل حملة قناة السويس. فالجيش لا يريد إثارة حفيظة الصحافة من جديد.

و لذلك غادر كارتر و كشافته ملوحين بكوفياتهم الحمراء و كذلك غادر الأسكتلنديون و حتى سلاح الجو الملكي البريطاني.

تركنا وحيدين و جامدين حول الجبل الأخضر و براهية متزايدة و اعين أن بدون التخلص من الشياطين المتحدين الثلاثة و أتباعهم سوف لا يكون لنا طمأنينة و لا حتى للسلطان في هذه البلاد الغير صديقة.

في هذا الجزء من الفصل السابع من كتابه يبدأ المؤلف بوصف طبيعة الجبل الأخضر و تضاريسه و جغرافيته و مناخه ، و يذكر أن الجبل مأهول بالسكان و يحتوي على قرى و مدينة واحدة و هي عاصمة الجبل و تدعى "الشريحة" ، و يقول أن الماء متوفر في الجبل و الطقس معتدل و المحاصيل الزراعية أشبه بما تكون محاصيل حوض البحر الأبيض المتوسط .، أما عن سكانه فهم جلفين و يتصرفون بعنجهية و مدمنون على شرب النبيذ الذي يصنعونه من العنب و يحتمون به من برد الشتاء. و يذكر أنه لا توجد معلومات كافية لدى الغربيين عن الجبل إلا أن في الثلاثينيات من القرن السابع عشر كتب رحالة إنجليزي مجهول عن الجبل الأخضر و تم الاستفادة من كتاباته في مقارنة ما كتب و ما هو واقع و ملموس لديهم و الذي أكد أن الجبل يصعب إختراقه و الوصول إلى قمته إلا بالطيران أو المشي على الأقدام و بصعوبة. كما أن حرارة الجو في أسفل الوادي تعتبر عائقاً للصعود بالنسبة لهم كأفراد جيش نظراً للحاجة إلى كميات كثيرة من الماء و نقلها معهم في رحلة الصعود لما يستهلكه الجسم البشري من عرق بسبب حرارة الجو.

و كلما تقدم الجيش نحو الجبل تبين لهم أنه من الصعب مواجهة طالب و رفاقة في هذه الحالة من دون إستعداد كامل و تجهيزات عسكرية متقدمة و في أسرع وقت. ثم يبدأ الحديث عن طارق أخو السلطان و البحث عن طالب بن علي.

طارق أخ السلطان الذي عينه ممثلاً له في المنطقة الداخلية أخذ ينشر رجال القبائل الموالية في مجموعات و يحملها مسؤولية القلاع التي تم إخلاء مناصري سليمان و طالب منها ، و في بعض الحالات رأت الحكومة أنه لا يوجد داعي للوضع أفراد و جنود في القلاع و بذلك يتم تفجير هذه القلاع بما في ذلك قلعة إزكي التي تطايرت أحجارها و طينها في سماء المدينة ، و كذلك أبراج المراقبة في بلاد سيت التي كانت وقحة في إطلاقها النار على قوات السلطان الميدانية ، و أيضاً تم تفجير معقل سليمان الحصين في تنوف التي تقع في أسفل الجبل و كذلك تم تفجير تلك المنازل

التي آوت المتمردين و أطلق منها النار على القوات الميدانية و شمل التفجير المزارع و الحدائق و أبار الماء في نزوى و المدن القريبة ... و كان هذا بدافع الإنتقام. و دام الغبار و رائحة المتفجرات في سماء تلك المناطق لأيام. و كذلك و كلما دعت الحاجة إختار طارق "شيخ" من شيوخ المناطق الذي له تأثير غير مؤكد أن يقوم بالضغط على مكبس التفجير مؤكداً له أنه تم تصويره في هذا الوضع و ذلك لعرض الصورة إذا لزم الأمر ذلك.

و من جانبنا قمنا ببناء مخيم لنا بالقرب من نزوى و تحرينا المناطق المحيطة لعنا نجد شخصا يشبه طالب ، و وضعنا جنودا للسيطرة على قلعة نزوى.

قلعة نزوى هي تلك القلعة التي صمدت أمام القذائف المضادة للدبابات التي أطلقتها طائرات سلاح الجو الملكي البريطاني ، هذه القلعة التي شكلها الخارجي شبيهه بقلعة وندسور مبنية من الحجر الصلب. كما أنه يوجد بها نفق يمر عبرها و يوصل إلى قمتها ذات الجدار المبني من الطين و بها تحصينات مجهزة بمدافع و فتحات لإطلاق الرصاص. كما يوجد بها بئرا ماء يستخدم مائيهما للشرب و أثناء الحصار ، كما يوجد بها مصائد خشبية يمكن مطاردة الدخلاء و حصرهم داخل القلعة ، و تستخدم هذه المصائد للإيقاع بالأسرى ... أما المسجونين فيتم إنزالهم بواسطة حبال إلى زناناتهم ... و هناك يتم نسيان السجين إلى ما شاء الله.

هنا يعبر أن قلعة نزوى قلعة حصينة و دفاعية و يشرح كيف إستعادت قوات السلطان السيطرة عليها و رفع علم السلطان و كيف تم التعامل برفق مع أنصار طالب بالرغم أن من سبقهم من جنود السلطان إستسلموا لطالب و فرقته لشعورهم بعدم جدوى سيطرتهم على القلعة و رفع علم السلطان. كما يصف مدينة نزوى المقسمة إلى مناطق و كل منطقة تسكنها قبيلة و هذه القبائل متناحرة فيما بينها. كما يحيط بالمدينة بحيرة من اشجار النخيل و تزرع فيها الحنطة و القمح و نباتات أخرى .تستخرج منها مستحضرات عطرية و كيميائية و فوق كل ذلك تأتي قلعة نزوى و برجها الدائري.

و في أثناء كل تلك العمليات تبادي الجبل الأخضر في مخيلتنا و في الأفق الجبل على شكل صورة شيطانية شريرة. و بسرعة جعل منه ذلك الفارس الطيار المقدام القادم من يوركشير مجالا لمناورات و تفننه الخاص. لقد تحول جاسبر الآن و ببراعة إلى مرتزق عربي.

لقد تقاعد جاسبر من سلاح الطيران الملكي البريطاني في عمر مناسب و أشتري قبعة خاكية التي تدعو للحياة مثل قبعة القديمة الزرقاء و إلتحق بجيش السلطان. فقد كان في عملية إسترجاع السيطرة على نزوى في وسط المعركة حاملا الراية الحمراء الحكومية يلوح بها داعيا القبائل إلى الخضوع و الولاء للسلطان. هذه الدعوات جلبت له القليل من الردود و الكثير من الرصاص و فور إستلام قوات السلطان القلعة و سيطرتهم عليها إختفى جاسبر عن الأنظار ليظهر ثانية بعد يوم أو يومين مغبر الوجه و مهزوز قليلا و لكن ببريق جديد في عينه ... إنه كان يجابه القلعة

الجبليّة. لقد قاد مجموعة من رجال القبائل محاولين صعود الجلاميد الصخرية. و مع كل محاولة لصعود الجبل يصابوا بالإحباط و الفشل برغم إطلاقهم الكثيف للرصاص و صيحاتهم المتعالية و راياتهم الحمراء العديدة نظرا لصعوبة و تعرج الطريق للجبل و تخميناتهم الواهية حول سهولة وصولهم للقريّ.

تخلّى جاسبر عن تلك القوة و الطريقة الصارمة و حاول المهادنة بطريقة أكثر ذكاء بإستئجار حمار و صبي صغير و صعد جلمود آخر وحيدا ليحدد مواقع العدو حيث قضى الليل يستمع لحديث و يراقب المتمردين يطبخون وجباتهم و بذلك أنجزت مهمته و عاد أدراجه حاملا معه معلوماته.

أصبح جاسبر فارس كتيبة يمتضي حمار . و قد أبدى تعاطفا مميّزا مع هذه الحيوانات الجذابة و قد شكل مجموعة من الصبيان يمتضون الحمير و الذين أطلق عليهم "حصان جاسبر" و إستأجر عددا من حمير الجبل السوداء و هذه البهائم ضخمة كالبغال و قد تناسلت في بيئة الجبل الأخضر و إختار جاسبر أكبرهم و أضخمهم و أسودهم لإستخدامه الخاص و أخذ يمتضيه حول المخيم كأنه الإسكندر في باسيفولس.

لقد أعجبت حمير جاسبر بجاسبر و عاماته كراعيها و أخذ يقضي الساعات في خيمته يعد لها الصدل و اللجام و إحدى الأمور الغريبة عند جاسبر معدات إبحاره و تجهيزاتها من لوازم و أدوات ... و بها قام بتلبيس حميره.

كما جهّز جاسبر نفسه بعصى للمشي و مطارة ملأها بالوسكي المعترك الذي أرسل له خصيصا من المصنع في إسكوتلندا إلى هنا أسفل الجبل الأخضر ... جاسبر رجل يجب ذكره و لا ينسى.

كما أن بوب وارنر ذلك الرجل العجوز الصلب الذي تعرفت عليه في طريف (غرب أبوظبي) في تلك الطريق الوعرة ذات التربة المالحة و الصبغة تقاعد أيضا و من الجيش و إنضم إلى فرقنا السعيدة و أصبح يشرف على مركز القيادة و التموين و النقل و الإشارة و الطبخ و الدفع و النداءات العسكرية ، لقد كان رجلا منضبطا و صاحب نظام و عمل و حريصا على حماية المخزون من الطعام و العتاد.

العناصر المختلفة التي شكلت كتيبة هيوكول و جيش السلطان البائسة في الهجوم على فهود تم تذليلها و ضبطها من خلال القيادة الطيبة و السليمة لكولين ماكسويل. لقد إنضم ماكسويل للسلطان بالصدفة عندما كان في طريقة إلى جزيرة بورنيو في الملايو حيث كان في ذلك الوقت يتم تجميع القبائل لطرد تركي بن عطيشان من البريمي و بقي في الخدمة منذ ذلك الحين. و لقد شارك ماكسويل أريك جونسون ذلك الشعور العاطفي الطيب للجندي العربي الذي لا يدين أي شيء ل " أعمدة الحكمة السبعة" (كتاب لورنس أف أريبييا) و لا يضحى بأي مبادئ الخدمة العسكرية و لكن ماكسويل كان رجل ضخم الجثة و بدين نوعا ما الأمر الذي جعل دوره محدودا في الصفوف المتقدمة للسير نحو الجبل الأمر الذي يشغلنا الآن و لكنه كان يخطط و يشجع و لقد كنا نتشرف و نفتخر بزيارة ميدانية و عبر الجو لرئيس أركاننا الرائع و المبجل الهادئ بات ووترفيلد الذي نعتبره دافعا مشجعا لنا.

في مساء أحد الأيام و جدت نفسي مع جنودي الأثنى عشرة محاصرين في ممر جبلي محاط بجلاميد صخرية عالية حتى أن حمير جاسبر يصعب عليها المرور عبر هذا الممر. كانت مهمتي إيجاد ممر يقودنا إلى قمة الجبل الأخضر و التجمع على حافة هضبة الجبل لمجرد القول أننا وصلنا إلى القمة و كذلك إستطعنا العودة إلى أسفل الجبل. حسب الروايات التاريخية أن آخر حملة عسكرية إستطاعت الوصول إلى القمة هي عندما تدفق سيل من الجنود الفرس نحو ألف سنة مضت من الجانب الآخر للجبل ليصل حفنة منهم إلى القمة بعد خسائر كبيرة في الأرواح ليقوموا بعمليات إبادة للسكان ... إذا كانت الأسطورة صحيحة سيكون هناك أثر تاريخي لعملياتنا و إكتشافنا.

لقد عدت الليلة بهدوء و كان قلقتنا على "حصان جاسبر" خشية الخذلان و لكن تلك البهائم حافظت على سجيتهما و إصرارها و صمتها دون أن ترزع السكان و تلفت إنتباههم و يقظتهم ... فكان لصمت تلك الحمير العامل الأكبر في تقدمنا.

فلو أكتشف أمرنا في هذا الممر الوعر الصعب لكان يكفي لرجل مع ذخيرة بسيطة مختفيا وراء الصخور من القضاء علينا و قنصنا بسهولة حتى بوجود سلاح الجو الملكي البريطاني حيث أن منحدرات الصخور شديدة و يمكن أن يتوزع عليها العدو و يحتمي بسهولة. و أي طيار يستطيع فعل أي أثر ضد العدو هو العمل الإتحاري أو "كاميكازي". طبيعة صعبة مريبة تشعرك كأنك تواجه الشيطان.

و حين وصلنا إلى قمة الممر شعرنا أننا لا زلنا لم نصل إلى قمة الجبل و لكن رأينا العدو في نفس الوقت الذي هم رأونا ... مجموعة من الرجال المهرة الرشيقين يقفزون بين الصخور مثل الأغنام يرتدون جلابيات محزمة متجهين نحونا و عندما عرفوا أننا رأيناهم إختفوا عن أنظارنا كسرعة البرق و من خلال تحصيناتهم الصخرية إنطلق دخان الرصاص و بدأ التراشق ... و حتى الآن تم دحرجهم إلى إحدى الصخور السوداء.

و هنا بدأت المناورات و الإستعدادات للتحصن و أخذ المراكز الدفاعية إستعدادا للإتقضاض عليهم حيث أنهم إختفوا إلى اللا أين ... فالرجل الجبلي العربي مثل الجبل نفسه و لكن عندما يكشف موقعه يبدو عاريا و خائفا و جبانا ... و هذا تكتيكا إستخدمناه بقدر المستطاع ألا هو كشف مخبأ العدو و حصاره و إلزامه على الإستسلام. و هو عامل نفسي أثبت فعاليته. و على كل حال هذه المعركة البسيطة إستطاعت تطهير الممر من العوائق البشرية.

و واصلنا تقدمنا من غير عوائق و حوادث ... لم نر بشرا بل أغناما ترعى في سفح الوادي و الممرات. و قمنا بمسح الجبل و ممراته و إعادة إنتشار جنودنا لمعرفة المزيد من المعلومات عن المنطقة. و هنا أحيانا أجدني وحيدا من غير جنودي و لكنني أدارك الأمر و أعود إلى من حيث أتيت لأجد دوريتي و أستعيد راحتي و طمأنينتي. و هنا موظفي المواطن محمد علي يأتي نحوي مغبر الوجه و يقفز من صخرة إلى أخرى قلقا و خوفا أنه قد ضل الطريق و أنه لم يتبع تعليماتي. كما أن أولئك الحمير الذين يلبسون العمائم المتربصين بنا يطلقون النار و يختفون بسرعة

غريبة مخادعة ... ظن محمد على أنني قد إنتهيت و تم إطلاق النار علي و لكنه يدرك بعد قليل أنني لا زلت على قيد الحياة و لا يمكن أن أقتل قبله .

في هذا الوقت كنا في وسط النهار و أنه حان لنا العودة إلى أسفل الجبل قبل قدوم الليل. و قبل الظلام كنت مع جاسبر و حميره متلذذا بجرجعات لذيدة منعشه من وسكيه المعتق الفاخر . في هذه الجولة لم نحرز نصرا و لكن إستطعنا كسب معلومات جديدة عن العدو و دروس قيمة و كشفنا جزء من الحجاب الذي يغطي الجبل الأخضر.

في الأشهر التي تلت كانت حياتنا أنا و جاسبر مكرسة لإكتشاف تلك الكتلة الصخرية اللامتناهية و إكراما لإلتزامنا و تكريسنا لمهمتنا أطلقنا لحيتينا. و لثلاثة مرات أخر قدت فرقة صغيرة من الرجال مسنودة إخلاقيا و معنويا من قبل جاسبر و رفاقه أصحاب الأربعة أرجل الحمير.

جربنا مرة ذلك الممر الضيق الذي كر عليه جاسبر سابقا حاملا رايته الحمراء و وصلنا إلى نبع الماء الذي كان هدفنا و شربنا و إرتحنا و إستعدنا للعودة لنواجه بقذائف من كمين نصب لنا و الذين كانوا ينتظرونا بصبر فوق نبع الماء. و كانت ضوضاء القذائف و صداها أشبه بقذائف قصف صاروخية و من حسن حظنا أننا كنا نشاهد فوهة الكهف الذي كانت منه مصدر النيران فسددت بندقيتي (من نوع برن) نحو الكهف و أذا بالقذيفة تصيب مصدر النيران مباشرة و تهاوى مدخل الكهف بينما رأيت ثلاثة رجال ملتحين يلبسون رداء بنيا تتطاير أجسادهم في الفضاء و كأن الجحيم تطاردهم. و كنا محظوظين في تلك الدورية حيث أنه لو كان الأعداء كمنوا لنا أسفل النبع لكانت نهايتنا غير سعيدة. كانت خسارتنا الوحيدة كسر قدم جندي واحد.

في دوريتين أخريين كانت محاولتنا لإكتشاف ممر من عاصمة سليمان السابقة تنوف ... ذات القلعة التي تم تفجيرها. و في هذه المهمة كان لدينا دليل يدعى درويش الذي أكد لنا أنه يعرف الطريق إلى قلب و معقل سليمان من دون المرور عبر الجلاميد الصخرية و الممرات الضيقة و السلالم و الهضاب فهذا الطريق بالكاد يكون سهلا و هينا و خلال مسيرة يومين أو ثلاثة أيام. لقد كان درويش طويل القامة أشيب الشعر و من منطقة الجبال و له طريقته الخاصة في سرد و تفصيل المعلومات و الحقائق ... إنه رجل يسير عبر الجبال كغنم الجبل و لهجته العربية غامضة كلهجة سكان أعالي إنجلترا. و لسبب ما لم يكن يشاركنا مفهومنا لليمين أو اليسار حيث انه يستخدم يديه للتنويه و التعبير عن الأشياء أكثر من شروق و غروب الشمس و له كلمة واحدة لقول نعم أو لا ألا و هي هاهه (hu-huh) لنعم و هاهه لا (hu-huh) محركا وجهه في الحالتين من جانب لآخر أو من أعلى لأسفل و بحماس. و بالرغم من قدرته على العد إلا أنه يصعب عليه تجميع الأرقام للمجموع الذي يحاول إستنتاجه. و على سبيل المثال عندما نسأله عن ينابيع المياه التي سنصادفها يرفع يديه مشيرا إلى أربعة و بذلك يكون يقصد ثلاثة و عن الأيام المتبقية يرفع ثلاثة أصابع قاصدا يومين.

بعد مناقشات و مقابلات مطولة و صبورة و متعددة مع درويش ظننا أننا إستطعنا أن نؤسس نوعا من التفاهم معه. فقد قال أنه لن يرشدنا في عمليتنا الإستطلاعية لأسباب صحية ولكنه سيصاحب الصف الخلفي من الحراس و سوف يكون متواجدا إذا إقتضى الأمر إستشارة أو نصيحة و لذلك أنه يتعين علينا أن نتأكد من طريقنا قبل المضي فيه و من بعد المضي قدما ... مع درويش الذي يرشدنا من الصفوف الخلفية مثل ديوق "بلازا تورو".

إنطلقنا إلى أعلى الجبل كما هو مخطط له في الشرح المسبق و كنت أنا في زمام القيادة و كلما تقدمنا إزدادت حيرتي. و بما أنني كنت أتبع وصف درويش في خط سيرى و كما كنت أظن إلا أن الطريق يبدو مختلفا عن وصف درويش فهو بعيدا من أن يكون صعودا في ممر مفتوح فقد بدأ الممر ضيقا كلما تقدمنا و متعرجا كلما صعدنا إلى الأعلى و ليس كما وصف درويش أنه ممر طويل بل متعرج و ملتو و ليس هادئ كما ظننا بل أن أصوات أقدامنا تحدث صدى في سكون غامض فإنه من الواضح أما أنا أكون في قمة الأداء أو درويش خارج حسبته. مضينا بإصرار تحت وابل من الرصاص و الذي من حسن الحظ لم يكن له أي تأثير سوى أصوات و صدى و صفير فوق الرؤوس و هنا هممنا بالرجوع و سؤال درويش: أي جحيم هذا ؟ عندما رأيته يهز رأسه المشيب ناظرا إلي و كأنه يقول أنت ليس في إستعدادك اللازم و مهيا لقيادة دورية يمكنها المراوغة.

محاولا لتحريك يدا مشلولة أشار درويش إلى الجانب الآخر من العنق الصخري من الحائط الجبلي الذي غادرناه للتو قائلا بعمق ليس في هذا الجانب مومنا رأسه و مؤكدا ,, في الجانب الآخر. إذن الخطأ كان خطأي ... و في كل الأحوال أنا المخطئ.

توجهنا بعد قليل إلى الجانب الآخر و وجدناه في الحقيقة كما وصفه درويش ليس إلا إمتدادا للتسلق الصخري و في أرض مفتوحة فسيحة في أغلب المكان هذا الممر الذي أخذنا نحو ثمانية آلاف قدم إلى الأعلى الذي يمكننا فيه رؤية الجانب البعيد من الجبل الأخضر و التمتع به من أسفل و على إمتداد النظر و لكننا بكل الأحوال لم نخترق بعد معازل سليمان الحصينة و لكننا بالكاد طرقتنا بابه الخلفي يواجهنا من الأمام ممران ضيقان يلتقيان بممر ضيق آخر الأول يتجه نحو البحر و الآخر يتجه نحو عمان الداخلية لينضم إلى جبل تنوف حيث نتجه إلى تلك المستعمرة في خطوات جماعية متحصنة أشبه بما تكون من الحقب الإسطورية الأوروبية (باربيكان). و يمكن من خلالها سماع أصوات التحدي و يكشف فضاء الميدان عن عمائم متعددة من خلال نتوءات الصخور.

في هذه الحملة كان خلفنا و بمسافة آمنة بعض المئات من جنود القبائل التابعين لطارق و الذين كانوا من المفروض أن يكونوا قوة تعزيز و إسناد في حالة تعرض الدورية إلى هجوم. و كذلك كان معي ضابط من سلاح الجو الملكي البريطاني أشقر الشعر وردي السحنة لطيف المعشر يدعى جورج جاردنر و كان يصعد الجبل بكل نبيل و ثقة إلى جانبي حاملا جهازه اللاسلكي حيث أن سلاح الجو الملكي وافق على مساعدتنا إذا تطلب الأمر ذلك .

هنالك في المقدمة لابد أن تكون مواجهة قوية. هنا أنا مع فرقتي الجنود الذين تحت قيادتي و خلفنا تشق طريقها في ممر متعرج قوة التعزيز و المساعدة المتكونة من العرب بمختلف الأعمار من 12 إلى ٦٠ عاما يرتدون ملابس بمختلف الألوان يحملون أسلحة التي قد يكون مكانها المناسب أحد المتاحف الإستعراضية الأمر الذي أعطاني نوع من الخوف. عندما إلتقوا مع دوريتي عقدت مجلس حرب و تم الإتفاق على أنه سنهاجم إذا كانت الطائرات ستساندنا في هجومنا ثم إستدرت إلى جاردنر.

تناول جاردنر المايكروفون مذكرنا بهيوكول و ما هي إلا مدة و جيزة إلا و أزيز أربع مقاتلات تحلق فوقنا حيث قام جاردنر بإبلاغ طلبي بطغطية نارية من رشاشات المقاتلات التي يمكن رؤية رصاصها كخرائط الحشرات. قامت المقاتلات بمهمتها على أكمل وجه و إستدار جاردنر نحوي يائسا قائلا أن بنادقه لا تعمل و أنه يستحسن أن تعود أدراجها و كان هذا آخر ما رأيناه من هذه المقاتلات.

كان لدى جاردنر كرتا آخر لينجز هذه المهمة فقد طلب طائرتين مقاتلتين من نوع فينوم هذا النوع من المقاتلات الذي خدمنا جيدا من قبل ، و إنتظرنا طويلا حتى وصلت هاتين المقاتلتين من الشارقة حيث وصف لها جاردنر الأهداف و الموقع قائلا مرتفع جبلي بحلمتين. هاجمت الفينوم بكثافة رامية قذائفها محدثة دخانا بركانيا و غبارا ملأ الجبل و بالقرب من مكان تواجدنا و لله الحمد و فضله لم يصب أحد منا ضباطا و جنودا و رجال القبائل بالرغم أننا كنا متمركزين في منطقة مكشوفة ... و كنا نراقب العرض.

عادت الفينوم إلى قواعدها و تأكدنا أننا نستطيع أن ننصب خيامنا و مرابط لحمير جاسبر المحملة بالطعام و الزاد و الفراش و الخيام و العدة و الماء و الويسكي الأمر الذي نستطيع القول أننا قد تجمعا بشكل متحصن و محمي و هذين الإستنتاج و النتيجة كانتا لا تساويان التوقعات لأنه حتى و إن سيطرنا على المكان فإنه علينا مغادرته مرة أخرى لأنه لا يوجد خطط و موارد لتعزير إقامة تواجد دائم لنا على هذه القمة و إستغلال هذا الموقع ، و لذلك عدنا أدراجنا متعلمين أنه لا يمكننا الوثوق بالطائرات و كيف لنا أن نفهم درويش .

٨. مواطن الجبل الملبط (The Melancholy Mountaineer)

رجل غامض ذو طبيعة رجال الكهف يدعى جون كلارك إنضم إلينا و نحن في طريق رجعتنا من أعلى الجبل الأخضر. رجل طويل و نحيف القامة و لديه شارب أسود شاحب اللون و يتحدث بنغمة حزينة جنازية و له إحساس جنازي محب للمخاطرة و أصبح بسرعة أحد من نعتمد عليهم و ذو فائدة كبيرة لنا.

و لكن القوة و كل القوة و العزيمة كانت لدى القوي المقدام ووترفيلد الذي قرر بحزم أن الوقت قد حان بأخذ القرار الحاسم بأن اللعب و المناورة حول الجبل قد إنتهى و أنه يجب علينا القيام بعمل يخلد ذكرنا. و لذلك تم إعداد خطة رئيسية و التي تضم فرقتين كاملتين من جنودنا و فرقتين أخريين من كشافة ساحل عمان بقيادة كارتر اللتان و صلتا من شمال عمان عبر سياراتهم اللاندروفر بالإضافة إلى المئات من العرب الملتحين الغير مدربين و الذين يخضعون لقيادة طارق الخاصة و كذلك كل ما يمكن إعارته و تزويده من طائرات سلاح الجو الملكي البريطاني ... و كانت الخطة كما يلي:

تقوم كشافة ساحل عمان بالصعود إلى الجبل عبر الممر الذي قام بتمشيطة محمد علي و تعزيزه بالسلاسل و هناك يتم إنشاء مقرا على إرتفاع آلاف الأقدام بينما أقوم أنا مع فرقي يصحبنا جون كلارك الذي كان بالرغم من كبر سنه و نضجه كجندي جديدا على هذا النوع من العمليات مدعين بحمير جاسبر التي لا غنى عنها. و بما أنا إستطعنا السيطرة على ينبوع ماء و الذي حددته القوات من خلال مسحها الجوي و الذي يجب الوصول إليه قبل أن نبدأ بتجهيز قاعدتنا و كان هذا تأسيس هذه القاعدة ضروريا و ذلك خوفا من تدفق قطع الجياح من الجنود العرب (رجال القبائل مع طارق) إلى السفح المفتوح و القيام بسلب قرية أو قريتين. و بدافع ترهيب رجال طالب و الذين سيكونون على أهبة الإستعداد لمقاومة زحفنا كان معنا رجلا من سلاح الجو مرتديا قبعة زرقاء و لباسا ورديا متخفيا بين الجنود و منتقلا بينهم ليعطي إشاراته للطائرات التي تحوم حول المكان.

و مضت الخطة كما هو مرسوم لها و التأكيد على إحكام القبضة على موقع الفتحة المائية و التي وجودها يعني الكثير للجيش الزاحف كما أن الوصول إليها يجب أن يكون مضمونا و من غير مخاطر.

جيش الكشافة ظهر على السطح كما أنا سرنا نحو الممر بثبات أما طائرات سلاح الجو الملكي البريطاني فقد رمت أثقال قذائفها على سفوح تل الجبل لشل حركة كل من كان يختبئ خلف تلك التلال و تطاوعه نفسه لإطلاق الرصاص على جيوشنا و إستمرينا في الصعود و المضي قدما و واجهنا إطلاق نار عند وصولنا إلى جانب من الجبل و لكن الطائرات قامت بدورها و توقف القناصة لبعض الوقت. و وصلنا إلى الموقع الذي فيه دوريتي إسترخت فيه في صعودنا الأول و لكننا وجدنا أن المدافعين الغير مسيحيين قد ملؤا المكان بروث الحمير و أشياء قدرة أخرى و لذلك إتضطررنا لإستخدام ما لدينا من مياه حتى وصولنا إلى منبع الماء المقصود. كان لدى جاسبر ماء تحمله حميره و لكن الكمية كانت محدودة و كافية لتدبير أمر العودة من الجبل فقط في حالة حدوث أمر عكس توقعات الخطة.

و بحلول الليل وصلنا إلى سفح الجبل حيث يبدأ المكان بالإنحدار و التعرج و لاحظت وجود تحركات غريبة أشبه ما تكون بحركة تجمع النحل حول المفاصل و فجأة سمعت صوت سقوط الحجارة و تمعنت في النظر و رأيت تجمعاً من العمائم تختفي خلف التلة على بعد بعض المئات من الياردات على إمتداد الممر و هنالك كانت تحية رصاصاتهم

مخطئة شخصي بمقدار كف اليد. و تيقنت أنه من الواضح أن الوقت لا زال مبكرا للقيام بعملية عسكرية و ما علينا إلا مواصلة زحفنا نحو إعالى الجبل و الوصول إلى سفحه كما فعلت من قبل.

لقد حل الظلام الآن و الإستمرار في التقدم يعني الإنتحار السريع و لذلك قررنا التوقف و التأهب للحراسة و الإستعداد لقضاء ليلة باردة في الخلاء وسط تلال جبلية غير آمنة حتى قدوم الصباح. أما جون كلارك فقد تركني حين بدت النجوم في السماء و سلك طريقه بحذر نحو أسفل الجبل ليناقش شيئا ما مع جاسبر الذي كان يتبعنا عن قرب مع حميره و بالمسافة التي تسمح بها الحمير.

تقلص العضلات و العطش جعل النوم بعيدا حتى الفجر و عندما فتحت عياني تفقدت جنودي و بحثت عن صاحب الوجه الحزين كلارك الذي لا أثر له في مخيمنا و توجهت مضيقا وقتي الثمين متجها إلى أسفل حيث يوجد جاسبر الذي قال أن كلارك غادره بعد لقاء قصير فقلقتنا عليه. و تذكرنا أن الليلة سادها إطلاق نار من النواحي العليا فوقنا و إفتراضنا أنها كانت حركات إستعراضية أو هيسيرية قام بها المدافعون عن الجبل و لكنها الآن أخذت طابعا تحذيريا معقدا. و لكن الميجر المفقود لم يمر بالقرب من موقعي فكيف تمكن من الصعود إلى أعلى و يتسبب في إطلاق تلك الأعبيرة النارية ؟ ... إنه عمل مستحيل حيث أنه يوجد ممر واحد يمكنه من الصعود إلى أعلى و نحن و متمرزين فيه.

لقد كنا نستطيع رؤية طارق و سماته النبيلة و الجانب الإمامي من مجموعته الغوغائية حاملي بنادقهم و منتشرين على سفوح التلال على الجانب الأيمن من موقعنا يبحثون عن كلارك فيما إذا كان تائها و مضيقا للطريق أو أصيب بجرح ... و لكن يبدو أنه لا أثر له ، فإذاً يوجد مكان واحد فقط يمكنه التوجه إليه الا وهو الجانب الأيسر من موقعنا و هو الجانب الذي ينحني نحو الفضاء.

و لربما و بالخطأ و من وجهة نظر عسكرية كنا نحن ... جاسبر و طارق و أنا و جيشي مهتمين أكثر بمصير جون كلارك المحتمل أكثر من من خططنا الدقيقة التي أتينا هنا لإتجازها. لقد بحثنا عنه في كل مكان و بكل يأس و إصرار إلى أن خلصنا أن جون كلارك أصبح في عداد الأموات حيث أن جميع الإحتمالات التي درسناها لم تؤدي إلى نتيجة غير ذلك.

في الوقت الذي وصلنا به إلى ذلك الإستنتاج بدأنا في المرحلة الثانية من خططتنا لإختراق الجبل الأخضر. و كما كان مخططا كان هجومنا ليس أكثر من إجراء عقابي مفحما بالشجاعة و البطولة و كان همنا الأكثر هو البحث عن جون كلارك أكثر من الإهتمام بأخذ الغنائم من قبل رجال القبائل. و في كل الأحوال وصل مستوى مؤونة الماء لدينا إلى الحد الأدنى و كان علينا أن نختار أما العودة بدون المهاجمة أو المضي قدما و المغامرة في التقدم للسيطرة على نبع الماء الذي حددته الصور الفوتوغرافية الجوية. و حيث أن طائرات سلاح الجو الملكي لم تستطع خدمتنا و مساندتنا

أكثر سوى طلعات إستكشافية لا غير و بذلك قررنا في هذه الحالة التراجع مودعين جون كلارك بعمل جنازة مصطنعة له. و قد تعلمنا من هذه الحملة درسا واحدا ألا وهو إستحالة شن عملية هجوم في الجبل الأخضر من دون تموين مضمون للماء أو شن حملة مدعمة بقافلة طويلة من الحمير التي تحمل الماء. و عندما تم تحديد موقع المياه التي ذكرها المخططون وجد أنها تقع في قاع شق ضيق من الجبل و التي يمكن الوصول إليها فقط لغنم الجبل و هي مجهولة حتى لسكان الجبل أنفسهم.

و في اليومين التاليين جندنا دوريات من الرعاة المحايدون للبحث عن جون كلارك المفقود و قامت الطائرات بالتحليق بحثا عنه و بارتفاعات منخفضة بحثا عن أي مخلوق حي في تلك الهضاب الوعرة كما أن الكشفاء العسكريين قاموا بالانتظار على كل منافذ الجبل المعروفة في أسفل الأودية لعله يكون سلك إحداها و يخرج سالما. و في النهاية و عندما يأسنا من العثور عليه كان كولين ماكسويل يعد برقية تعزية لأقربائه عندما رصد الرجل بنفسه يمشي مكتئبا قاصدا إحدى الدوريات الأرضية و في حالة يرثى لها و لكنه سليم ... و بعد الإحتفال به قمنا بتحيته كأنه شخص عاد من الموت للحياة ... و هو كذلك فقد حدثنا عن قصته.

عندما غادرنا في المغيب توجه للتحدث إلى جاسبر حول إجراءات و ترتيبات الغد و قد قام شخص أو شخصان من السكاري التابعين للقوات الخاصة بإعطائه جرعات من الخمر ليتدفأ من البرد و في الطريق العودة صعودا خرج عن الطريق المعهود سالكا جهة اليمين و ليس إلى اليسار حيث الهضبة و هناك تاه و تجول بطريقة عشوائية آملا أن يجد مخيمنا أمامه و هناك صادف وابلا من الرصاص و كان هذا هو التراشق الذي سمعناه في الليل. و تأكد حينها أنه سار أكثر من اللازم قام الضال كلارك بتقييم وضعه لوحده و بحيرة في قمة الجبل و في منتصف الليل حيث قرر أن أي ممر يسلكه إلى أسفل الجبل سوف يقوده إلى بر الأمان و أي مسلك آخر سوف يقوده إلى معقل العدو. و لذلك سلك طريق الإتحدار آملا أن يصل إلى أسفل الجبل الذي وصله بعد صعوبة و عناء مجتازا الصخور و وعورتها مصادفا أشياء كثيرة غريبة من حيوانات كالسحالف و الزواحف و غيرها ... كيف وصل ؟ لا يدري.

خلال تلك الأيام كان قدري أن أقدم تقاريري إلى وزير الداخلية بعد الإنتهاء من دورياتنا الإستطلاعية حيث يمكنه ذلك تبليغ السلطان عن إنطباعاته عن تقدم سير العمل الميداني لمؤسستنا العسكرية. لقد أطلقنا على وزير الشؤون الداخلية لقب " (Father Christmas) بابا نويل" و ذلك بسبب لحيته الكثيفة الكبيرة المنتشرة في أنحاء وجهه و التي يفوح منها عبق رائحة البخور التي تنتشر في أنحاء المكان. إنه يلبس جلبابا أبيض مغطى بثوب أسود (بشت) و يغطي قمة رأسه بقبعة كبيرة (عمامة). تتكون هذه القبعة من شرشف أبيض مخروطية الشكل. هذه العمامة الكبيرة كانت بالنسبة له مستودع لملفاته فهي ملئ بالأوراق و الوثائق مرصصة بشكل منظم في ثنايا العمامة.

إن فاذر "كريسماس" له نوع من الإعاقة في نغمات كلامه. فلسانه تقود إلى حياة مستقلة بحد ذاتها متضمنة كل الإيقاعات التي يمكن إستخراجها من حركات الأسنان و لديه القابلية في تبديل مواقع و مخارج الحروف (و تبديل

مواقع الحروف و مخارجها في اللغة العربية شيء مدهش). و لذلك فإنه من الصعب فهم ما يقول إلا إذا كنت تعرفه جيدا و لذلك كان من الضروري الإستعانة بمفسر ضليع باللغة العربية و هذه الوظيفة تم القيام بها بسرية تامة و أطلقنا على المفسر لقب "الشعرة الكهربائية" و ذلك بعد محاولته البطولية لتضبيب لحية سيده فقد كانت العملية كأنها دفع شحنة بنحو ١٠٠٠ فولت لتضبيب اللحية .

لقد كانت جل وزارة الداخلية في تلك الأيام العسيرة عبارة عن غرفة صغيرة في قلعة نزوى العظيمة حيث كان "فاذر كريسماس" يتربع على عرش وزارته فوق حقيبة سفر ملفوفة جيدا مستعدا للسفر و الترحال الفوري . لقد كان تفكيرنا نحوه سيئا و لكن هذا ليس له قيمة فقد كان الرجل رجلا عجوزا شجاعا. و من هذه الحقيبة و الملفات التي على رأسه في عمامته كان يحكم عمان بشكل قيادي هادئ محكم.

بعد فشل عملية السلب و السيطرة على مواقع في الجبل قام مستشارو السلطان العسكريين بالإستعانة بسلاح الجو الملكي البريطاني (RAF) في خطة الهجوم. فمشكلة الماء التي هزمتنا فماذا يستطيع الصبيان ذوي القبعات الزرقاء فعله و إقتراحه ؟ بدأ المركز الرئيسي لسلاح الجو (RAF) بالعمل و في الوقت المناسب أعدوا خطة تنهي جميع الخطط السابقة. فعطش الجنود سيوظف فقط لإيهام مدافعي الجبل و سحبهم إلى الفضاء و الساحات المفتوحة من خلال وضع جنود و إيهامهم بأنهم عطشى و بعد ذلك سيقوم الطيارون بقصفهم بوابل من القنابل و تصفيتهم إلى أجزاء و قطع. كان هذا عبق الأجواء الكلية للحملة ككل.

باستخدام نفس الممر الذي فقدنا فيه جون كلارك لأننا أنا و جاسبر و الحمير و الجنود إعتدنا عليه و عرفناه جيدا كان على مجموعة كبيرة التقدم صعودا إلى الجبل في ظهيرة أحد الأيام للتمركز في أقرب مرتفع. و كان الهدف بالمرور في المساء محدثين نوعا من الضوضاء في أسفل الجبل و من ثم الزحف نزولا في نفس المساء خلال الليل. و بعد ذلك و عند شروق الشمس على تلال الجبل نتجمهر حول رجال طالب كاشفين أنفسنا من أجل البدء في الهجوم حيث تقوم القاذفات برمي قنابلها التي ترن ١٠٠٠ رطل عليهم.

مضت الخطة كما يجب عدا تلك الفرقة الخادعة قابلت بعض المقاومة حيث أن المدافعين علموا بأننا نستخدم ذلك الممر. كانت مهمتي في هذا التجمع هو قيادة فرقة صغيرة للسيطرة على جانب أحد السفوح لحماية الفرقة التي في تلة الجبل من لفت أنظار العدو. و عندما أخذنا موقعنا أصيب أحد رجالي برصاصة في ركبته كما تم قنصنا بوابل من الرصاص إلا أن تمكنا من معرفة القناص و تمكنا من إخراجه من مخابئه.

لقد كنا محظوظين في إصاباتنا رغم الكابوس الذي عشناه من إطلاق النار و الإصابات التي لحقت بنا فالموقف لا يحتمل وجود سيارات إسعاف و لا الحمير سوف تكون مفيدة لنقل المصابين ... لقد تم علاج المصابين في موقع العملية و قام الطبيب بتضميد الجرحى الذين نقلوا إليه بواسطة بعض العمال الذين أحضروا الماء من أسفل الجبل كما

أن رفاقنا في الطرف الآخر لم تكن لديهم إصابات تذكر و إشتبكوا مع العدو و لكن بشكل أقل منا و تعرضوا لنيران عرضية من زملائنا في أسفل التلة و لكن بالنسبة لهم سارت الأمور كما يجب.

و لكن في طريق العودة إلى أسفل الجبل و في أثناء إنسحابنا السري كانت الليلة مليئة بالعقبات نتيجة إطلاق النار الذي واجهناه. أحد جنودنا أطلق نار بندقيته نتيجة سقوطه من على صخرة و أصاب جندي تابع للبحرية الملكية البريطانية كان يرافقنا في الحملة و نتيجة لإصابته البالغة توفي الجندي في الطريق إلى المستشفى. و كانت الوفاة الوحيدة التي تعرضت لها قواتنا.بالإضافة إلى حمار واحد ، كما أصيب مساعد جاسبر في يده اليمنى و هذه كانت محصلة خسائرننا. أما فرقتي فقد خطط لها نوعا ما أن تكون في أسفل السفح الجبلي عند حلول الظلام فقد حملوني معهم عبر الأكتاف و الركب الأمر الذي جعلني بشعور كأني محمول بواسطة سلم بشري و قررنا عدم التسرع في الهجوم خوفا من إفساد الخطة. و حين وصلنا إلى أسفل الجبل كانت ملابسنا ممزقة و جلودنا مملوءة بالرضوض ... و قررت كراهية الجبل الأخضر.

و لكن بزوغ الفجر في وقته المحدد وجدنا أنفسنا في أسفل السهل مواجهة مع الكتلة الصخرية حيث تصف الزهور العمانية لمواجهة هجومنا و هنالك أتت القاذفات و هناك نزلت القنابل و كان حجم تلك القنابل أكبر نوع من القنابل رأيتها في حياتي تتكون نتيجة ملاستها أرض الجبل سحب من الدخان شبيهة بسحب المتكونة إثر الانفجار النووي ... تتبع ذلك حملة انفجارات و سقوط قنابل أخرى حتى تلبد أفق الجبل الأخضر بسحب من الدخان و الرمال تبع ذلك أصوات تهاوي الحجارة من أعلى الجبل نحو أسفلة و كان ذلك أشبه بإحتفال بهي تقرر فيه الطبول ... كان المنظر مؤثرا.

بعد ذلك أرسل طارق بعض الرعاة لإستكشاف المواقع التي تم قصفها و إحصاء عدد الجثث و الإفادة عن النساء المكلومات اللاتي ينتحبن على الضحايا .و عند رجوع أولئك الرعاة إلينا أفادوا أن المكان كله هادئ و ليس به ضوضاء و أن المدافعين عن الجبل لم يكونوا بالقرب من الأماكن التي تم قصفها و لكنهم كانوا يراقبون الألعاب النارية بتشوق من فوق أعالي الجبل كما كنا نحن نراقب الأمر من أسفله.

و كانت هذه آخر خطة للسيطرة على الجبل الأخضر من مقصورة قيادة طائرة .و تأكد بعدها لقيادة القوات أنه هنالك طريق واحد فقط للسيطرة على الجبل ألا و هو تركز القوات في الجبل نفسه و في أعالي قممه. و لكن الجنود لا يمكنهم الصعود و التمرکز في الجبل بمجرد السير و صعود ممراته إلا إذا كانوا مسنودين بقطار طويل من الحيوانات كاف للإستمرارية و ضمان وجودهم لمدة ثلاثة أو أربعة أيام كما أن الخطة يجب أن لا تعتمد على إفتراضية وجود برك ماء وهمية في سفوح و مسطحات الجبل أو تلك التي لا يمكن الوصول إليها. كما أن جميع المنافذ و الممرات إلى الجبل قد تم مسحها سواء عن طريق المشي أو عن طريق المسح الجوي بالطائرات و التي بدأت كأن الأخذ قرار بالمضي صعودا إلى الجبل ليست في صالحنا. كما أن أي خيار آخر يمكن التخطيط له و تنبيه يعتبر ضربا من الجنون

بالنسبة لأي كائن بشري عاقل يستطيع أن يرى و يتوقع الأمور ... إذن لا يوجد خيار آخر للصعود إلى الجبل إلا استخدام "البالون".

و أثناء تلك التقييمات الواقعية المتزنة كان فصل الشتاء المعتدل قد شارف على الإنتهاء و بدأت حرارة الجو و قدوم فصل الصيف في جعل نشاط صعود الجبل أمرا مستحيلا. فأصبح الأمر لدى قيادات القوة التي ليس لديها أي خيار إلا ترك "الثلاثي المرعب" بسلام في معقلهم على قمة الجبل و تجميع ما لدينا من قوات و عتاد في أسفل الجبل (الطابق الأرضي على حسب وصف المؤلف) حتى فصل الشتاء القادم حين يتحسن الطقس ... عند ذلك ربما يأتي أحد منا بإقتراح خطة جديدة نتمكن من خلالها بدء عملياتنا.

بحلول نهاية فصل الشتاء إتضح أنه يتوجب علينا القيام بتكثيف جولاتنا الإستطلاعية و الصعود إلى الجبل لتعزيز تواجدنا حول المناطق التي نسيطر عليها لاسيما تلك الواقعة في السهول و الهضاب المحيطة بالجبل الأخضر و التي تؤدي إلى الطريق الرئيسي إلى مناطق مخيم شركة النفط في فهود هذا الطريق الذي تنتشر على جنباته المدن و القرى و القبائل الموالية لسليمان بن حمير و الإمام. أن محاولات طالب لإختراق معاقلنا إجبرتنا على التراجع الإختياري أثناء محاولتنا الأولية لصعود الجبل و بنهاية الشتاء إستطاع أن يجعل الإستغناء عن بعض الجنود و إعادة نشرهم في مناطق أخرى للقيام بهجوم منها أمرا مستحيلا إضافة إلى أنه إجبرنا إلى طلب النجدة بتعزيز قواتنا و زيادة عدد الجنود من الخارج. فقد قامت كشافة ساحل عمان بالتمركز في إزكي لمساندتنا بشكل دائم كما أن سلاح البحرية الملكية البريطانية أرسلت لنا ضباطا من لدنها و الذين سأموا من العمل فوق ظهر السفن و تطوعوا للمشاركة في أقرب مكان يوجد به "حرب" و لذلك كانوا معنا كمتدربين و كمشرفين على الدوريات الإستطلاعية. و كان هؤلاء الرجال خير ممثلين لسلاح البحرية الملكية البلايطانية و خدماته الرائعة. بعد ذلك خمدت روح التطوع لدى هؤلاء و أتت الأوامر بإلحاقهم في وحداتنا الأمر الذي أدى إلى إنخفاض روح الحماس لديهم ، و لكن رجال منهم مثل الرقيب باف و و العريف لوندزديل الذين تم إلحاقهم بفرقتي كان الواحد منهم يساوي دزينة من الجنود العاديين. لقد قام هؤلاء الأفذاذ بتدريب و قيادة جنودنا بخلطة من النقاوة الشخصية و التفاني و الإلتزام و النموذج الأمثل و القدوة الحسنة كما أن إفتقارهم للتحدث باللغة العربية لم تكن عائقا في أداء تلك المهام. أن العريف الذي قتل بالصدفة في إحدى الغارات كان أحد هؤلاء الرجال الأفذاذ.

خلال تلك الفترة قام العدو بتعزيز قمع الجبل بالرجال فقد إختفى الرجال اليافعي السن من القرى ... من إزكي و مطي و بلاد سيت ... و كنا عندما نمر في تلك القرى نرى الأطفال الرضع و النساء و الرجال الكبار في السن فقط لاغير. كما أن صالح بن عيسى أمير منطقة الشرقية و الذي أخوه إبراهيم لا يزال يقبع في حبسه متصفحا قرآنه في سجون السلطان ... غادر صالح بن عيسى مقر إمارته إلى مدينة النفط الصاخبة الدمام المطلّة على ساحل الخليج الفارسي في المملكة العربية السعودية حيث قام بتجميع و تجنيد عناصر الشباب و مجمعا النقود و السلاح و ما يمكن تجميعه من معدات الحرب من أجل التعجيل في رحيلنا.

بينما كنا نعزز تواجدنا في إزكي و بقية الكتائب في المناطق المحيطة بالجبل الأخضر و المناطق التي على سفح الجبل ترك الجانب المطل على البحر من غير مراقبة عدا تلك الأبراج الطينية المكلف بحراستها مندوبي السلطان بإمكانياتهم البسيطة. هذا الجانب أصبح الممر الحيوي المهم لنقل الأسلحة و التموينات لأعوان طالب ... هذا الممر الذي إستغله أحد ولاة السلطان كوسيلة للربح التجاري المثمر.

إحدى تلك الشحنات من رجال و عتاد كانت روعة في الجرأة و الوقاحة و الدقة و التقدير و كانت على بعد شعرة من قباب الطاولة على قوات السلطان و أعطتنا كوابيس لعدة أشهر. هذا الإنقلاب كان من تدبير و هندسة صالح بن عيسى الذي كان بذكاء ينأى بنفسه عن ساحة المعركة و إطلاق النار ضامنا لنفسه العيش برخاء و سعادة و نعمة عندما يحكم الإمام مرة أخرى.

كانت خطة العدو التآمرية تقضي بتجميع الأشخاص و الأسلحة و العتاد في الجانب العماني من الصحراء. و يقوم المتآمرين بشحن البضاعة عبر سفينة إلى الشارقة بالتعاون مع المسؤولين الحكوميين هناك الذين يقومون بتخزين البضاعة في مخزن داخل قصر الحاكم. كان هنالك نحو أربعين شابا مدربين و مجهزين يقومون بحراسة الممرات و هؤلاء المجرمين العتاول من قبيلة قتالية متطرفة تابعة لصالح بن عيسى و كانوا مجهزين بكافة أنواع السلاح مثل قذائف المورتار و المدفعية و أسلحة مضادة للطائرات و كثير من الألغام و أجهزة راديوية لتمكين المقاتلين في الجبل الأخضر الإتصال بقياداتهم في الدمام. هذه التحضيرات و التجمعات جرت على أعين كشافة ساحل عمان و لكن لم يكونوا يتوقعوا و يشكوا أن التآمر يكون بتدبير و إتفاق مع حاكم الشارقة و الذي كان من الفروض أن يكون في صفهم.

لم يكن يتوقع الإنجليز أن يقوم الشيخ صقر بن سلطان القاسمي حاكم الشارقة رحمه الله بمساندة جماعة الإمامة و تقديم العون و التسهيلات لهم. قام الإنجليز بغزل الشيخ صقر عن مشيخة حكم الشارقة مطلع عام ١٩٦٥ م نتيجة لمواقفه الوطنية و نفي إلى الكويت و منها إلى مصر إلى أن عاد عام ١٩٧٢ م ليهاجم قصر الحاكم ابن عمه الشيخ خالد بن محمد القاسمي رحمه الله ليقتل الشيخ خالد و يعتقل الشيخ صقر و يزج به في السجن ثم الإقامة الجبرية في أبوظبي ليرتحل بعدها إلى القاهرة إلى أن توفاه الله في التسعينيات من القرن الماضي. و الشيخ صقر من أدباء و شعراء عمان المعروفين و له قصائد عدة يتغنى فيها بوطنه عمان منها قصيدة "فتاة الجبل الأشم" و هذه الأبيات من قصيدة يعبر فيها عن حبه لوطنه "عمان:"

كيف تـرجو أن أجـلو شـجـني * * * و أنا لم ألق من يفهمني
أنظر الكون فلا ألقى أحـا * * * يشتكي القلب إليه حزني
أحمل الجرح بصبر صامت * * * لم يقل و ألمي و حزني

و أرى الغيد الغريرات الهوى *** و فؤادي عند من تيمني
وطني الغالي و ما أعذبه *** وطني الغالي يلهمني
انه حملني أثقاله *** ليته قد يدري ما حملني

و في أبيات أخرى يخاطب وطنه قائلا:

عمان و هل لي سامع فأقول *** فقد هزني بعد الرجاء نكول
و آلمني منك القعود و قد دعا *** المنادي فهل من الفخار أقول
فيا حزني إن لم أجدك موحدا *** إلى المجد تمشي سيدا و تقول
إذا ما دعاك الحق لببت صوته *** كأنك سيف للنزال صقيل
تعيد لنا الماضي بأحلى صفاته *** و طرفك عن رؤيا الهوان كليل
أهيل عمان لا سقيتم بمزنة *** و لا أسعدتكم راحة و قبول
رضيتم بذل في الحياة و مالكم *** و عصر العدى غدر هناك يطول
كفاكم كفاكم ما دهاكم فكم عدا *** دخيل فثارت بالمصاب عقول
أناديكم يا قوم فاسمعوا النداء *** فقد هدني بعد الرجاء نكول"

كانت المرحلة الثانية من الخطة التي خططها المتمردون هي تهريب الأسلحة و المعدات و التعزيزات من الشارقة إلى عمان الأصل ومنها إلى أعالي الجبل الأخضر. كانت السواحل تراقب من قبل رجال جمارك السلطان فقط و بعض الحراس الخاملين التابعين لولاته. و كان رجال الجمارك في تلك الأيام لا هم لهم إلا تعبئة جيوبهم و زيادة مواردهم المالية عبر جبايا الدخل و الرشاوى و ليس منع تهريب الأسلحة من قبل اناس محترفين. و بذلك تم تهريب الرجال و المعدات و الذخيرة و إدخال تلك التجهيزات إلى عمان الأصل عبر البحر و تجميعهم في تلك الواجهة البحرية و من ثم نقلها بواسطة الحمير إلى عمان الأصل.

و من ثم قام المتآمرون بإستئجار شاحنة و قيادتها بكل براعة و أمان عبر الطريق الرئيسي متخطين الجمارك و نقاط التفتيش ليلتقوا مع بقية الشاحنات و المعدات و الرجال و من ثم يتوجهوا إلى مقصدهم في عمان الأصل. و لعدة أيام تم ملاحظة زيادة في حركة الشاحنات في ذلك الطريق الرئيسي المؤدي إلى عمان الأصل كما أن تلك الشاحنات توقفت بسبب الأعطال و لتصلح تلك الأعطال و قام ركابها بنصب الخيام و الإسترخاء و طبخ الرز تحت الإشجار و كان هذا شيئا ملحوظا في الطريق و لكن لم يقم أي شخص من جانب أعوان السلطان بإتخاذ الإجراءات الوقائية لمنعهم من الوصول إلى مقصدهم و خصوصا أن الرجال الذين يتوجهون إلى عمان الأصل هم من الشباب و يبدو عليهم أنهم يتجهزون للذهاب لميدان الحرب و القتال عبر أراضي عمان المجزأة بالحرب و القتال و كما أن حقائب أولئك الفتية ملئ بالعتاد .

مرت الشاحنة حاملة الرجال و الذخيرة و العتاد و الألغام عبر المدن و القرى العمانية مارة بالقلع و الحصون و أبراج المراقبة التي يحرسها رجال من قوات السلطان متجهة نحو طريق عمان الأصل و منها إلى طريق الجبل الأخضر حيث يوجد في هذه المنطقة نقطتا تمركز قويتين لنا الأولى الرستاق و التي كانت تحت سيطرة طالب قبل طرده منها بواسطة كولين ماكسويل قبل نحو سنتين ونصف و الثانية العوابي ... عندما وصلت الشاحنة إلى تلك المنطقة إختفت بين أكناف الممرات و الصخور المؤدية إلى الجبل الأخضر.

قام حراسنا في الرستاق بتوقيف الشاحنة و لكن سائقها و بكل سهولة تجاهل الحراس و مضى في طريقه و بين الرستاق و العوابي مرت بهم إحدى سيارات اللاندروفر التابعة لنا فقام سائقان بتبادل التحية و السلام و في العوابي طلب منهم الوقوف و قامت نقطة التفتيش بإطلاق النار فقام سائق الشاحنة بتوجيه شاحنته متوارياً خلف التلال الجبلية حيث تم تفريغ الشحنة و تحميلها على ظهر الحمير و منها تم صعود الرجال و العتاد و الذخيرة على ظهر تلك الحمير بسلام إلى الجبل الأخضر متوارين خلف الصخور و المنحدرات الجبلية ... و تم إضرام النار في الشاحنة بشكل إحتفالي.

كل بيض طالب كان محمولا في تلك السلة المذهلة ... فبعد ذلك بقليل ووجهت طائراتنا الإستطلاعية بقذائف منطقة من مدافع رشاشة حجم فوهاتها ٥* ، كما تم قصف مخيماتنا بقتابل المورتار و دورياتنا تم كشفها و إفشالها بواسطة رجال صالح بن عيسى المثابرين ... النقطة الوحيدة التي لم تنجح في كل تلك الترتيبات هو عدم قدرة العدو الإتصال بالدمام و على الأقل و لا مرة واحدة بواسطة أجهزة الراديو.

٩. العيش في حفرة (Life in a Hole)

ربما كانت إزكي في عام ١٩٥٨ المكان الوحيد في العالم الذي يستطيع المرء فيه تناول طبق مرق الدجاج على الطريقة الإيطالية متبوعا ب سلطة الفواكه المزوجة بشراب مخمر (كيريش) و هو داخل حفرة تحت الأرض.

تم تجهيز تلك الحفر نتيجة لإنتشار وباء القنص الذي تعرض له المخيم منذ بداية السنة. هذا الأمر الذي كان مخططا له كإجراء وقائيا مؤقتا و تجنباً للوقوع في كمين أصبح من الضرورة تنفيذه حماية و دفاعا من هجمات القناصة . تحت كل خيمة كان يوجد حفرة من حائط إلى آخر و بعمق ٤ إلى ٥ أقدام و كأن داخل الخيمة حجرة مريحة. في تلك الحفر عشنا و أكلنا و نمنا و سلينا على أنفسنا عندما كنا لا نطارد القناصة. و فوق قمة صخرة قمنا بتركيب مدفعية رشاش مغطاه بعلب الكيروسين مملوءة بالتراب.

كان مرق الدجاج و الكيريش إقتراح من ريتشارد أندريسون الذي كان الضابط المسؤول عن هذه الواحة الغناء

السخية المبنية تحت الأرض عندما تمركزت فرقتي هناك. لقد كان أندرسون يتمتع بالمزايا والسمات العالمية للرجل ذو السحنة الحمراء ميالا للثوران الصفة التي حاول جاهدا التغلب عليها و إحتوائها ببطولة و بنسبة نجاح مختلفة. لقد كان له تأثير بالغ على رجاله الذين أطلقوا عليه **"Major Drum"** و تعلموا أن لا يديروا بالا لثورانه و غضبه ، لقد كانت لديه ميولا ل "جيلبرت و سيليفان" و ذكرى مذهلة لعدم الفهم و الإدراك. كما كانت لديه قدسية عظيمة لمهنة السلاح و ذوق رفيع لها. و بصفتي الضابط الوحيد بنفس الرتبة فقد تحملت هذا المزيج و التنوع. كما أن الوجبات الشهية كانت تقدم عبر مضيفين يرتدون ملابس بيضاء يتخلل ذلك دوي انفجارات عصبية أندرسون و غضبه و أزيز رصاص القناصة التي تمر بدون أن تحدث إصابات فوق مخابئنا الأرضي ... تبقى هذه الأمور من الذكريات التي لا يمكن أن تمحي من ذاكرتي. صباح كل يوم كنا نرى أندرسون عائدا بخيلاء من الجبال ... إنه شخص بشكل دائري مرتديا بدلة عسكرية زرقاء منقطة حاملا تحت أحد ذراعيه رزمة من الورق و تحت الأخرى بندقية مشحونة بالرصاص التي كانت وسيلة حمايته الوحيدة من القتل أو التعرض و هو يتجول عبر الصخور. لقد كان شجاعا أكثر مني حيث أنني كنت أنتظر حتى قدوم الظلام في المساء حتى يمكنني الخروج إلى الهواء الطلق و أقوم بما تفرضه علي الطبيعة و قريبا من رشاشات المخيم.

لقد قمنا ببناء حائط حول الخيام علوه ٥ أقدام و عندما إنتهينا من بناءه تمكنا فقط من الخروج على أقدامنا من مخابئنا و العيش فوق سطح الأرض غير سابق إنذار بوابل الرصاص الذي يصطدم بجسد الحائط.

لقد تم بناء الحائط بطريقة قوسية و لكن محكمة عبر صفوف من التلال جبلية تمكن وقاية أكثر للحائط كل ٦ إنشآت بين كل صف كما تم نشر الرمال و الحصى لسد الشغرات بين مسافات التلال و تم سكب طين لجعلها متماسكة. و تم إنشاء في كل ركن برج مراقبة على إرتفاع ٥ أقدام يحتوي كل برج ٦ رجال و رشاش واحد. و قد دفع فينا كفاءة هذا التحصين الروح الدفاعية إلى أن بدأت قذائف العدو تطلق نيرانها من جديد الأمر الذي جعلنا نكتف من الدوريات الإستطلاعية لتقليل تلك القذائف و معرفة مصادرها ، فقد قمنا برش بعض المواد المفرقة و التي تلمع ليلا كالماغنيزيوم و التي تضيء في الظلام و عند بدء القتال إطلاق ناره يتم تحديد مكانه الذي ندكه بالقذائف و في الصباح تقوم دورية نقل الموتى للبحث عن القتلى من العدو و لا نجد شيئا إلا آثار أقدام صغيرة جدا و بعض الفرو المتناثر الأمر الذي يدهشنا بأن الضحية كان أرنب أو ثعلب.

لقد قضى جنودنا البالغ عددهم نحو ٥٠ جنديا معظم نهارهم و لياليهم جاهدين لتطهير الطريق من الألغام .

ففي بدايات عام ١٩٥٨ كانت الألغام الهاجس الأكبر لنا ، و متقدمة على بقية الأمور التي كان يلزم علينا تدارسها في هجومنا على الجبل أو حتى تطويع قرية أو قريتين. فقد كان جل مجهودنا الفكري و العملي مركزا على هذه المسألة المزعجة. كان لزاما علينا أن نسير الشاحنات عبر الطريق ذهابا و أيابا و قد كان غير مجديا أيضا لو أنه إستطعنا إستخدام طائرات الهليكوبتر أو الجمال فقد كان الأمر سيان لأننا كنا معتمدين كلية على الطريق البرية. و

في قمة عمليات النقل كانت خسائرنا ناقلتين أو ثلاث يوميا. و لم يكن لدينا العديد من الناقلات (لوريات) و بالتأكيد ليس لدينا ناقلات إحتياطية ... فكان هذا مثل حصار بريطانيا عبر البحر (U-boat blockade was to Britain.

لم يتأثر الجيش بذلك فقط بل كذلك شركة النفط التي لم تعفيها الحصانة الغير عسكرية و كذلك التجار الذين حاولوا سلك ذلك الطريق و الذين توقفوا بعد ذلك و لم يسلم أيضا من الألغام الحمير و الجمال الذين وطأوا بحوافرهم المكان الخطأ.

لقد أصر أندرسون على عدم ترك إي عربة معطبة على الطريق كدليلا قاطعا على إرتباكنا. تقع إزكي على الطريق الرئيسي المؤدي من مسقط إلى نزوى و من ثم إلى فهود و نحن و بصفتنا نتمركز في إزكي عانينا من زخم حرب الألغام ، و أصر أندرسون على إحضار الجميع إلى المعسكر. و كلما سمعنا صوت إقتراب قافلة من اليمين أو الشمال نمسك أنفاسنا تحسبا لوقوع إنفجار. و بالفعل ما هي إلا دقائق و نسمع صوت إنفجار و بعد ذلك نسمع صوت أندرسون صارخا بكل قوة آمرا بالخروج لإحضار السيارات المعطبة و منها يتم سحبها و تقاد ثانية إلى مسقط حيث يتم تجميع السيارات المعطبة في ساحة السكراب.

في إحدى المرات و عندما قمنا بسحب سيارة لاندروفر تم تفجيرها بواسطة لغم قاصدين بها إلى مقبرة مسقط لم يمض على ترك عربة القلص معسكرنا سوى أميال معدودة إلا و سمعنا الصوت المعتاد و لما ذهبنا إلى الموقع وجدنا أن سيارة القلص أشلائها مبعثرة على جوانب الطريق ، و في تلك الأثناء و من حسن الحظ مرت بالقرب من الحادث سيارة شحن تابعة لشركة النفط أشبه ما تكون بالقاطرة و بها إطارات عدة قامت بسحب سيارة القلص المنفجرة و سيارة اللاندروفر و مضت في طريقها نحو المخيم و ما هي إلا دقائق حتى سمعنا صوت إنفجار آخر ... قاطرة الشركة فقدت إطارين أو ثلاثة و لم يلاحظ السائق ذلك فاستمر في طريقه. في حادثة أخرى كنا نقلص سيارة تم تفجيرها بلغم و عند سحبها مرت سيارة القلص بسلام فوق اللغم و لكن السيارة المسحوبة داست عليه و انفجرت لثاني مرة خلال يوم واحد.

لقد تم نشر الألغام على ثلاث مراحل و بشكل متفاوت. فقد قام الأخ طالب بنفسه بنشرها في بادئ الأمر و من ثم مرر الوصفة السرية لعدد من ثقاته الذين كانوا يحضرون الألغام في حقائب (بخش) على ظهورهم و يقضون الوقت لمدة إسبوع في قرى حول إزكي أو مطي أو بلادسيت عند بعض الأصدقاء و يتسللون ليلا لنشر الألغام على الطريق ثم يعودون إلى الجبل لإحضار المزيد من الألغام. أعطتنا تلك الفترات القصيرة بين الرجوع إلى الجبل و إحضار الألغام نوعا من الراحة و مجالا للتنفس و التي لولاها كانت بالنسبة لنا كارثة من دون توقف.

لقد كنا في تلك الأيام و كأنا نصطاد في الظلام. لقد كان وراء تلك العمليات و التكتيكات البدائية رجل واحد يدعى "القصير" (Shorty) و هذا ما أعلنته القيادة بعد الإنتهاء من الحملة على الجبل الأخضر. و أنه هو الذي كان

يقوم بعمليات إطلاق النار في الليل. و لكن هذا "القصير" لم يحدد شخصه بل فقط كإسم ، و كنا نشك في أي شخص لم يكن يرتدي قبعة عليها شعار السلطان. و كنا نعتبر أن جل سكان عمان أعداء و نعاملهم بالشك و الريبة و الإحتقار و حتى الوساخة و القذارة و الإزدراء.

لقد حاولنا مختلف السبل و الإجراءات التي يمكن تصورها لتجنب تلك التكتيكات و الهجمات. أرسلنا دوريات ليلية بشكل يدعو للاحراج و عدم الثقة و لكن مواطن الجبل الرشيق يمكنه و بسهولة تفادي و الابتعاد عن مجموعة الجنود في تلك البلاد المفتوحة المجزأة. لقد سجلنا وجندا القرويين و خصوصا أولئك الذين من مطي و إزكي و قسمناهم إلى مجموعات تحت إشرافنا من أجل القيام بمبدأ "لصوص يطاردون عن لص". و ما نتج عن ذلك هو زيادة عدد الألغام المزروعة على الطريق الذي تسير عليه مجموعة البحث التي ليست من القبائل الموالية لسليمان بن حمير أو الإمام. لقد جلبنا عددا من الأجهزة الكاشفة للألغام من الجيش البريطاني و لكن ذلك يتطلب خبير متدرب عشر دقائق لتطهير طول مائة ياردة من الطريق ن فكيف يكون الأمر و للتعامل مع طريق طوله مائتي ميل .عندما يكون من المتوقع وصول قافلة مهمة كنا نتبع تكتيكات انتحارية ميؤوس منها ألا و هي إرسال شاحنات من لدنا محملة بأكياس رمل ليكون ضحاياها قرابين يفدون أنفسهم من أجل سلامة رفاقهم. و حتى أننا فكرنا برصف الطريق كله بالقار و لكن سعر التكلفة الباهض و الذي تجاوز سعر المئات من الشاحنات مما دفعنا للتخلي عن الفكرة.

لقد كانت إحدى افكارنا الرائعة هي عملية الهبوط الحسمي (D-day landing) لقد إبتكرنا عاسفة/كاسحة ... تلك العاسفة/كاسحة يتم تركيبها على خشبة و توضع في أمام الشاحنة و تقوم بتطهير المكان من الألغام قبل أن تدوس عليه العجلات .هذا الإختراع قامت به شركة النفط عندما قام المختصون لديها بتهيئة البلدوزرات بهذه التقنية المبتكرة.

حان اليوم العظيم ... لقد وصل الجهاز القوي الفاعل إلى إزكي للتجربة كاملا مع السائق الذي كان يستعرض حافلته بفخار و قمنا بوضع لغم تم العثور عليه على الطريق و راقبنا كيف سيكون الحال عندما تمر الشاحنة المطهرة العاسفة الكاسحة فوق اللغم.

لم يحدث شيء ، و أعدنا الكرة و مرة أخرى و في المرة الرابعة كان هناك بريقا قويا و صوتا هادرا و قذفت قطعة من إحدى السلاسل مارة فوق رؤوسنا لقد نجحت الفكرة و لكن آكلة ألغام تنجح بعد المحاولة الثالثة أو الرابعة ما هي إلى وسيلة حماية ضعيفة للقافلة التي تتبعها. شكرنا شركة النفط لكرمها و حسبما أعلم أن الكاسحة العاسفة لا تزال ترقد بصدأها بسلام في إزكي بعد أن إستقرت بغير حراك بعد محاولتها البطولية.

في تلك الأيام كنا نستطيع أن نكون فلاسفة في مجال الألغام بخلاف المعاناة التي واجهناها منها و من تجميع أشلاء ضحاياها و لأنها كانت صغيرة فقد كان تأثيرها خطرها على أعضاء جسد الإنسان قليل. رجل كان راكبا لاندروفر

تعرض لإفجار لغم أصيب فقط في كاحله و قد وضعنا أكياس رمل على الشاحنات و ذلك لتقليل الإصابات البشرية و المادية و أصبح بالإمكان إستخدام العربات بعد تصليحها. حتى أنا وضعنا قطع من الحديد أشبه بالسكين في مقدمة سيارات اللاندروفر و ذلك لتقليل الأضرار. و أما المتمردون فقد إستطاعوا الحصول على ألغام بدرجة أقوى من السابقة و قد تعرضت لها شاحنة عسكرية قادمة من الشارقة مما إضطرنا أخذ الحيلة و تجهيز شاحناتنا بقطع حديد مسلحة قوية تمسح الألغام و جعل سيارات اللاندروفر تسير خلف الشاحنات.

لم نهزم الألغام أبدا ، و بقت رفيقتنا في حياتنا اليومية و دافعا لنا لمحاولة الصعود إلى الجبل و تطهير قمته من الرجال و الألغام متى أصبحنا أقوياء بما فيه الكفاية و عندما يتحسن الطقس.

لم تكن الألغام مدعاة قلقنا الوحيدة ، فبعد يوم واحد فقط و أثناء تمتعنا أنا و أندرسون بتناول وجبة الإفطار التي نحسبها مع الشامبين و مثيلاته لفت إنتباهنا صرخ و هرولة لجنود يبعدون عنا لمسافة لا بأس بها. بعد ذلك بقليل رأينا سيرة لوري (شاحنة) تعبر بوابة المخيم عبر نقطة التفتيش و المراقبة مطلا منها سائقها المضطرب صائحا أن قافلة من جنودنا قادمة من نزوى تعرضت لكمين على بعد خمسة أميال و تفرقت عناصرها تحت الحصار و توزعت معداتها إلى أشلاء و أصبحت مشلولة الحركة كما أن ذخيرتها شبه نفذت و العربات توقفت و أنه كان في مؤخرة القافلة مما مكنه الهروب.

هذا أمر جديد. و أنه للمرة الأولى يقوم المتمردون بالنزول من الجبل و تحدينا في وضح النهار كما أن الهجوم ليس "إضرب و إهرب" بل أن تبادل إطلاق النيران مستمر و حصار جنودنا باق.

تجرعت آخر ما لدي من شراب و إمتصيت سلاحي و عدتي و توجهت لأرى ما يحدث.

وصلنا إلى مكان محصور بين تلال جبلية و من هناك كنت أسمع أصوات الطلقات المختلفة المتبادلة بين جنودنا و المتمردين. و مما دعانا إلى مزيد من الحذر رؤيتنا لعدد من العرب و بشكل متزايد قادمين من مزارع إزكي و بيوتها الطينية يقودهم رجل يرتدي عمامة بيضاء و واضعا نظارة سوداء الأمر الذي يمكن وصفه انه أشبه بجاسوس روسي بلباس مهندس و لما إقترب مننا كشف أنه ممثل السلطان في إزكي و ان أولئك الرفاق القراصنة هم جنوده و قال لي إذا كنت أريد مساعدة فما علي إلا السؤال و الطلب. إنتشرت تلك المجموعة المتوحشة المدعاة للشك و الحيلة فوق تلة صخرية يزيلوا الوسخ من انوفهم (يتنقبوا باللهجة العامية) و يشاهدوا المعركة.

و فور قيامي بإعادة النظر إلى موقع المعركة تيقنت أن القافلة تلفظ أنفاسها الأخيرة و إنتشر رجالها في نواحي السهل تحت حرمة قناصة المتمردين الذين أثبتوا لآخر لحظة أنهم متواجدين و قد كانوا يتركزون على تل عال من الجانب الآخر من المنحنى الجبلي الذي أقف عليه. لقد كانت حالة القافلة يرثى لها بينما كان بعض الجنود متحصنين خلف المركبات يحاولون إطلاق النار و بكل ما أتوا من شجاعة نحو ذلك التل مصدر إطلاق النيران.

حاولت لترتيب تغطية ميدانية من الرصاص بينما كانت إحدى وحدات الجنود تشق طريقها إلى المنحنى الجبلي و لكن كان بعض جنودنا جدد و ليسوا ملمين بإستخدام نوعية البنادق التي لدينا مما يعرض جانبنا للخطر و لذلك قمت بنفسى بإطلاق النار نحو مصادر إطلاق النار من العدو و في الوقت الذي وصلوا فيه إلى قمة المرتفع كان العدو قد تحصن في تلة أرفع مما دفعنا إلى التحصن و حماية أنفسنا بالقتال و المدافع لدفعهم خلف مدى أسلحتهم. و أخيرا و عندما وصلت التعزيزات و قطع الغيار من إطارات و أسلحة تم إنقاذ القافلة كما تعب القناصة من ممارسة لعبتهم و إختفوا متجهين صعودا نحو الجبل و قمنا بالإسحاب نحو معسكرنا.

حدث ذلك أكثر من مرة و أطلقنا على نوع تلك العمليات في تلك المنطقة و المنطقة نفسها (Windy corner) حيث أنها في الحقيقة المنطقة الوحيدة التي فيها الطريق تؤدي إلى سفح الجبل الأخضر بشكل مستوي. كما أنها كانت المنطقة المفضلة لرجال طالب لإستعراض مهاراتهم بالرمية و لكننا قمنا بإنشاء نقطة تركز لنا في تلك التلة و إندارها و التي إستهلكت قدرة و عدد رجالنا في إزكي و لكنها خفتت من عمليات التأهب و اليقظة مما ساعدنا على التركيز في تطهير الألغام.

كان في تلك الأيام (Gunpowder Joe) المضمّد الذي قابلته في الشارقة و رافقتي في مهامى في طريق ضمن الفرقة الطبية في كتيبتنا حيث ترك مثلي و مثل بوب وارنر جندمة ساحل عمان ليرى كيف تكون الحياة في عمان الأصل. لقد كان غير محظوظا حيث وطأ لغما و كسر كاحليه و كان لأسابيع يرى في المخيم متجولا و كلتا رجليه مجبرتين مؤديا واجبه التضميدي. بالإضافة إلى علاج المرضى المصابين بالجروح و الإسهال و ضيق التنفس و خلع الأسنان و رفع معنويات الجنود.

تم الكشف عن السلاح السري الذي طال إنتظاره لدى رجال طالب في إزكي في منتصف العام. كنا نستعزى بقناصة طالب عندما إنتهينا من بناء حائطنا و لكن قذائفه ال ٨١ مم تستطيع نظريا عبور أعلى الحواجز و قد حاول رجاله ذلك بكل إصرار و لكنهم لم يجرؤا على إنشاء منصة ثابتة لهم لإطلاق القذائف منها تجنباً و خوفاً من ردة فعلنا إذا قاموا بذلك. و لذلك قاموا بإخفاء مدافعهم و سحبها من مواقعها و إحضارها إلى أماكن جديدة كلما أرادوا أن يقذفونا بها. و لكن هذه الطريقة ليست بالسليمة لأداء المدافع التي يجب أن توضع بشكل سليم مرتب من أجل أن تصيب أهدافها بدقة. و لكنهم كانوا و في ذروة إطلاقهم لقذائفهم يسحبون مدافعهم في عز الظلام كل مساء عند مدخل التلة المطلة على معسكر إزكي و الذي يبعد نحو ميلين و من ثم يبدأون إطلاق نيرانهم نحو مدافعنا الموجهة إلى مدخل ممر الجبل بدقة قبل أن تستطيع مدافعنا الرد عليهم. كانوا يطلقون نحو نصف ديزينة من القذائف ثم يقومون بالإسحاب بسرعة في حين تقوم مدافعنا بالرد. أستمرت هذه اللعبة لبعض الوقت و لكن كانت مرة واحدة فقط إستطاعت فيها قذائف طالب من الإختراق و النفاذ إلى داخل الحائط التحصيني لمخيمنا و التي أدت إلى بعض الخسائر المادية و البشرية لدينا ، عدا ذلك لم يستطيعوا أو نستطيع نحن إلحاق أي خسائر في كلا الجانبين. لقد كان ذلك

معركة تراشق متبادل بين الطرفين من غير إحراز أي نصر. لم يتمكنوا من معرفة أن قذائفهم ال ٨١ مم تفوق قذائفنا ال ٣ إنتش التي عفى عليها الدهر و الشرب قوة و مدى و لو كانوا صوبوا نحو مدى أبعد لكانوا مزقوا المخيم و ما عليه إلى أشلاء و قطع.

و بالتدريج كانت تعزيزاتهم في الجبل تعطي ثمارها ... ألغام كبيرة الحجم التي تسبب الموت أو إصابات بالغة و مدافع و رشاشات من النوع الثقيل المدمر التي أسكتت طائراتنا المجهزة بسماعات لتصل نداءاتها إلى أولئك المخلصين تنصحهم لعدم الولاء للمتمردين في مختلف أرجاء سفح الجبل الأخضر فقد كانت هذه الطائرات تجبر على قذف ما تحمله من بضاعة لتعود خائبة إلى قواعدها و قد روى الجميع أن أفراد العدو أصبحوا أكثر تدريبا و حرفة و جندية ... لقد أصبحت قوة الثلاثي المرعب في تزايد مستمر.

و لكن نحن أيضا كنا نزداد قوة.

لقد كان السلطان في تلك الأيام لديه قطعة أرض في آسيا و التي كان يدعي أنها ملكه الخاص. هذه القطعة تدعى مدينة جواذر و التي تقع على الساحل في أقصى بلاد فارس و في الغرب من الباكستان. سكان جواذر من البلوش و هم جنس مهجن من العرق الفارسي و يأتي ولائهم للصاحب السمو سلطان مسقط بسبب نهج تاريخي معين. فمن جواذر كان يأتي بالمجندين للإلتحاق بقوات السلطان و بشكل مستمر و منظم. لقد قرر السلطان و بحكمة أنه من الغير مجدي محاولة تجنيد رجال من القبائل العمانية حيث أن معظمهم يقومون بالتمرد عليه أو أنهم متقلبوا الولاء و أنهم على حافة التمرد كما أنه في حالة إنتصار الإمام و التمرد الذي يقوده فأن كل قبيلة في عمان ستمضي خلف الراية البيضاء ... و أنه لا توجد قبيلة مستعدة للمخاطرة في ذلك الوقت في مناصرة و إختيار اللون الخاطئ من الراية التي تعطيها الولاء.

و بذلك قدم البلوش إلى مسقط في شحنات على متن السفن. إن البلوشي يتمتع بروح مشجعة و شعور مسالم و نفس خالية من الخيال الأمر الذي يجعله جنديا جلدًا وقت الشدة و لكنه من الصعب أن يقوم بأعمال بطولية. في كل هذا أنه على نقيض كامل مع العربي. كما أنه لديه جانب سلبي مهم آخر ألا و هو أنه يتكلم فقط البلوشية و لا غير. أنه من الصعب جدا أن تفقد جنودا يتحدثون لغتهم الخاصة. و في ركن ضيق يتعين عليك أن تقول "John" " :خذ بنديتك و رجلين من جنودك إلى قمة التلة التي بها الشجرة المسطحة و حين ترانا قادمين إلى أعلى من جانب التلة السفلية إطلاق النار على الصخرة السوداء ذات الظلة الكبيرة حتى نصل إلى أسفل بالقرب من الممر المائي." و بما أنك قلت ذلك فإنه عليك أن تتأكد أنه تم فهمك. إن ذلك كان صعبا مع الجنود العرب ... فقد كنا جميعا نتكلم العربية و لكن القليل منا يتحدثها بطلاقة ، فكيف لنا قيادة جيش لغته ليس معترفا بها حتى في مدرسة لندن للدراسات الشرقية (London School Of Oriental Studies) ؟

عندما كنت في إجازتي السنوية في لندن حاولت إيجاد حلا للتغلب على تلك المشكلة (التفاهم مع الجنود البلوش). إتصلت بمدرسة لندن للدراسات الشرقية الذي أكدوا أنهم لا يعرفون شيئا عن هذه اللغة و تجولت متسكعا في شوارع "بلومزبيري" لعلمي أجد في شوارعها الخلفية مكتبة أجد مقصدي. و أخيرا وجدت ما يشفي تطلعي و معرفتي في مكتبة تعليمية تقع مقابل المتحف البريطاني و توجهت داخل تلك المكتبة مستفسرا فيما إذا كان لديهم شيئا غريبا ككتاب عن تلك اللغة الغريبة البلوشية.

رجل عجوز أشبه ما يكون بباحث قال نعم و أنه يعتقد أنه كان لديهم كتابا عن تلك اللغة في مكان ما و في وقت ما ... صعد إلى أعلى لبحث عن الكتاب في أنحاء المكتبة و بعد مضي فترة لا بأس بها عاد إلى أسفل حاملا بين ذراعيه صندوقا تم إتلاف جزء منه بواسطة الفرن. كان الصندوق عثا متأكلا و فتحنا الجزء السليم منه فوجدنا أربعة درازن من الكتب العثة ذات الرائحة القديمة المغبرة لم تمسسها يد بشر إلا يد الناشر و المطبعة. نشر الكتاب في أعوام ال ١٨٨٠ و أعتقد أنه لم يسمع به منذ ذلك الحين عدا ذلك الرجل الكهل أمين المكتبة. إسم الكتاب "قواعد اللغة البلوشية" و عنونت فصوله كالآتي: الأسماء - الأفعال ... إلخ.

إشترت نصف درزن من هذا الكتاب القيم الذي كان له أهمية و مدلول إستراتيجيا في حملتنا العسكرية في الأراضي العمانية ، و أخذت المجموعة معي إلى مسقط والتي أثبتت أهميتها في مهامنا ... على الأقل نستطيع الآن التواصل مع جنودنا.

مثلنا كان جنودنا البلوش يتلقون كافة الدعم من الجيش البريطاني. لقد ذكرت في السابق جنود البحرية الرائعين الذين دربوا رجالنا بما فيهم البلوش مستخدمين اللغة العالمية للحفر و قيادة الدوريات و ميزوا أنفسهم و حسبما أعلم كسبهم تقدير عامة الناس و إحترامهم بصفتهم أنهم شاركوا في حرب ليست حربيهم. لقد كانت لدينا فرقة من كشافة عمان المتصالحة المتمركزين في إزكي ليشاركوا مع فرقنا مهام الدفاع عن أنفسنا و مرافقة القوافل و مراقبة المناطق الريفية و لدينا أيضا مجموعة من السيارات المدرعة الذين كانت لديهم القدرة و الإستفادة المثلى من الإقتراب من مناطق تمركز العدو و إطلاق النار عليهم من دون خطر يذكر.

و في يوم من الأيام حصلنا على بنادق كبيرة.

كان لا يزال لدينا بنادقنا الصغيرة و لكنها كانت صغيرة جدا لإحداث الهدف المرجو من ضععة قوة العدو في الأشهر الماضية هذا الهدف الذي يؤدي إلى الإنقراض على الجبل الأخضر. و لذلك قامت الحكومة البريطانية مشكورة بإهداء صاحب السمو السلطان قطعتين من قاذفات الصواريخ المتوسطة الحجم ذات فتحة ٥,٥٠ إنتش و كبيرتين إلى حد أنه يتعين على شاحنتين كبيرتين سحبهما ، لقد كانت مدافعا الصغيرة يمكن وضعها في مؤخرة سيارات اللاندروفر. لقد أتى ضابط من سلاح الصواريخ الملكي ليعلمنا كيفية إستخدام تلك القاذفات و سرعان ما

درب مجموعة من الجنود البلوش المعضلين يرتدون أحذية عسكرية سوداء الذين قاموا بإطلاق القذائف و كأنهم يلعبون كرة المضرب. (Tennis Balls)

لم نكن نستطيع قصف الشريحة من نزوى و لذلك قمنا بأخذ القاذفات إلى موقع بالقرب من الجبل. و لم تمضي فترة إلا و مدافعنا الفاخرة تدوي موجهة نحو الأعلى بدقة لتضرب معازل سليمان و مملكته و في عقر داره .

و لكن لم يمض وقت طويل إلا و قام طالب بالرد بغضب و قوة. ففي يوم من الأيام عندما كانت مدفعيتنا توجه ضرباتها إلى معازل العدو في الجبل وقعت تحت نيران كثيفة قوية من نواحي التلال المحيطة و لكن التراكاتورات العملاقة مضت في مهامها لتطهر الطريق من الألغام و و أصبحت هذه مهمة يومية للمؤسسة العسكرية إلا أن إستطعنا أن نطهر تلك التلال و تعود مدافعنا لأداء مهامها بسلام و إنتظام. جون كلارك الرجل الجبلي الذي يجب في منتصف الليل قاد الفرقة المحلية في نزوى و كانت مهمته اليومية الصعود إلى الجبل ليظهر المنطقة قبل ان نبدأ بإطلاق النيران. أخذت تلك العمليات مجهودا كبيرا و على نطاق يومي كما قال جون كلارك بحماس متدني و بعد ذلك بقليل إرتبطت ثلاث فرق من قواتنا على نفس المنوال كما كان في إزكي لدواع أمنية و في مهمة دفاعية. ففي إزكي قمنا بإنشاء مخيم و حفر حفر و تحصين المخيم و تركز جنود على حواف المخيم و بين التلال و الأحجار من أجل تحصين دفاعي جيد و مد أسلاك لمنع تسلل العدو و تطهير الممرات من أجل حماية جنودنا و مدافعنا حيث ان العدو كان ينقض علينا و يهاجم ليلا.

تدرجيا و بشكل يدعى للإرتباك و الإثارة و التهيج و القلق كان الجيش جميعه كأنه مغموس في مهام غير مجدية و محاصر و مشلول الأداء. كانت طلقات مدافعنا هي الشيء الوحيد الذي يشير إلى أننا نقوم بشيء ما ضد الإمام و نقارعه في عرشه العالي.

كان لأحدهم فكرة أخرى جيدة ... لماذا لا يتم تطويق جميع المنافذ المؤدية للجبل و زرعها بالألغام و المتفجرات ؟ و بما أنه توجد منافذ قليلة للصعود إلى الأعلى فهناك منافذ قليلة أيضا للنزول. و إذا كنا معرضين للتفجير لأننا مجبورين لإستخدام تلك الطرق فإنه من المؤكد أن المتمردين سيكونون عرضة للتفجير أيضا حيث أنهم محصورون عبر ممرات محدودة للتنقل بين أعلى و أسفل جبلهم.

كانت هنالك صعوبات. فتغور التلال الجبلية ماهي إلا نتوءات مبعثرة لجلاميد ضخمة بعضها بحجم منزل كبير و لذلك فأن فكرة ألغام ضد الأشخاص تم التخلي عنها. أيضا على كل رجل و ربما ينطبق ذلك على الماعز و الثعالب و الأرانب و القنافذ للمضي قدما إلى أسفل أو أعلى حق إستخدام تلك الممرات. و لذلك تم افسستعانة بخبيرا فنيا من سلاح الهندسة الملكي البريطاني (لقد أصبح الجيش البريطاني معاونا فاعلا في الحرب مقدما لنا كافة العون و ما ينقصنا من جند و عتاد و خصوصا الجنود الأمر الذي قامت بريطاني سابقا بالقسم أنها لن ترسل جنودا إلى عمان

مرة أخرى) وهذه الخدمات تضمنت التعهد أصلا بتقديم ٣ إنتشات قاذفة قنابل مثبتة بسلك متحرك يمكن من خلال ذلك القيام بلعبة صغيرة يقوم المهندس العسكري بزرع ألغام يمكن من خلالها المرور تحت السلك و لكن إذا مر شخص بحجم إنسان يسحب السلك تلقائيا و ينفجر المدفع في ذلك الإنسان. الماعز ستفعل نفس الشيء و لكن لا يوجد ماعز ملكي أو سلطاني لديه أي شأن و عمل في الصعود إلى الجبل و ماعز طالب تستحق كل ما يلاقونه من قبلنا .

كان ذلك الرجل الذي يزرع الألغام رجلا شجاعا مثابرا و لديه طاقة عالية و لا يكل. لقد قام بزرع كل مصائد الألغام بنفسه الأمر الذي يعني أنه يخترق و يمشي فوق الأرض الملغمة في تلك المنحنيات البائسة المريبة و يمكث هناك لما فيه الكفاية ليترتب و يجهز المصائد. كان يوميا يتوجه نحو الجبال نصف عاري و لونه أصبح كلون الجوز واضعا شنطة عسكرية على كتفه محملة بمواد شديدة الانفجار. كان يساعده في مهمته متطوع شاب من سلاح الصواريخ يدعى روبرتسون الذي لفت إنتباهنا له رغبته و مغامرته و جرأته إضافة إلى ضحكته الشبيهة بصهيل الحصان التي كانت تلفت إنتباهنا و تدوي في المعسكر إلى أن إعتدنا عليها. كان روبرتسون جنديا حقيقيا و أحد الشباب الذين بلغ فيهم حد الملل من مناورات (Aldershot) و مواكب الإحتفالات تلميع الأحذية العسكرية و الذين كانوا يبحثون عن أقرب حرب للمشاركة فيها فوجدوا أنفسهم معارين للسلطان.

لقد كانت مصيدة الألغام مع الأسف و بحزن ليست ناجحة. الوحيدة التي أعرف أنها انفجرت بواسطة إنسان كانت خلف إزكي عندما كانت دورية صغيرة تسمح بحذر في عمق الجلمود المملغم. لقد تم إخبار الرجال أين تم تزرع الألغام و لكن في طريق العودة نسي أحد الرجال موقع اللغم و المصيدة و بذلك لمس السلك الذي سرعان ما إنشد مفجرا اللغم. كان لذلك صوتا مدويا و في وسط الدورية و كان الدمار الوحيد هو غصابات في الكتف نتيجة تطاير الحجارة.

و أعتقد أن ذلك كان نتيجة خطأ الفذيفة البريطانية أكثر من أن الخطأ كان بسبب زارع الألغام. لقد قمت بنفسني بتطهير تلك الألغام و بشكل مروع من طريق رجالي حيث كانت تلك الألغام توجه نحو الهدف الخطأ فتنفجر في رجالنا و لكن بدلا أن نحصل على أشلاء بشرية كنت أحصل على حنق و غضب و شتائم و لكمات مهتزة من جنودي الغاضبين الذين لم يصابوا بأذى إلا بعض الجروح البسيطة. لقد حاولنا بقدر الإمكان إستخدام القنابل الفسفورية في منحدرات الجبل بدلا من القنابل الكبيرة حيث أن تلك القنابل الفسفورية لها تأثير أكثر و فاعل لا يمكن إطفاء نارها و أفضل من تلك القنابل الضخمة التي تنقسم إلى أشلاء و قطع حديدية و تقذف الحجر أو إثنين.

لقد كان لتحسيناتنا الدفاعية الأصلية المبتكرة و إعتدنا على القذائف الصاروخية لإجازه مهمتا القتالية في قمة الجبل سببا في إحداث ردة فعل في نفوس أولئك الذين قدموا لمساعدتنا. و بما أنهم أعضاء محترفين لأجهزة عسكرية معقدة و يفتخر بها بعكسنا نحن الذين كنا مجرد مرتزقة ... لقد قام أولئك ممثلين بضباط كشافة ساحل عمان و سلاح البحرية الملكية البريطانية و أجهزة أخرى بتنظيم الأمور و تعليمنا كيفية العمل في هذا الآتون من

الجو الحار في هذا الصيف المتعب و كيف يجب علينا مواجهة طالب و التعامل معه. النتيجة كانت في الغالب مفيدة و لكن في بعض الأحيان كارثية .

كانت مطي مشهدا لكارثتين على الأقل مدفوعة بدوافع لعمل شيئا ما ضد ذلك الجبل الصلد الذي نحن قوات السلطان المسلحة ظننا أننا نستطيع قهر تحصيناته الطبيعية و بسهولة ، و لكن نتيجة لتقديراتنا الخاطئة و إستهزائنا لما يتكون و يتشكل منه ذلك الجبل تعذر علينا ذلك.

تقع قرية مطي على سفح تلة جبلية صخرية متشكلة كحاجز عبر فم الممر الجبلي المؤدي إلى سفح الجبل. كما أن الجلمود الصخري الذي يؤدي إلى الممر منحدر بزاويا قائمة و ممتدا إلى مؤخرة ذلك الجلمود و من ثم يمتد إلى أعلى بشكل حاد و على إرتفاع ألف قدم. لقد بنيت مطي لحراسة ذلك الممر. أبراج المراقبة بنيت بإمتداد الجلمود كما أنه تم بناء بيوت محصنة مطلة على نتوءات الجلمود الصخري .كما أن أشجار النخيل و المسطحات الزراعية ممتدة على بعد النظر كغطاء سرير لتغطي القرية و التي يمكن المرور عبرها بالأقدام فقط و بصعوبة في إتجاه واحد. أن الطريق الشرعي الوحيد الذي يمكن سلوكه إلى مطي و الطريق الوحيد الذي يمكن للعربات المضي فيه هو القيادة إلى حلق الوادي الذي يوجد فيه ممر الصعود إلى الجبل و من ثم المشي عبر تلك المزارع المصفوفة بشكل إحتفالي منظم.

مطي كانت محمية من قبل مجموعة من رجال القبائل الموالية لطالب و يتزعمهم رجل يدعى ناصر الذي كانت يداه مثل السمكة الرطبة و وجهه على نقيض ذلك. و كان أيضا والد زوجة سليمان بن حمير. و لذلك فهو ليس ذو تأثير فعلي لجعل مطي خالية من المتمردين الذين معظمهم لديهم بيوت في مطي و يقضون مع عائلاتهم إجازات عطلة نهاية الأسبوع.

نحن في إزكي ننظر إلى مطي بكراهية شديدة. لقد كنا نذهب إلى هناك في بعض الأحيان في زيارات مجاملة رسمية للندي الرطب اللزج ناصر و لكن آخذين بعين الإعتبار و الحذر عدم إحداث أي أمر يثير غضبه و ريبته و إستيائه ... نحن نحترم حياد مطي الذي على الورق فقط و موأمين وجوهنا بالموافقة لإحتجاجات ناصر التي يدعي فيها بالولاء للسلطان ... عدا ذلك فإننا نتجنب الإحتكاك مع إنصاره و الإبتعاد عن أماكنهم.

لقد كان هذا غير كافيا لكشفافة ساحل عمان الذين رأوا أن مطي إهانة قائمة و تحدي صحيح و صريح. في يوم ما تقدموا نحو حلق الوادي الذي به الممر في جو إحتفالي موسيقي حاملي الرايات الإحتفالية و ما أن وصلوا إلى ذلك المكان إستقبلهم طوفان من الرصاص من جانبي الوادي ... لقد وطؤوا على كابوس الجنود و كمين متكامل من غير القدرة على الهروب و تمت محاصرتهم بين صخور الممر غير قادرين على المرور و لو حتى مسافة إصبع حيث أن القناصة يتحكمون بالمنطقة و مخارجها بشكل كلي. قتل قائد الفرقة على الفور.

لقد أجبرنا على التدخل لإنقاذ فرقة الكشافة من ذلك الكمين و كانت الموقعة كبيرة و مثيرة و أكبر من ما سبقها من إشتباكات. تم طلب الطائرات من الشارقة التي قامت بقصف التلال الجبلية بالصواريخ و المدافع. كما قامت آليات كشافة ساحل عمان المدرعة بالتدخل لضمان إنقاذ زملائهم و قمنا بتجميع كل جنودنا للإشتراك في تلك العملية. مطي يجب أن لا تسلم من العقاب و يجب أن نلمسها بقوة السلاح.

لقد تكرر الإشتباك مرة أخرى بعد أشهر قليلة و بشكل لا يصدق و لكن هذه المرة بالخطأ. فقد قام ضابط من البحرية الملكية وصل للتو بدورية روتينية مع حفنة من رجالنا و رغب في رؤية و التعرف ماذا يكمن داخل ذلك الجلمود الصخري ... و هذا على الأقل ما يعتقد أنه فكر فيه. لقد قتل الضابط و جرح إثنين من رجاله و حوصر البقية كالفراشات بين الصخور الضيقة. لقد إستغرق الأمر على الأقل يوما واحدا و كثيرا من تبادل إطلاق النار قبل أن نتمكن من إخراجهم من تلك المنطقة. بعد ذلك قمنا بتأسيس كتيبة جنود دائمة في مطي و في المكان المحصن و فوق التل الجبلي و ذلك لحماية طريقنا إلى ناصر. و دعمنا ذلك بعدد من الدوريات تمركزت في الممر إحدها ظهرت كمين الألغام الذي وضعناه هناك و لكن مطي لم يتم تطهيرها أبدا و بقت غصة في حلقومنا حتى النهاية.

في مساء أحدى الأيام كنت أقود سيارتي اللاندروفر بسلام لزيارة إحدى الدوريات و فجأة إهتزت السيارة و إرتفعت إلى أعلى و تناثر الغبار المتطاير و إختلط مع الدخان الأسود و دوى صوت إنفجار و وجدت نفسي مستلقيا على وجهي فوق شجرة شوكية صغيرة ... إستغرق الأمر دقيقة أو إثنين لينجلي الدخان و لأدرك أين أنا و لأرى سيارتي اللاندروفر محطمة ممددين فوقها جنديي الإثنين متوجمين و لكن سليمين يكسوهما الغبار الأبيض و مقدمة السيارة منفجرة .

كانت ردة فعلي قوية و غاضبة ... لقد فجروني و سيارتي أصبحت خرده و لكن شكرا لأكياس الرمل حيث أن إصابتنا طفيفة و بخدوش فقط. و صادفنا جمال و طلبنا منه ركوب جملة و توجه أحد الجنود معه إلى إزكي لإحضار النجد و الإنقاذ. بعد بضع ساعات حيث قضينا الوقت مختبئين خلف تلة صخرية منتظرين بقلق و ولع و وحيدين بينما الجبل يمتد ممتسقا إلى أعلى من على جانب الطريق متحديا وصلت شاحنة من أندرسون و حملتنا بذل و مهانة إلى المعسكر.

لقد كانت هذه النهاية لسنتي الأولى كضابط مرتزق في قوات السلطان . عدت إلى بلادي لقضاء الإجازة السنوية سعيدا من كل قلبي بهذه الإجازة.

١٠. قتلة محترفون للإنقاذ (Professional Killers To The Rescue)

منذ أن انسحبت قوات المساعدة البريطانية بعد إعادة إحتلال نزوى عام ١٩٥٧ كان على قوات السلطان المسلحة تحمل ضربات طالب القوة و الصلبة يساعدها في ذلك كشافة كارتر (كشافة ساحل عمان) و ضباط البحرية الملكية البريطانية و بعض الأحيان طلعات و قنابل سلاح الجو الملكي البريطاني (RAF) كان جيشنا المحتل يتكون من ثلاث فرق فقط من بلوش السلطان الذين من المفروض أن يكون عددهم نحو ٩٠ رجلا قويا و لكنهم لم يكونوا كذلك. كانت قواتنا تحت قيادة كولين ماكسويل و جون كلارك و كنت أقود إثنين من تلك الفرق و يقود الفرقة الثالثة ضابط مواطن. كان لدينا جاسبر و حميره و بوب وارنر و ذخيرته و عتاده و ريتشارد أندرسون و معسكره في إزكي و كان هنالك فنان ملتزم يدعى إريك راو و ضابط إستخبارات عسكرية يدعى دينيسون الذي أصيب بجروح قبل سنتين بواسطة أحد رجال صالح بن عيسى و لا يزال يعرج برجله المشدودة بالرباط.

في بيت الفلج ذلك المقر البخاري بالقرب من مسقط كان الفاخر رئيس الأركان ووترفيلد يخطط و يرتب و بهدوء و معه هيو و بعض الأحيان هيوكول و بقربهم بات جري الذي كان لا يزال ينظم بشكل نظري و مثير المجندين البلوش في ساحة التجمع في المعسكر. و كان هنالك ضباط للمساعدة و الإسناد و إعطاء الأوامر ، فالضابط الذي علمنا كيفية إطلاق النيران و الإختصاصي في علم النفس و الرعاية الإجتماعية الذي حاول إقناع الثالوث في الجبل على الإستسلام إلا أن تم إسكات مكبرات صوت طائرته بواسطة نيران العدو كما أنه كانت هناك سيارات الكشافة المغطاة بالفلواذ ... و كان هذا كل ما نملك لعدة أشهر.

ما كان ينقصنا و بشكل ميؤوس منه هو الجنود الأعتياديون و بالتحديد الضباط الإعتياديون المختصون الذين لديهم الخبرة الكافية في الأمور الحربية. لقد قام ماكسويل بإدارة المؤسسة بشكل جيد و وفق الخط المرسوم و لكن ذلك الخط أخذ يخرج عن الطريق و بشكل عشوائي. كانت الثلاث فرق الصغيرة مجبرة على حراسة نفسها و خطوط إتصالاتها و ملتزمة بذلك بشكل لا يمكنها من القتال و كذلك أنه لا يوجد أمل في القيام بعمليات عسكرية و صعود الجبل المرعب كما قمنا بها من قبل مع عدم توفر العدد الكافي من الرجال و العتاد و ليمكننا ذلك من السيطرة عليه. القنابل و المصائد المملغة ذات الحبال لا يمكنها وضع نهاية لقلقتنا و خيبتنا و التي تزداد بشكل يومي.

و لذلك إستلم الجيش البريطاني دفعة القيادة و زمام الأمور و بسخاء .

أدى هذا إلى ثورة في رتبنا و مراكزنا. لقد غمرنا أولئك الضباط بالكرم و نحن ممتنون لهم أيضا. ذهب ماكسويل إلى مسقط و حل محله ليتونانت كولونيل (مقدم) لامع في قيادة الجيش في إزكي و نزوى و الذي كرم بتكليفه قيادة كتيبة الحدود الشمالية (من غير أن يفهم أنه في الحقيقة يتمركز متورطا في وسط البلاد و أن أقرب خط للحدود البلاد يقع في الصحراء إلى الغرب). ليتونانت كولونيل (مقدم) آخر يدعى مايك ريد قدم ليقود الجنود في بيت الفلج الذي أطلق على كتيبته و بشكل معقول كتيبة مسقط . هؤلاء (الكولونيل) جاؤوا من خلف سحابة من صغار الضباط الذين سرعان

ما و بحماس نظموا الأمور و أرونا ما يستطيعون عمله. بعضا منهم كان من الدرجة الممتازة و بالأخص جون تشرتشل (John Churchill) الذي فاز بصليب الخدمة العسكرية معنا.

و فوق الجميع يأتي الكولونيل دافيد سمايلي (David Smiley) الذي إستلم قيادة كافة أسلحة قوات السلطان. قبل ذلك كان قائد القوات السلطان نفسه و قائد العمليات الميدانية أمير اللوردات الذكي الألمعي ووترفيلد الذي أطلق على نفسه رئيس الأركان حسب العرف البريطاني. و بالرغم أنا نحن المرتزقة كنا سعيدين بهذه الترتيبات الجديدة فإن القادمون الجدد لم يكونوا كذلك لأنهم أرادوا أن يكون لهم قائدهم الخاص و لأسباب متصلة بقانون الجيش و العسكرية و قسم الولاء. السلطان ورئيس أركانه ليس لهم الحق لممارسة أي سلطة قانونية نحوهم. و لذلك إستلم "سمايلي" القيادة. أما ووترفيلد فلا يمكن أن يستسلم و أن تنتهي مهامه بهذا الشكل و لذلك عين نفسه وزيرا للدفاع و بشكل مفبرك و حمل لقب لواء (بريجادير). مراقبين هذا التصعيد من الدرك السفلي توقعنا أن يكون منصب وزير الدفاع منصبا شكليا و إسميا و أن وضع ووترفيلد و منصبه هو منصب رفيع تكريمي و إمتنانا لخدماته السابقة. و لكننا سجلنا و اعتبرنا من دون ووترفيلدنا (Our Waterfield) و بالرغم من إعفائه من مسؤولياته العسكرية و إنضباطاتها إلا أن سلطاته كبرت و على الأقل من الناحية البدنية العملية السلطوية حتى أنه يمكن تشبيهه كالبالون الذي إحتوى جميع السلطات و أنه إرتفع شأنه ليصبح الحاكم الفعلي لمسقط و عمان. بمعنى آخر بقي ووترفيلد في القمة. لقد إعتقدنا أنه لو كنا في محل سمايلي لكننا أنفسنا رتب أعلى و على الأقل رتبة لواء (Brigadier) إذا لم تكن (Major General) و لكنه أوقف ذلك الإغراء.

لقد كان ديفيد سمايلي رجلا إستثنائيا .كان قصير القامة و عيون لا ترمش و وجه مسطح ناعم مثل الكاهن و صلبا كالشجر الساج (teak wood) في زمانه كان فارسا رائعا في سلاح الفرسان الملكي المسؤول عن الحراسة المرافقة مرتديا زيه العسكري و خوذته ذات الريش و تعاطا مع مسؤول ذلك السلاح بكل تمرد و أنفة الأمر الذي من الصعب تصوره. و في الحرب العالمية الثانية تنقل في بلاد البلقان و نظم تقسيم يوغوسلافيا تحت أعين الألمان. و لديه أصدقاء في معظم الأماكن الفاخرة و حب لا ينضب للمغامرة و المخاطرة و زوجة طويلة جميلة. من إختياره لقيادتنا كان عبقريا حيث أن لتركيبه شخصية سمايلي الفدائية المحبة للقتال و الإضباط العسكري هو ما نحتاجه بالفعل منذ أمد طويل.

بعد أن إستلم الجيش البريطاني زمام القيادة إستقرنا على زي عسكري مناسب. قبل ذلك كنا نلبس ما نشاء و نرغب أو كما كان الحال في بداية جندرمة ساحل عمان و ما بقي لنا من لباس. إرتدى جاسبر قبعته الدائرية ذات اللون الخاكي اما أنا فكان لدي قبعة زرقاء مثيرة للإشمئزاز ، كما كان الآخرون يلبسون متجولين بلباس شبيه بذلك الذي إرتداه (لورنس أو أرييبا) فوق رأسه كالشفافة .أما كولين ماكسويل فكان يلبس ما كان يلبسه أثناء عمله في السلاح الملكي الأسكتلندي و كان هذا اللباس إسترعى نظر السلطان عندما تم تصميم الزي الجديد أمرا سموه: مثل هذا و لكن باللون الأرجواني ... مؤشرا إلى قبعة ماكسويل الخاكية .

و بذلك كتيبة مسقط و معها الغير محظوظ مايك ريد الضابط الكبير في السن نوعا ما و الذي لديه شخصية جذابة و هادئة و منضبطه إرتدوا القبعات و الزي الأسكتلندي ذات اللون الأحمر الفاقع. ما ظنه صناع القبعات الأسكتلنديين في أدنبره حول هذا الذوق الغريب و الأمر العجيب من هذا السلطان العربي لم يتم معرفته و تسجيله. و لكنهم لبوا الطلب من غير إعتراض و سؤال. كتيبة مسقط كونها لم تكن أسكتلندية لم تتعلم أبدا كيف تضع هذه القبعات بشكل سليم و كانوا يبدون كأنهم صفا من المشروم السام أكثر كونهم جنود. و على كل حال لقد كان واحد من ضباطهم الجدد إسكتلنديا و حاول تعليم العرب و البلوش و الإنجليز أفراد الكتيبة كيفية لبس قبعاتهم من دون جدوى.

أما كتيبة الحدود الشمالية سمح لهم بالمحافظة على كبريائهم و إستمرارية لبسهم القبعات ذات اللون الأخضر. هذا أغضب قادة الجيش و لكن السلطان يستطيع أن يفعل ما يشاء بجيشه. في مقر القيادة الرئيسي بما في ذلك دايفيد سمايلي يرتدون القبعات الأرجوانية مثل رجال الشرطة المصرية. أما البريجادير (اللواء) ووترفيلد فكان يرتدي ما يحلو له و يريد.

كل هذا التجديد و الضخ في الدماء الجديدة و شحنات القبعات المضحكة ليست كافية لكسب حرب الجبل الأخضر. و لكن على أية حال يجب أن تكسب خلال فصل الشتاء القادم مهما كانت التكلفة فلا أحد منا يستطيع تحمل تصور قضاء سنة أخرى مثيلة لمعاناتنا في هذه السنة.

أن الدروس التي تعلمناها حفظت عن ظهر قلب من قبل أسيادنا الجدد. لم تعد هنالك دوريات مجنونة ، و لا مشي بدون ماء إلى تلك الممرات المحصنة ، و لا مصائد لنا يلقي بها طعم للإغراء و لا طائرات سلاح الجو الملكي البريطاني لتلقي قنابلها. و لا هجومات إنتحارية في حلق ممرات مطي الجبلية.

بحلول نوفمبر ١٩٥٨ قام سمايلي بنقل و إستلام كافة مسؤولياته و صلاحيته بكل أسس و قوة و تنفذ. لقد قام بقطع طريق فرقة من القوات الجوية الملكية الخاصة (SAS) الذين كانوا متجهين إلى الوطن (المملكة المتحدة) بعد مهمة حربية في غابات الملايو و أقتنعهم بقطع رحلتهم للقيام بمهمة صغيرة لنا....

إن رجال (SAS) هم عبارة عن طيارين فدائيين يملكون الكفاءة و القدرة الفدائية و القفز من الطائرات. أنهم يتمتعون بدماء باردة و هدوء الأعصاب و ميزة القتل المحترف لم أرى أي جنود مثلهم قبل ذلك فالجندي الإعتيادي يعتبر رجل مؤدب مقارنة بهم. أن فرقة من هؤلاء المقاتلين الجليدين يساوون كتيبة مدربة تدريباً كاملاً و ربما لواء من جنودنا البلوش الجليدين الجامدين الغير أذكياء.

كان (SAS) واثقون و بهدوء. لقد درسوا الخرائط و قاموا بطلعات فوق الجبل و أعطوا وجه نظرهم بأنهم يحتاجون لثلاثة أسابيع فقط لإنهاء مهمتهم. و لكن في الواقع إحتاجوا إلى ثلاثة أشهر كما لزم عليهم مضاعفة قوتهم و تطلبهم فرقة ثانية و لكنهم أدوا مهمتهم.

حاولوا في البداية طريقة تقليدية أو إثنيتين. دورية إنتشرت بطريقة غير منظمة في سلسلة الجبال المطلة على الجانب الآخر لممر مطي المؤدي إلى القرية و في الحال تمت محاصرتهم من قبل مجموعة من المتمردين بعدد أصابع اليد الذين رأوهم قادمين و طاردوهم إلى القمة. إستغرقت عملية رجوعهم الكثير من الوقت و الكثير من تبادل إطلاق الرصاص و القنابل إلى أن تمكنوا من الهبوط إلى أسفل الجبل .

و صعدوا إلى أعلى من جانب آخر و لكنهم كونهم جنود مدربون و ذوي مشاعر و إحساس فقد إتجهوا إلى قمة الجوانب و ليس إلى منحدرات الجلاميد. ستذكر هذه الجوانب بأن ليس بها طرق تؤدي إلى الجبل بسبب أنها تنتهي بقمم تطل على أسفل السفح الجبلي بشكل عمودي أو على تلة معلقة و لكن (SAS) قاموا بتدوين ملاحظاتهم في تقاريرهم و نظريا متدارسين تلك الخرائط مضوا في إستطلاعاتهم و دورياتهم.

إحدى الدوريات الإستطلاعية توجهت نحو الجانب الآخر ... من العوابي. و وجدوا ممرا غير مراقب مثل ذلك الذي أرشدنا إليه درويش في تنوف و الذي أوصلهم إلى تلك النقطة العالية التي وصلتها مع درويش قبل نحو سنة. و بكل إحساس و مشاعر و سرور و إبتهاج قرروا بعدم الإفراط بهذا الموقع على قمة الجبل الذي لا يقدر بثمن. سمايلي قام بتعزيز قوتهم و إستمر في تموينهم و بقوا هناك. و لكنهم لا يزالوا في الجانب الخطأ من ذلك العمود المحروس ببواباته الطبيعية و الذي حاولت من قبل من دون جدوى بجعل سلاح الطيران الملكي البريطاني تقلص صلابته. و من غير الهجوم بقوة على هذه النقطة القوية فأنهم من غير شك لا يستطيعون الوصول بالقرب من الشريحة و طالب أكثر من ما قمنا به نحن على الأرض في إزكي. لقد حاولوا السيطرة عليه و لكنهم فشلوا ... و بذلك وجب عليهم إيجاد طريقة أخرى لذلك.

و لكن كانت كل تلك الأنشطة الهجومية تؤثر على أعصاب المدافعين .سلاح الطيران الملكي البريطاني أيضا أصبحت أكثر عدوانية. تقريبا كل يوم كنا نسمع دوي انفجارات قنابل تقذفها الطائرات على مواقع يشك بها أنها لعدو هذه القنابل أصبح حجمها يزداد و يزداد. لقد أطلقوا الرشاشات على الأغنام و قاموا بكل شيء عدا قصف الشريحة و الذي سيكون و حسب النهج السلوكي الحالي لمثل هذه المناسبات هو عمل لحرب غير معلنة. و لكن كل الوقت كانت قذائفنا العظيمة تنفجر موجهة نحو الشريحة و تضربها في زيادة متطردة و الدوريات تلك التابعة لنا و التابعة ل (SAS) تقاد بشجاعة و عزم من قبل ضباطنا الشباب الجددو يجبرون طالب على نشر جنوده. أنه يعلم أن الهجوم الزاحف قادم و لكنه يزداد حيرة و إرتباكاً في كيفية معرفة من أين يأتي هذا الهجوم و عليه أن يقوم بتكثيف الحراسة على الممرات و المداخل بخلاف أيامنا السابقة التي كان فيها يستطيع رؤيتنا قادمين من بعد و تجميع كل قوته ضدنا.

إن البناء و تعزيز القوة مضى بمثابة و من غير هوادة. ستيوارت كارتر أرسل لنا شحنات من كشافات على ظهر شاحنات و بعد ذلك أتى بنفسه ليشترك اللعب و الضحك. كان لدينا حراس إنقاذ مع سياراتهم المدرعة الذين نزلوا

منها و تجهزوا بأسلحتهم و إنضموا إلى (SAS) في قمة الجبل. كما إنضمت كتيبة مسقط إلى اللعبة. و مئات من رجال القبائل تجمعوا مرة أخرى حاملين أعلام و مطلقين بنادقهم بفرح و إبتهاج. و لتزويد هذا الجيش الزاحف أحضر سمايلي ثلاثمائة حمار من أرض الصومال و معهم رجل محترف في رعاية الحمير من سلاح الخدمات البيطرية. (Army Veterinary Service) لقد أتوا من كل حدب و صوب. دايفيد سمايلي كان ينادي بنفسه أنه لا ينقصنا أي شيء ... بشرا أو حيوانات ... للذي سيكون الهجوم الأخير و الحاسم على معاقل الإمام الصخرية.

على ضوء هذا الإندماج الممتع غبت عن مشهد الساحة و بشكل مفاجئ. لقد كان لدي إختلاف في الرأي مع أحد الكولونيلات الجدد حول ما هو مجدي و غير مجدي عسكريا. لقد كان رجل مثل الأسد و لكن كان في ذلك الوقت ليس له مفهوم عن تشكيلة الجبل. و كانت هذه عوارض و تحسس في العلاقة بين ما يدعى الحرس القديم (ماكسويل و جاسبر و رفاقهم) و الدم الجديد و لذلك أخذ خلافي مع هذا الرجل المنحنى الخطأ. و لذلك تركت ميدان المعركة و ذهبت إلى الساحل لتسلم مهمة جديدة. لقد إنتشرت رائحة كريهة من الإشاعات و الإتهامات بالجبن لرحيلي لبعض الوقت و التي لم أكن أعرف عنها إلا في وقت لاحق و لكنها سرعان ما تبخرت.

لقد كان أمرا محزنا و لكن لا يمكن إجتنابه أن يظهر نوع من الشك و الريبة بين عنصرين من وحدات جيشا (قوات السلطان الإعتيادية و الكتائب الملحقة بها من الجيش البريطاني) و كنا من الوعي بأننا نكون خاليين من المشاكل و الخلافات ، لقد كنا حساسين جدا و سريعين في كشف أي تهجم علينا أو شك و كنا نرى أن القادمين الجدد متعالون علينا. و كانوا في المقابل يكونون نحونا نوعا من الإمتعاض المخفي. كانوا يكرهون مجموعتنا و إعتقادنا أننا نعرف الأفضل و الجو السائد لدينا أننا كنا هناك منذ البداية عندما كانت الأمور سيئة جدا. كان بعضهم في الحقيقة و حقين و مغالين في التهجم و ليسوا ملتزمين و منضبطين و لكن هؤلاء كانوا قلة و كانوا على كل حال العنصر الغير مميز. رجلان قاتلا و عملا بجد و لمدة طويلة و في النهاية أثبتا أنهم ضد هذا الإنشقاق أحدهم كان سمايلي بنفسه و الآخر كولين ماكسويل الذي كان نائب سمايلي الذي بذل مجهودا كبيرا لتجنب إدعاءات المتعاليين في كلا الجانبين.

مهما كانت الدوافع لذلك فقد ضرب بي المثل. فقامت بتسليم رجالي الذين كان معظمهم معي لأكثر من سنة و خصوصا الضباط المواطنين المحليين و الضباط الغير مفوضين المساعدين (NCOs') الذين كانوا معي منذ هيوكول. سلمتهم لأيدي أمينة للفارسين روبرتسون و تشرتشل (Robertson & Churchill) اللذين سيفوزان بالعركة الرئيسية معهم. و غادرت إلى أبرشية دائرتي .

يمتد ساحل الباطنة على طول الساحل من مسقط إلى جذور قرن وحيد القرن" (هذا ضمن إطار الوصف الذي وصفه المؤلف للجزيرة العربية في بداية كتابه). إنه سهل ممل يتفاوت في العرض من عشرين ميلا إلى لا شيء. و كل طوله البالغ نحو مائتي ميلا عبارة عن قرية طويلة. مصطفى على الشاطئ على طول الطريق كأعشاش الطيور قرى

صيادين وسط الكثبان الرملية مبنية من سعف النخيل العالمية و مزينة بالأسماك الجافة و الشباك. و على بعد كل ٣٠ ميلا يوجد مدينة تحتوي على سوق و مسجد و قلعة مندثرة و التي يجلس فيها ممثل السلطان يقوم بفصل الخلافات و أمور القضاء بين الناس و يلتقي الرشاوي. و يوجد خلف الكثبان الرملية و أكواخ الصيادين شريط من الرمال الملحية الناعمة مزروعة بأشجار النخيل. و خلف هذه المزارع سلسلة من القرى و القلاع مكرسة لتربية الماعز و أكواخ و حضائر خشبية مبنية حول الأشجار يسكنها الرعاة و ماشيتهم و دواجنهم. يبلغ عرض المساحة المأهولة من هذا الشريط الساحلي نحو الخمسة أميال. أما ما بعد الحزام المبني لحماية الماعز فهو عبارة عن شريط صحراوي ممتد من الرمال الصخرية (المسيلة) الرمادية إلى تخوم الجبل الأخضر.

إن الترحال عبر الباطنة كان دائما مملا و متعبا. و العيش هناك يعطيك وجهة نظر واحدة للحياة ألا وهو أنه يوجد فقط إتجاهين للمضي قدما ... يمينا أو يسارا ، أعلا أو أسفل هذا الساحل. و توجد أربعة طرق متوازية. للجسور و لغير الصبور و للشخص المدرك. كان هناك الشاطئ عند وقت الجزر حيث تستطيع شاحنة المضي بسرعة ٦٠ ميلا في الساعة متواصلة و لكن الخطأ في تقدير موعد المد تعني حمام ماء مالح للعربة. أما الذي لا يريد المغامرة عليه أن يسلك الطريق عبر التلال الرملية و تحمل الغبار المتطاير عابرا الطريق وسط أشجار النخيل متنفسا ذلك الغبار الذي سيغطي من دون شك جسد الإنسان. كان معظمنا يسلك الطريق آخذين كلا الخيارين و عندما تمطر فإنه لا يوجد خيار حيث تصبح طريق النخيل مستنقعات مائية و يتغير الغبار إلى طين لين مثل الشوكليت حيث ليس لنا خيار إلا المرور عبر المزارع تجنبنا للوحل و المستنقعات .

هذه الرحلات الشاقة يمكن أن تستغرق يومين و ليس أقل من يوم كامل إلا إذا تثق بإله البحر (Poseidon) و تسلك الطريق الساحلي. و حتى هنا توجد مخاطرة خصوصا في الصباح الباكر عندما يكون القرويون يفرغون ما في أمعائهم. إن السياقة بسرعة ٦٠ ميلا في الساعة عبر أكثر من درزنين من القرويين تعتبر تجربة مثيرة للأعصاب.

صحار هي عاصمة الباطنة ، إنها مدينة ممتعة و بها بعض من عبق التاريخ. لقد قيل لنا أنه من صحار إنطلق السندباد إلى البحار. في صحار رتبت لي منزلا في إحدى فلل السلطان التي يقضي فيها عطلاته تتكون الفيلا من طابقين و أرض رطبة و كاشي من مانجلور و حديقة من أشجار النارجيل و الجوافة و البامية و مطبخ يعمل بالفحم و طبّاخ هندي و سرير.

كانت مهمتي في الباطنة وقف تدفق الأسلحة و العتاد و الرجال التي تجلب لتعزيز قوة طالب بينما كان سمايلي يستعد لوثبته. مائتي ميل من أرض مفتوحة على طول الساحل للمراقبة و ليس معي أحد ليعاونني في ذلك إلا نفسي. إنها تبدو مهمة شاقة. سقت ليومين كاملين تحت عاصفة مطر إلى أقصى الحدود حيث يوجد مركز جمارك يقع على تلة جبلية يحرس التلال و الطريق المؤدي إلى الشارقة و دبي. و كان هناك جاسبر في كوخ مبني من سعف النخيل يتجرع وسكيه الخاص في كأس من صفيح.

جاسبر سبقتي إلى كتيبة الحدود الشمالية. و ربما كان ضحية مبكرة لعملية التطهير التي حدثت في جيشنا. أن قائد مجموعة متقاعد لا يستطيع أن يقبل تلقي الأوامر و يكون تحت قيادة ضابط برتبة مقدم .جاسبر أدان عملية جعله ضابطا صغيرا و تنزِيل قدره من دون جدوى و لكن بعض الأحيان يظهر قيادته للمجموعة برغم عنه و خصوصا عندما يستثار نتيجة غباء أحمق. وجدت جاسبر مخيما في مركز الجمارك لأسابيع عدة محاولا تحديد شحنة من البنادق التي تم الإبلاغ عنها أنها في الطريق إلى طالب. كان برقته أخ آخر غير شقيق للسلطان ... أنه رجل محترم و يدعى فهر الذي مركزه في الباطنه مثل مركز طارق في الداخلية ... بمعنى أنه أمير الباطنة. لقد كان فهر شجاعا و صلبا و و وطنيا متحمسا و لكنه يفتقر إلى قوة شخصية طارق و كان أيضا نوعا ما موضع يشك و ريبة من ممثلي الحكومة و رجال الجمارك و الذين من المفروض أن يشرف عليهم و لكنه كان مفيدا و متحركا و رفيقا طيبا و كان أيضا الشخص الوحيد على إمتداد المائتي ميل الذي يتحدث الإنجليزية و يبدو أنه حافظ علي سليما من الأذى.

كان مع جاسبر حماره و جمع مزيج من منفيين و مهربين إيرانيين و الذي منهم كون فرقة جنود خاصة به. كان هؤلاء الناس المتميزين أتباع زعيم إيراني (فارسي) تمرد على الشاه و هرب إلى المنفى ليستقر في عمان حيث إستقروا و أسسوا وسيلة عيش لهم معتبرة من تهريب البضائع و تجارة الرق و تجارة الأسلحة الغير مشروعة. لذلك كانوا مناسبين لهذه الوظيفة ... مهربون جهزوا لإصطياد مهربين. كانوا يعرفون جميع الطرق و الوسطاء و الجمالين و موظفي الجمارك الفاسدين. و كانوا أيضا و من دون شك موالين للسلطان الذي منحهم المأوى و الملاذ و هم كذلك يضمرون الكراهية العميقة و الحقد للعرب العمانيين الأصليين و هو أمر متبادل بين الطرفين .

و بهذا شكل و نظم و جهز جاسبر هؤلاء الرجال و زودهم بالسلاح و وزعهم إلى مجموعات و فرق و عين مسؤولين منهم ضباط و وكلاء ضباط و نشرهم على التلال متوثبين على الحدود حيث يمكنهم كشف أي حركة غير سليمة. في اليوم الذي وصلت فيه إصطادوا أحد الشيوخ المحليين المعتبرين الذي كان في طريقه إلى قريته قادما متسوقا من الشارقة متخذًا أحد الطرق المختصرة محاولا تجنب مركز الجمارك .

كان وريثا الزعيم الإيراني المتمرد شابان رائعان متوهجان يدعيا ميرزا و جان محمد . ميرزا الأكبر و كان طويلا و وسيما و ضخما و عندما يتحدث كأنه يملك الحكمة و معرفة كاهن. و كانت حركاته و تعاملاته مدروسة بدقة. كان يتحدث بنعومة و هدوء و يرتدي زيا قاتما و من الصعب فهم شخصيته . أما جان محمد فكان يبدو مثل الممثل الأسترالي (Errol Flynn) كان لديه شاربا أسودا يغمر وجهه و عيون و أسنان براقه و يرتدي زيا مثل الشيوخ في الأفلام مع بشت أبيض و غترة متطايره و محزما يتقاطع بالقرب من كتفيه به ثلاث أو أربع بنادق. أنه يبدو منقضا كالنسر اكثر من أنه يمشي و حديثه كبريق العاج و متبجح. لقد كان أقل تأثيرا و إنطباعا من ميرزا. انه يفتقر لحسابات ميرزا الرائعة و لكنه كان صاحب المظهر الأروع .

هذه الشخصيات عينت بشكل شرفي و منحت رتبة مقدم من قبل جاسبر و تقاسموا السلطة و النفوذ بينهم بوائم و محبة. لقد كانوا و معهم درزن أو إثنين من أتباعهم نواة جيشي الجديد.

في تلك الأثناء أنهى جاسبر آخر قطرة وسكي من كأسه و وضع السرج على حماره و توجه نحو الجبل صعودا و نزولا ليقابل زعيم قبيلة أخرى ليجند أفرادها.

جلست في كوخه المبني من سعف النخيل و تأملت في مهامى بذهول متزايد.

كان هنالك عدة أمور مثيرة يجب القيام بها و التي كان لدى جاسبر الوقت للبدء في إنجازها. الشحنة الأسطورية من أسلحة يجب العثور عليها و مصادرتها أو إثبات أن المعلومة كانت خطأ. القراصنة الإيرانيون (الفرس) يجب إعدادهم للجندية و تشجيعهم و تعليمهم النظام و إتباع القوانين. كل الخط الحدودي يجب إكتشافه و مسحه و معرفته و دراسته و معرفة الممرات و الطرق و يجب أيضا معرفة رجال الجمارك و حكام الأقاليم و المناطق و أعيان القرى و رجالها و التحقق من شخصياتهم و ولائهم و التحقيق معهم و معرفة توجهاتهم و آرائهم و إذا كان ممكن تفتيشهم و جعلهم يقفون على أطراف أصابع أرجلهم فمعظم الرجال معتادون على جلوس القرفصاء و على ركبتهم و إذا وقفوا وثبوا مثل الزنبرك. كل الشريط الساحلي يجب أن يراقب كلما أمكن و قراصنة ميرزا عليهم الإنتشار بقواربهم مع إعطائهم الصلاحية بإيقاف كل من يهرب السلاح و الرجال.

و لكن أهم مهمة من تلك المهام و التي كانت من الضروريات القصوى و الطارئة و التي لم يتم التعرض لها من قبل هي الإستخبارات. و لتطوير و إنشاء نظام مراقبة بالعين و الأذن و أن لا نكون نفاقاً بعمليات و هجمات طالب كما حصل لنا في عام ١٩٥٧ و بشاحنة صالح بن عيسى في عام ١٩٥٨ و لنتمكن من كشف مخططات العدو و تدفق الألغام المستمر و كذلك معرفة العدو من الصديق في تلك الوجوه الملتحية التي لا نعرف إن كانت تبسم أم تكشر لنا و هل هي صديقة لنا أم هي عدونا الحقيقي.

لقد كنا مشغولين جدا منذ أن حدث تمرد لرجال الإحتياط و تخصيص أفراد للقيام بتلك المهمة التي تحتاج إلى الوقت و كثير من الطاقة و العمل. كان مالكولم دينيسون و بركبته المجبرة قد بدأ بتلك المهمة منذ بعض الوقت و إستطاع أن يضرب جذور لذلك الأمر و لكنه رمى عكازيه يوما ما ليصبح قائد فرقة. و منذ ذلك الحين كان لدينا إتصال يمكن أن نقول مهمل مع العالم الآخر. إن ووترفيلد في بيت الفلج يتمتع بألية و القدرة على الإتصال بمكتب السلطان السري و لكن هذا كان له مفعولا فوريا ضئيلا و به الكثير من المعلومات المفبركة المبنية على الخيال و الكذب بشكل يدعو للإستغراب. كانت إتصالاتنا و جهودنا الذاتية مع حكام الولايات و رؤساء المناطق ليس لها جدوى و نفعا ، فعددهم يتناقص و برغم تأييدهم و ولائهم لنا كونهم لا يعرفون شيئا عن الأوضاع أو أن المعلومات التي يزودونا بها مبنية على الإشاعات و الأخبار الغير صحيحة ... لقد كان من يعرفون حقيقة الأوضاع ليسوا بأصدقائنا.

لقد تمت رؤية طالب في كثير من الأحيان متكررا بلباس نساء. و كان هذا بشكل يومي و تأتينا تقارير رسمية بذلك من أماكن متفرقة تبعد عنا بضعة أميال. لقد يأسنا منذ مدة في البحث عنه و واحدة فقط من مئات الشائعات كانت صحيحة. لقد كنا نتوقع أن المتمردين في الجبل يشقون طريقهم و يتسللون بخفة إلى أسفل الجبل قادمين من الشريحة حتى أنا كنا نتضرر أحيانا إستدعاء دورية مقاتلة خوفا من أن يتم خرق سلام و سكون وهمي. لقد أوهمنا أن طالب قد سلح نفسه بأسلحة أقوى من الذي كنا نعتقد ... مدافع البازوكا و مدافع ضد الدبابات التي أعطت سيارات كشافتنا لحظات عصيبة. لقد أمضينا الكثير من الوقت و الوقود في مطاردة قافلة تموين من السعودية العربية التي كانت من المفروض أن تكون محملة بشحنة من الأسلحة و الذخيرة مباشرة عبر الربع الخالي. لقد تبين لنا فيما بعد أنها قافلة لبدو مسالمين يحملون أحجار ملحية جلبوها من بحيرة جافة في أقصى غرب الربع الخالي. كانت نزوى تستلم تقارير بشكل دائم بأنه مجموعة من الرجال سيأتون في وقت معين من الليل عبر الطريق الفلاني لمهاجمة المعسكر. لقد كانوا يجهزون لإعداد كمين لبعض الوقت في مختلف الأماكن و لكنهم سرعان ما يتخلون عن خططهم. يأتي رجال و يهاجمون المعسكر و لكن ليس في الوقت الذي كنا نتوقع و ليس أيضا عبر الطريق الذي نتوقع منه الهجوم.

و أغلب الشائعات التي تثار بشكل دائم و مبالغ فيها منسوبة لأسماء معينة و التي تتكرر عبر مختلف الروايات و الشائعات حتى أن هذه الأسماء أصبحت توصف و تتسم و تقارن بالأبطال الأسطوريين. كان هناك القصير (AL Qassayer) القصير المرعب الخطير الذي نسب إليه شخصا كل لغم تم زرعه في طريقنا و كل جولة من إطلاق الرصاص تم تراشقها في إزكي. هل كان شخصية حقيقية و موجودة بالفعل ؟ ... تعجبنا و تساءلنا ؟ !!! ... أم كان نوعا من المخلوقات المتعددة و كبش فداء خرافي !!! ... أم شخصية سينمائية تم التخطيط لها و إعدادها و التعريف بها بذكاء و حذر !!! ... لقد أستغرق الأمر بعض الوقت حتى عرفنا حقيقة القصير و لكن بدأنا في الشك أنه أكثر من شخص و أن عدد المرات التي قيل لنا أننا قتلناه أو أنه فجر نفسه في موقع أحد مدافعنا أو في مصيدة الألغام أو في أحد ألغامه توحى أن جميع أفراد قبيلته قصار القامة. !!!

الشيء الذي يأسنا منه هو ببساطة أننا لا نعلم. بالرغم أننا كنا أكثر معلومية و جاهزية عن عام ١٩٥٧. لقد أكتشفنا و عن طريق الكثير من العمل الشاق و الخطير حقيقة الجبل الأخضر. لقد قطعنا طريقا طويلا و منذ تلك الأيام التي كنا نجلس فيها حول مصباح زيتي لنقرأ مقالات المكتشفين القدماء لبعضنا البعض. و لكننا نجهل أسماء الرجال الذين ضدنا عدا إسماء القادة الثلاثة و القصير. و لم نكن نعرف مطلقا أين يوجد هؤلاء القادة لنتمكن من إطلاق القنابل و القذائف على مخابهم ... و لم نعرف مطلقا في كل أرض عمان من يمكن الثقة به و من يمكن أن يكون عميلا سريا للإمام !!! ... لقد كنا ندور في حلقة مفرغة نطارد تقارير زائفة و شائعات ، نطلب مصائد الألغام ... نبحث عن مجموعات من المتمردين و لم تكن أي من الإخباريات و المعلومات صحيحة .

نفس الوضع المحزن ظهر في الباطنة الذي لم يكن أحسن حالا من الداخلية. بخلاف ما كان يعرفه فھر من معلومات

و ولائه و مهما كانت الدراية و الحرفة الميدانية لجندرمة الأفراد المخزنة في ذاكرتهم كنا أنا و جاسبر نعمل بما يشبه العمل في الظلام. و لكن فھر و لولائه و إخلاصه كان لدى الدراية الضئيلة بما تحتوي المعلومة الإستخباراتية و كيفية الإستفادة من الشائعات و أن المهربين إستطاعوا بحكمة الحفاظ على أسرار تجارتهم و تأمينها من العواقب و حفظ تلك الأسرار تحت عمائمهم .

إن الأمر ميؤوس منه و يبدو أنني أحتاج إلى الآلاف من رجال الشرطة الغير فاسدين أو أذن تسمع يمكن الإعتماد عليها و لم يكن عندي أي من ذلك و لكن الخيار الثاني كان يبدو حاجة أكثر واقعية ... ألا وهو الإذن و التنصت.

لقد قمت بالسياقة عبر الساحل شمالا و جنوبا ذهابا و إيابا مثل "البويو" ، بعض الأحيان مختنقا بواسطة الغبار المتطاير و أحيانا أخرى خاضعا لبرك الوحل و الطين .حاولت كسب ثقة شيوخ القبائل و التجار و الأجهزة العاملة التي عزت في زمن الحاجة لها. و بعد مضي عدة أيام إستطعت إنجاز و تحقيق نوعا من المودة و العلاقة الطيبة مع ميرزا و جان محمد و ذلك بالترحال و السفر معهم بشكل دائم و قضاء الليل معهم نتحدث و نتسامر بذكر الشائعات و ذلك في منزلهم المبني من سعف النخيل و الإقتسام معهم طعامهم الفارسي الشهي المكون من الدجاج المتبل و الخبز إلى أن عرضوا علي أن يقوموا بتعريقي على صديق أو صديقين لهم اللذين من الممكن أن يساعداني. لقد تم إعتماد مبلغ صغير لي لإستخدامه في مثل هذه المناسبات و قمت بزيارة هؤلاء الرجال. أحدهم كان يرتدي ملابس عثة يقبع في بيت شيخ معروف بعدائه للسلطان و لكنه قوي جدا لإتخاذ أي إجراء ضده. كان هذا الخادم القذر متجاوبا و لكن لا توجد لديه معلومات. أخذ النقود الورقية المقصفة و وعد بالإتصال بي مباشرة إذا سمع إي معلومة حمقاء و طائشة من سيدة. لم أشاهده مرة أخرى أبدا. الآخر كان شابا ذكيا يعمل سائقا لتاكسي الذي يمكنه من معرفة أشخاص معينين و يسمع الكثير من الشائعات اليومية. أستلم نقودي بوعود بوعود جمّة و كانت آخر مرة أراه فيها.

الشخص الثالث الذي عرفت عليه كان أسوأ و أكذب من الأثنين السابقين. كان هرما و كسولا و مزارعا بسيط و تاجرا أحيانا إنه متقلب المزاج و مثال على الطبقة الوسطى في ساحل الباطنة. لقد كان ينتمي لنفس القبيلة الفارسية التي ينتمي إليها جنودي و يتحدث العربية بشكل رديء و ولكنه ثقيلة مكسرة. لقد كان على الإطلاق ليس من نوع الأشخاص الذين يتطلعون على أسرار الإمام. و لكني بكل إحترام تقبلت معلوماته و أفكاره و أبديت له قصدي بشرح حذر غير واضح و سلمته آخر ما لدي من نقود ورقية و لكنه قال أنه لا يظن أنه سيكون مفيدا بالنسبة لي.....

بعد ذلك و في أحد الأيام طرق باب منزلي في صحار رجل مربى للجمال أشيب و أشعث الشعر ذو رائحة ننتة. لم أكن رأيته من قبل و لكنه إستضاف نفسه و جلس على إحدى الأرائك في مجلسي و قال لي قصة.

أنه على صلة بذلك الشخص الذي إستلم نقودي في المرة الثالثة. هل هذه الصلة كانت صلة قرابة أم صلة مديونية أم

عمل أم رق لم تكن هذه الصلة واضحة لدي. فبعد زيارتي أرسله زبونه إلى الشارقة و دبي ليمثل دور رجل لديه شحنة ألغام و أنه يبحث عن شخص ليساعده على نقلها إلى عمان. لقد إعتبرت هذه القصة الخرافية إهانة لأجهزة إستخباراتي و في كل المعاني لكلمة إهانة ، و لكن كنت حريصا على أن لا أتهمج عليه بكلام جارح ... و مضي في سرد قصته الرومانسية. يقول و يدعي أنه وجد شخصا سائقا لتاكسي و حتى أنه ذكر لي إسمه . كما ذكر أسماء أخرى للأشخاص الذين كانوا في الموقع بما فيهم راعي غنم من صحار الذي عليه إستلام الشحنة من سائق التاكسي و توزيعها. و أنه كان عليه أن يعود إلى الشارقة في تاريخ معين مسبقا و يتصل بشريكه في الجريمة مرة أخرى بعد ذلك سيتصل بي ليشرح لي أكثر. كان هناك فقط شيئا بسيطا في رحلته الأخيرة و الذي عليه إحضاره ألا و هي بندقيته نعم في الحقيقة بندقيته و التي يجب أن يمررها من خلال مركز الجمارك بشكل مكشوف و علني و لكن المسؤولين هناك كانوا من عدم الطيبة و قاموا بمصادرتها ... فهل يمكنني إعطائه وصل للأيأخذة إليهم و يستعيد بندقيته ؟

لقد كنت من الحق أن أدفعه بقوة خارج المنزل و لكنني كنت من الرقة و الأدب من أن أثور و أخرج عن طوري. قلت له بأني سأدرس طلبه إذا ذهب إلى الشارقة و أحضر لنا دليلا ماديا الذي يساعدنا على التحرك. كان الحزن ظاهرا عليه لقد أراد تهريب البندقية عبر المركز و أنه يستطيع الضحك علي بسهولة. تركته ينصرف مفكرا بعمق بفطنتي الذاتية و حسن نية ميرزا و جان محمد .

لم تمض أيام قليلة بعد ذلك إلا و تواردت الأحداث أن الحرب قد إنتهت. و أن الجبل الأخضر تحت يدي السلطان. و أتى ذلك الرجل الرث مرة قائلا قائلا أنه الآن ليس مجديا أن يذهب ثانية إلى الشارقة ن فهل له أن يستعيد بندقيته ؟ ... قلت له: لا. و كان هذا يبدو نهاية لبسي للثوب و الخنجر. غادرت الباطنة و وظيفتي المتهورة و عدت إلى عالم الجنديّة الإعتيادي في زمن السلم. إحتجت عاما كاملا لمعرفة أن ذلك الرجل كان صادقا في كلامه و أنني أضعت من بين يدي جوهرة ثمينة.

لقد سيطر على الجبل الأخضر بواسطة الطريق الوحيد الذي يمكن السيطرة عليه ... الطريق المستحيل. لقد صعدت قوات (SAS) الجبل عبر منحدر الجبل الأيمن من جانب الممر الذي سلكته مع جاسبر قبل نحو عام و نصف. و بعد رؤية التنوعات الجبلية و المنحدرات التي تحيط بالمثلث الجبلي قامت القوات بمد الحبال و زحفوا من خلالها بطريقة الفدائيين ليهبطوا و يسيطروا على الهضبة الجبلية ... و ها هم هناك. حيث معاقل و مراكز طالب المحاصرة و الطريق إلى الشريحة سالك.

لقد إنهارت المقاومة في الحال و في نفس الوقت الذي رأى فيه المدافعون قلعتهم العتيدة المنيعّة منذ آلاف السنين تم إكتساحها بطريقة غير إكترائية رابطة الجأش فقد تدفق الجنود و الحمير و رجال القبائل إلى أعلى و من كل الجانب.

لقد إنتهت الحرب.

و لكن كان هناك شيء بسيط واحد يدعو للقلق ، جزء واحد في أفق النصر.

أين سليمان بن حمير ؟ أين طالب ؟

و فوق كل شيء ... أين الإمام ؟

١١. الجنود المتمردون (Revolting Soldiery)

الأسابيع التي تلت النصر على الجبل الأخضر تفعم بسحابة من البهجة. أنها حقيقة أن الرجال الثلاثة السيئين قد أفلتوا من قبضتنا مرة أخرى و لكن الحصن الحصين لعمان أصبح بين أيدينا ... فماذا عساهم فاعلون ؟ كان ذلك الورم الوحشي سببا في كل آلامنا و أمراضنا لسنة و نصف رهيبة. و الآن و بعملية جراحية عبقرية إستطاع سمائي إزالته. لقد قال السلف أن من يسيطر على نزوى يسيطر على كل عمان و من يسيطر على الجبل الأخضر يسيطر على نزوى. و ها هم هناك بكل فخر على قمته ... جنود السلطان و حراس الإنقاذ و القوات الجوية الملكية الخاصة (SAS) و رجال القوات الخاصة المكلفة بقتل الثلاثي المرعب (T.O.S) و رجال القبائل و الحمير و الجميع. لقد شرب حلفاؤنا نخب النصر من كؤوسهم التي ملأت بالشراب و تجولوا بفخر في جميع أنحاء سفح الجبل ليروا السكان من المنتصر. الجيش البريطاني لم يحببوا أنفسهم لمواطني الجبل الأصليين و لأن هذا لم يكن هدفهم و واجبهم.

في أماكن أخرى أيضا قمنا و أصدقاؤنا بتفريغ بعض الأحاسيس الإنتقامية المترسبة في نفوسنا بلا و عي و مراعاة بدخول كل القرى التي لم يكن مسموح لنا دخولها من قبل بهيجان و عنف و قمنا بنهبها إنتقاما منها لإخفائها الأسلحة و لإيوائها الأئمة. متمتعين بنظرات أعدائنا المرعوبين الشبيه بنظرات البقر. تمت معاملة الشيوخ بأقل من إحترام فالذين جلسوا فوق الحواجز محايدين تم جرهم من لحاهم و التنكيل بهم في أكثر من حالة أما الذين كانوا إلى صف الإمام و بطريقة مكشوفة تم القبض عليهم و سجنهم أما أولئك الذين حاولوا مساعدتنا في الغالب تم إهمالهم و نسيانهم.

كانت تلك الأيام مفعمة بالنشوة و الفخر. كانت مثيرة و مثيرة جدا لزوارنا المؤقتين الذين شكلوا النصر. لقد كانوا أكثر إثارة و فضولا من أولئك الذين عاصروا و عاشوا الأحداث و الذين مثلنا و بسبب عقود عملنا إضطررنا للبقاء منذ ١٩٥٧ بينما رحل الأبطال المنتصرين. بقى دايفيد سمائي (David Smiley) و مايك ريبيد (Mike

Reed والضباط الآخرين الذين تم تعيينهم في جيشنا. و لكن **(SAS)** و الفرق الملحقة بها بدأوا بالمغادرة إلى الوطن (المملكة المتحدة) بعد أن أنجزوا و عاقبوا بكل بطولة و جسارة الجبل الأخضر و بعد أن طهروا قرى الجبل من المتمردين. أي شيء مشابه لأغسطس ١٩٥٧ تم إهماله. لقد إنتصرنا و سيطرنا على الجبل. كولين ماكسويل **(Colin Maxwell)** ذهب ليعيش في الشريحة بوظيفة وسيط مقيم و بهذه الوظيفة الصعبة التي يحاول بها إغراء سكان الجبل و كسب ودهم و تحويل ولاثهم عن ذلك الشيطان العجوز الراض الذي كان زعيم قبيلتهم و محاولا إلحاقهم إلى ذلك الطاغية البعيد الذي هو سلطانهم إسميا فقط ... لقد قوبلت مهمته بنجاح باهر.

هذه المرة إنضمت إلى مايك ريد في كتبية مسقط واضعا على رأسي المعارض قبعة أرجوانية على قمتها "فطريات" قرمزية. أما جاسبر عاد إلى قراصنته في صحار. كما إني إضطرت إلى حلق لحيتي التي ربيتها عندما كنت و جاسبر نقضي معظم وقتنا في الجبل و ذلك تلبية لما يسمى العسكرية. كانت لحية جاسبر كالحقش الأسود و كانت كثيفة أكثر من لحيتي و لكن في النهاية كان عليه حلقتها. و جب علينا الآن أن لا نكون متهورين متسرعين متحمسين. يجب علينا أن نكون ضباطا ملتزمين في جيش حقيقي و أن نكون على قدر المسؤولية. و هنا كانت قبعتي الأسكتلندية نوعا من التناقض و المغالطة.

كان مايك ريد أحد الرجال القلائل الذين قابلتهم في الجيش البريطاني أو جيش السلطان. لقد كانت دائما شيئا غامضا منذ أن وضعت الزي العسكري على جسدي و أنا في سن السابعة عشر ألا وهي أنه كيف يكون العديد من القيادات العسكرية يجدون أنه فوق صلاحياتهم أن تكون كفؤا و مثابرا و مستحقا للترقية دون أن تكون غير سعيدا. و لذلك كانت فرصة مناسبة و سعيدة أن تجد قائدا الذي في كل الأحوال مثالا على كيف أن يكون القائد و هو أيضا كان رجلا لطيفا مهذبا و جذابا و صاحب تأثير موحى و كذلك محترما. كذلك كان مايك ريد و مثله كان أريك جونسون. لقد وجدت أنه من السهولة الإنصياع لأوامر و قيادة مثل هؤلاء الرجال مقارنة بالآخرين الذين و بكل أسف لا يطمحون إلا أن يكونوا في الرتب العليا. ربما هذا الإحساس الغريب يفسر لماذا لا أنتمي إلى أي نوع من الجيوش على الإطلاق.

كتبية مايك ريد كانت مسؤولة عن الساحل و المدخل الشرقي للجبل. أرسلني إلى العوابي على رأس فرقة مكونة من جنود بلوش مستجدين مباشرة من ميدان التجنيد يتحدثون فقط لغتهم الخاصة التي لم أتقنها بالرغم من الكتاب المتآكل بواسطة الفئران الذي أحضرته من لندن. لقد زودني بضابطين بريطانيين ممتازين لمساعدتي و اللذين كانا لديهما الرغبة و الطموح للمساعدة و التعلم و كذلك ضابط **(Sergeant-major)** سمين لا يعرف هل هو رجل أم أنثى كان أيضا بلوشيا و الذي كان من حسن الحظ يعرف إحدى لغات الإنسان المعروفة ... العربية. لم تكن لدينا مهمة قتالية محددة. حيث يبدو أنه لا يوجد داع لمثل تلك العمليات و أن الوقت الآن للتدريب و تدريس تلك الشحنات من المجندين التي تأتي بها السفن من جوارر لبناء وحدة في جيش السلطان و التي لم تكن موجودة من قبل ألا وهي قوة أمن مدربة تدريباً جيداً.

أن العوابي هي إحدى المعاقل القوية ذات الطابع التاريخي الإستراتيجي في عمان. تقع على الجانب المتجه إلى البحر من الجبل الأخضر حيث يوجد فقط مدخلان مهمان يؤديان إلى أعلى سفح الجبل على طول الخط. و هنا جوانب الجبل لا ترتفع بشكل حاد مباشر و لكن تتكون من نتوءات جبلية مكونة من صخور و مخلفات حمم بركانية و التي لو لم يكن الجبل الأخضر أعلى منها لأعتبرت بنفسها سلسلة جبلية مستقلة. و هذه النتوءات الجبلية يتخللها أيضا ممرين أو ثلاثة ممرات. العوابي تمتد حيث يلتقي هذين الشريانيين المهمين و بين التلال السوداء الممتدة لتلتقي مكونة منفذا إلى سفح الجبل.

أما الوادي كله عبارة عن واد ضيقة تتفرع منها وديان صغيرة محصورة بجلاميد و جبال و يختلف طبيعته عن ذلك الجانب من الجبل المطل على الداخلية. العوابي تحتوي على قرى كاملة و أن السيارات كما أخبرنا منذ عام تستطيع العبور بسهولة إلى عمق الوادي. أما الوادي في القاع فيلتف إلى اليمين بزواوية قائمة ليمتد مسافات إلى قعر السفح الجبلي و هنالك تمتد قرى تشكل عقدا متواصلا موصولة بسلام متعرجة إلى قمة الحائط من جانب الوادي .يبلغ طول ممر الوادي نحو عشرين ميلا.

و في حلق الوادي تقف قلعة العوابي الصغيرة ذات الشكل المربع بلونها الأصفر الطيني و يحيط بها أيضا بيوت طينية ممتدة عبر بساط أخضر من أشجار النخيل و ينبوعين من الماء (الأفلاج). هذه القلعة الصغيرة كانت منزلا لحاكم العوابي رجل ريفي لطيف بسيط الذي كان يعرض أظافره حتى العظام و ليس لديه أدنى فكرة عما يجري. تطل القلعة و تسيطر على القناة المائية التي حافظت على قرية العوابي و إستمراريتها في الحياة. ان هذه قطعة رائعة من مخلفات هندسة ما قبل التاريخ. تنبثق الساقية من نفق ينشق من صخور الجبل الصلدة ... الله وحده يعلم كيف إستطاع البناؤون إكتشاف النبع بتحريك قواعد الرماح نحو تلك الصخور الصلدة لشقها .بعد ذلك يختفي الماء بسرعة أسفل الحفرة بشكل عمودي مثل البئر. عبر الجانب الآخر من الوادي يوجب بئر ماء آخر حيث يتجمع فيه نفس الماء المتدفق من البئر الآخر ليشق دريئه نحو القرية ... إنها مضخة متكاملة. لا يوجد طريق آخر لعبور لعبور ممر الوادي لأنه يتم تدفق الماء بقوة كلما كانت هناك أمطار قوية في الجبل الأمر الذي يسيح معه كل شيء في طريقه.

نفس النظام يزود نزوى و الرستاق و عبري بالماء و كل مراكز تجمع السكان و المناطق الريفية المأهولة. أن سكان عمان الذين قطنوها قبل العرب الذين بنوا المدرجات التي تقود إلى أعلى الجبل الأخضر الذين أيضا بنوا هذه المسارات المائية الرائعة و التي إلى يومنا هذا تزود جميع الأراضي العمانية بالماء و لولاهم لكانت البلاد عبارة عن صحراء غير مأهولة حيث أن مصادر المياه الطبيعية غير متوفرة و أن الحصول على الماء من الجبل الأخضر الندي غير ممكن.

نحن الجنود لم نعيش في القلعة بل في خيام و عرشان وأكواخ حولها. لقد كانت النتوءات الجبلية و إنحداراتها تواجه الناحية الخلفية من خيمتي و لذلك قمنا و جنودنا بممارسة الرياضة و فن الرماية و تعليمهم التكتيكات الحربية

و صعود التلال و الجبال و نقل البضاعة في الميدان. و كان هنالك سهلا تم تسويته و تطهيره من الحجارة و ترتيبه أثناء حملة هبوط الطائرات و إستخدمنا هذا للتدريب على فنون الطابور العسكري. مثل ما كان الحال في الطريف عام ١٩٥٥. كان علي البدء من الصفر مع هؤلاء الجنود الجدد المستجدين و مع فرقة جديدة مثيرة و لكن هؤلاء كانوا مختلفين ... إنهم بلوش أتوا للتو من بلوشستان.

بمرور الوقت لقد رأيت الكثير من تصرفات جنودنا و هم يتعرضون لنار العدو. لقد قضيت الكثير من الأيام في وقت فراغي التأمل في هذا الشأن. و قد خرجت بإستنتاج أنه لم نولي الإهتمام الكامل للربط بين أمور الرعاية الإجتماعية التي توارثها هؤلاء الجنود عن أسلافهم و بين الطريقة الأوروبية لشن الحرب و التي حاولنا فرضها عليهم. أن المشكلة كانت شبيهة بتلك التي واجهناها عند بداية تأسيسنا لجندرية ساحل عمان محاولين تدريب بدو بدائيين غير متحضرين و رعاة أغنام. كانت الصعوبة في جندرية ساحل عمان تكمن في الإنضباطية و التقيد بسلوك الجندية و قواعدها أما هنا فتكمن في الروح القتالية.

فبالنسبة للعربي أو البلوشي هنالك طريقة واحدة لخوض معركة ألا و هي أن يتبسط سلاحه و يختبئ خلف صخرة و يبدأ بإطلاق النار نحو عدوه. عندما يرد عدوه بإطلاق النار يختبئ و عندما يتوقف عدوه يبدأ بالتصويب و إطلاق النار مرة أخرى. يستمر هذا الحال حتى حلول الظلام أو يكون أحد الطرفين نفذ ذخيرته. أن فكرة الخروج من المخبأ و التوجه نحو الشخص الذي يطلق النار عليه لم تطرأ على البال مطلقا. و عندما يكون خلف الصخرة يظل ساكنا دون حراك حتى لو أنه وقع تحت قصف الطائرات لظنه أنه سيكون سالما هناك من أي مكان آخر.

لقد لاحظت ذلك في الدوريات الأولية في الجبل. لقد كانوا يطلقون النار علينا و نحن على بعد مئات الياردات لمجرد إشعارنا أنهم هناك إذا كانت لدينا خطط هجومية لملاقاتهم. لقد كان بعيدا جدا فلا يستطيع إيذاءنا و على كل حال كنا نضيع الوقت و لذلك إنتصبت واقفا عازما المضي قدما. لقد نظر إلي رجالي و كأني رجل مجنون و إحتاج الأمر بعض التعبير و التوضيح لإثبات أنه لا ضير من التقدم. إنهم ليسوا جبناء و لكنهم لا يتصرفون ذلك التصرف إذا ما كان أحد يطلق عليهم النار. بعض الأحيان عندما يطلق عليهم بشكل كثيف يتصرفون بشكل غير مبال و كأنهم جنود موسميين و يختبئون بسرعة إذا لا حظوا أن الرصاصة قريبة منهم. و لكم هذه العادة المتوارثة مضيعة للوقت لأنها يجب التغلب عليها عن تدريب أي جندي مستجد.

إن هذا يعتبر تراجع كبير في القدرات لأي جيش و خصوصا عندما يكون من المفروض متخذا الجانب الهجومي و ليس الجانب الوقائي. لقد كان رجال طالب لديهم نفس نقطة الضعف هذه و لكنهم كانوا في القمة و أنهم يقومون بالمهاجمة حتى حلول الليل.

و من أجل تشجيع الجنود و تدريبهم و تخليهم عن هذا المفهوم قمت بتبني أسلوب جديد للتدريب لهؤلاء المجندين

الجدد الذين تجمعوا في العوابي. لقد كان ليس كله من إختراعي و لكن التأكيد و الأسلوب الذي أصريت على تنفيذه كان غير مسبق و معمول به. ربما كانت تجربة غير مجدية لأنه فرقتي في العوابي ربما لن تذهب مطلقا للقتال و لذلك لست أدري أن هذه التجربة نجحت أم لا.

لقد تم إقتباس هذه الفكرة من تدريب الجيش في الباطنة. سلسلة من التحركات العسكرية و إطلاق المدافع دفع بها نحو هؤلاء الرجال و بشكل متكرر و مرعب حتى شعر بأن الخوف بدأ يرتادهم و أن أقدامهم ترتعش و كان الدافع لذلك و في تجربتي و درسي هو إطلاق النار و إطلاقه بشكل قريب من تواجد الجنود. لقد جربت هذه التجربة من قبل مع جنودي في إزكي حيث تسلم أحد الجنود مدعاة إثارته و حثه لإطلاق النار و التقدم إلى الإمام من جانب كتفه الخلفي و لكنه ظن أننا فعلنا ذلك عن قصد عقابا له على سكونه و هدوئه و مضى دون أي رد فعل سوى الرجوع إلى التدريب بكل حذر وحيطة. و لذلك لم يكن علي الاعتذار للجندي أو لمدربه.

كانت هذه اللعبة تهدف إلى تعليم الجندي كيفية إطلاق النار عن قرب و أن يكون في خطر محقق و قمنا بإطلاق الرصاص قريبا من رأسه أو وركه و كان يجب عليه أن لا يبدي أي ردة فعل و أن يبقى صامدا حتى يتلقى أوامر أخرى و كان علينا أن نقوم بهذا التدريب و تعليمه كيفية تجنب إطلاق الرصاص مع التقدم نحو الهدف و العدو بحركات أشبه ما تكون بالميكانيكية و التأكد أنها ذات طابع عدواني تساعد على تفهقر العدو .

بدأنا هذا التدريب في السهل الذي أنشئ لنزول الطائرات و في الدروس الإبتدائية إستخدمنا صفارات أو بعض الأجهزة التي تثير إنتباه الجندي إلى أن يكونوا جاهزين للتدريب الواقعي بالذخيرة الحية. تعلم ضابطي المنهج مني و نفذوه في الخارج مع الجنود مستخدمين الصفارات و بعض الحركات الجسدية مؤشرين بعصيتهم و أنابيبهم من أجل توجيه الجنود للقيام بأداء أفضل.

كل ما إستطاعوا إجازاه مع هؤلاء الجنود هو ... تمرد.

ها أنا الآن أعاود نفس الوضع و الحالة متذكرا تمرد الجنود في الطريف. و لكن في الطريف كان لدي جنود أستطيع التحدث و التفاهم معهم حيث أن درجة إتقاني للغة العربية تمكنني من التواصل مع جنودي و إستطيع التفاهم مع الجنود الغير منضبطين و التأكد من ما يجول في خواطرهم. و لكن هنا في العوابي كانت وصلات تفاهمي الوحيدة مع أرواح هؤلاء المتمردين هي مفردات بدائية من مخرجات أحرف جهورية الصوت و التي إستطعت إستيعابها من كتاب "قواعد اللغة البلوشية" و الرقيب أول الم*** الذي كانت لغته العربية أفضل بقليل من إتقاني للغة البلوشية.

لقد كانوا طيبين مثل الذهب كل الصباح. و بدأ التمرد عند إنتهاء طابور الظهيرة. لقد كنت جالسا في كوشي المبني من السعف متقاسما إحتساء شراب الجن مع الضابطيين الإنجليزيين قبل وجبة الغداء غير منتبهين للأصوات المبهمة القادمة من ناحية مواقع الجنود و فجأة إزداد تعالي الأصوات بشكل غير منظم و بتحركات تدل على الإمتعاض و عدم

الرضى. قبل دقائق كانت تعابير غضب و حنق و كان زميلي الضابطين بهما نوع من الفضول و الريبة أن لم يكن الحيلة والحذر ... علمت الآن ماذا يجري فتجرت شراب الجن بسرعة و سمحت بعض الوقت للرقيب الأول ليتمكن من التدخل في منتصف العاصفة و إفادتي ما المشكلة.

و بعد وقت قصير أقبل إلي سمين و رسمي و ألقى التحية و بدأ في الإفادة بينما كانت أصوات و جعجة المتخاصمين تتزايد بشكل مخيف من مكان تواجد الجنود قائلا: أن الجنود لا يريدون طابور. و رفعنا حواجبنا الستة في عدم موافقة متزامنة. و بدأ أكثر وضوحا عندما واصل حديثه: يقول الجنود لا طابور ... أبدا لا طابور. و علت أصوات المجموعة الغير ذكية المشتكية مدعمة قول الرقيب أول ... و حان الوقت لأسأله لماذا ؟

كان الرقيب الأول يبدو منهكا و يعرق بشدة نتيجة محاولاته و جهوده لمعرفة السبب الذي تبين أن أحد الضابطين قام بضرب أحد الجنود الأمر الذي لم نر فيه أي عمل بربري من جانبنا و لكنه كان عمل رتيب ممل لفك خيوط و حل رواية الرقيب الأول.

إنها كانت طريقة التدريب المبتدعة التي يحتج عليها بعد الكثير من التداول و التحقيق و التي تهدف إلى بعث روح الحماسة و القتال في نفوس هؤلاء المجندين. إنه صحيح أن الضابطين قاما ببعض الإيماءات و الحركات لتشجيعهم على التدريب و أنهما قاما بتلامس جسدي مع أحد الرجال و لكن هذا كان تذكرا سخيلا فإنه حتى في الجيش البريطاني يمكن أن يكون المدرب يعطون أوامرهم و يلمسون أحيانا الجنود بالعصى أو باليد لتأكيد القسم أو الحث من أجل جهد أكثر. و كان هذا الأمر يحدث معنا بشكل يومي و ذلك لتحسين وضع الجسم الذي خارج التناسق أو للإشارة إلى رجل الذي قد يكون اسمه جوم داد والي داد عندما يحس المرء بالسخافة في إستعمال تلك المعاني.

و لكن كان هنالك المزيد من الأحداث. إن الرقيب الأول أصبح من كثرة التحرك بين الطرفين كالجمرة الحمراء. أن الحادث الذي يرويه بخجل و همس و الذي تم التذمر منه يتعلق بجزء من أعضاء الجسم ألا و هو.....

فكرة مخيفة قفزت في الحال في مخيلتي و في الحال إختفت. إن رجالي من الشباب الأشداء الأقوياء الذين يستجيبون للأنتى الماعز أكثر من أن يستجيبوا لذكر بلوشي.

الرقيب الأول لاحظ توجمي للدقائق و سارع لتأكيد الكلام لي بالتوضيح الحركي أكثر من التعبير الكلامي مشيرا إلى أن ضابط التدريب قام بوخز أحد الجنود في مؤخرته بالعصى من أجل مساعدته ليكون في الوضع الإنبطاحي.

بينما كان صوت الضوضاء متعاليا من جانب الرجال من غير وجود دليل لإسكاته قمت و بقوة و حسم تجنب نظرات كلا ضابطي خوفا من الإفراط بضحك عميق. حيث أنه كان من الواضح أن مثل هذا الوضع من التدريب لم يحدث

مرة واحدة و لكن المئات من المرات و أن ضربات رجالي في المؤخرة في إزكي لم تتسبب في أي تمرد. أخبرت الرقيب أول ليحضر لي متحدث بإسم الجنود لأتفاهم معه حول الموضوع ... ذهب مترنحا.

و مضت فترات متقطعة قضاها ذهابا و إيابا محاولا التفاهم معهم. في بادئ الأمر قالوا لن يتفاوضوا مع أحد و لكن بعد ذلك قالوا أنهم سيحضرون جميعهم للتفاوض ... الجميع و إلا لا ... و بعد ذلك طلبوا تعهد خطي بضمان سلامة بطلهم ... و بذلك تم تنفيذ طلبهم و أخيرا وجدت نفسي جالسا على طاولتي مواجهها العيون المتحدية لمندوب المتمردين و طلبت منه التحدث بأي لغة يختارها.

... و بذلك تم تنفيذ طلبهم و أخيرا وجدت نفسي جالسا على طاولتي مواجهها العيون المتحدية لمندوب المتمردين و طلبت منه التحدث بأي لغة يختارها.

لراحتي تحدث بالعربية و لكن بلكنة شبيهة بالرقيب أول الذي كان واقفا بوجوم خلف كتفي. و من فمه بدأ سيل من الشكاوى متذكرا بأن جميع الجنود بداخلهم معدنهم طيب و عاطفيين و أنهم على إستعداد للتسامح و يحاولون الصلح و الوفاق ... و لكن هؤلاء البلوش الجلفين بسطاء لدرجة أنهم لا يفهمون معنى و قدسية و إنضباطية الجندية.

الطعام و الأسرة و ساعات العمل و الرقيب الأول و الطقس الحار و التدريب الشديد و ليس لديهم أدوات لتنظيف بنادقهم (قمت بتدوين هذه الملاحظة) الرقيب أول و ساعات العمل و الطعام. لقد كانت مثل العلاج النفسي أو التطهير الداخلي و بدأت أشعر أن الرجل يبدو أكثر سعادة مع كل عبارة تذمر و شكوى. و لكن كانت الضوضاء مستمرة في الخارج و فجأة تذكر المتحدث واجباته نحو أصدقائه. سوف لا يحضرون الطابور حتى طرد الضابط الذي تسبب في الإشكالية ... قال لي و بكل حزن.

هذه لأول مرة يذكر هذا الأمر على الإطلاق و طلبت منه أن يكون أكثر وضوحا.

و لكنني فشلت و لم أعرف مطلقا لماذا إعترضوا عليه لقد كانت الوحزة في الخلف مع العصي ذريعة و لكنها كانت حجة واضحة و صريحة. و حيث أن الضباط محميون قضائيا من رجالهم كذلك الجنود محميون قضائيا من أي إعتداء فني من قبل رؤسائهم. و لكن هذا حماقة و تفاهة و لكن هذا كل ما حصلت عليه.

رددت بهدوء و ببطئ و ذلك للتأكد أن الرجل فهمني و ينقل ما قلت له. أن ضابطي سيبقى إلى أن أقرر أنا طرده و لن يكون بناء على طلب من الجنود و أن الرجال عليهم العودة إلى العمل و فق النظام و الترتيبات و إلا سوف يتم التخلص منهم و طردهم و سوف لن يزودوا بالطعام من أي مطبخ و سوف يكون لا طعام بعد أن إلتهموا المخزون و الذي كان من حسن الحظ جاهزا لإعادة تموينه. و سوف يتركون معزولين هنا في العوابي غرباء في أرض عدوة و سوف يكون جميع سكان الأراضي التي يحكمها السلطان ضدهم (كان هذا يهدف لتحويل توجهاتهم في الوقت الراهن

و تخفيفا للهجتي القوية معه) و سوف أستمر مع ضباطي في تدريب الطابور مع الجنود الذين يختارون البقاء في العمل و لكن من يرفع يده ضدنا سوف يتم إصطياده .. إلخ. تم صرف الرجل القلق برفقة الرقيب الأول و ذلك ليتناقش و ينقل وجهة نظري مع رفاقه.

لقد كان من السخرية مثل تمرد الطريف و لكنه له دوي قوي. و كنا الأربعة بما فينا الرقيب الأول الذي نعتقد أنه ظل غير متأثرا بالجنود معزولين و قليلين و وحيدين في عمق عمان. و إذا كانت هنالك نوعا من الريبة و الحزن فكانت معارضتي ستفشل و لكننا سرعان ما لاحظنا هدوء ضوضاء المتمردين و كان هناك بعض الأسئلة و الأجوبة المتزامنة و بعض المعارضين ... و لكن هنالك إتفاق.

و بعد ذلك وضعت برنامجا لما بعد التمرد. و قد قال الرجال الحكماء دائما إعطي الرجال أي شيء غير مهم أو أي شيء تعتقد أنه تم تدارسه بدقة. و لا تخضع لأي طلب بحجة ملفقة ناتج عن تمرد. و في المبدأ إختار نخبة صغيرة بعدد كاف من التائبين و إخضعهم للعقاب و إعفو عن الباقي إذا أمكن مع دموع تنهال على خديك.

أمرت بإجراء الإصلاحات في الأسرة و السكن و تحسين الأكل و بقي الضباط و تم تغريم زعماء المتمردين أو شلة قيادتهم و عدنا جميعا للعمل كأصدقاء حميمين .البلوش يتعلمون كيف يجب عليهم أن يكونوا جنودا و تم تعليمهم أيضا على مختلف نواحي فنون العسكرية بما في ذلك كيف يشتكون و يتذمرون.

١٢. القصير المربع (The Dreaded Shorty)

جلس "Groock" مزيلا عمامته الشبيهة بالقبعة و أخذ يحك صلته الشبيهة بالقبة جالسا على أريكة و مهويا وجهه من الحر و مظهرا أصابع رجله الشبيه بالقرن ، و أخذ يتحدث متذمرا.

الأصابع المعبرة فسرت ماذا كان يحاول قوله. لقد مضى وقت طويل منذ أن إلتقينا آخر مرة ... نعم أنه يتذكر تلك الأيام الشديدة الحرارة في محضة ... لا توجد أخبار. أن عودة جيش السلطان إلى البريمي و على الأقل عندما كنت هناك لأمر مرحب به.

لمدة طويلة كان الرجل العجوز نوعا من الأعشاب الضارة في حديقة. رافعا علم سلطانه كأنه أمير "سان مارينو" محاطا بكل الإدعاءات المزعومة المترتبة عن العجرفة و الغطرسة التي فرضها زايد على البريمي مدعوما كما كان من قبل فرقة شهيرة من كشافة ساحل عمان. أما المسكين "Groock" العجوز لم يكن لديه أحد سوى خادمه المجنون و حراسه الغير محبوبين. جلس وحيدا في قصر تركي بن عطيشان القديم يحكم تقريبا مقاطعة غير مأهولة حيث أن جميع الرجال المؤثرين و ذوي المكانة غادروا مع تركي و قد سمح للقلعة للتآكل و الإندثار نتيجة لعقوبة

الإهمال التي فرضها السلطان على القرى التي تمردت عليه. كل ما حوله و كأنها مؤامرة مخطط لها و متعمدة تظهر الغنى و الإزدهار للقرى و المزارع التابعة "لأبوظبي" في تلك الواحة. فالناس هناك يتمخضرون كاللوردات في ملابس بيضاء و عمام و أغطية رأس من الحرير كما أنه هناك عددا من السيارات الخاصة. فبريمي زايد على حافة الإزدهار و التنمية. هذه أيام الطفرة النفطية في أبوظبي. و لكن في الجزء التابع للسلطان كانت السيارات المتواجدة منتشرة فقط بشكل لا أمل فيه خارج محلات الميكانيكيين ، أما مزارع النخيل فكانت مقبرة للسكراب و أكبر شخصية منتفذة هي **"Grock"**

لقد كان نوعا من الحلم التفاؤلي لأيام ما بعد الحرب فبعد أن تم تدريب فرقتي تدريبا جيدا تم إرسالها من العوابي إلى الشمال لتظهر تواجد قوات السلطان في البريمي حيث أنه و منذ مدة طويلة لم يتم إرسال جنود هناك عدا ضباط إداريين. و بينما كنا حول البريمي إستلمنا مسؤولية كتيبة عبري حيث و لمدة سنتين كانت تحت إدارة الكشافة الذين سمحوا لنا بتركيز قواتنا على نواحي الجبل. أما الآن فقد عدنا و كانت لحظة إنتصار. فكل جانب الجبل الأخضر المتطل على البحر تم إخلائه من الجنود ... فلماذا نحتاج جنود الآن هناك ؟ فبعض مهربي "جاسبر" يستطيعون القيام بمهام الجندرية و مراقبة التحركات في تلك المناطق. و السبب الوحيد لإبقاء كتيبة الحدود الشمالية فرقتها في إزكي بسبب أنه من الغير رافة و الأدب التخلي عن الحائط الجميل. لقد كانت من الأهمية لنا العودة إلى قواعدنا في كتيبة الحدود الشمالية و لكن في الحقيقة و بتفصيل موجز أن من ذهب هناك هي كتيبة مسقط.

كان **"Grock"** و لمدة طويلة يصرخ طالبا من الخادم إحضار المرطبات و لكن لم يكن هناك جواب .و أخذ يومى و يهمس لاعنا و ماسحا لحيته توجه إلى الخارج و عاد بعد دقائق محضرا علبة عصير الأناناس و مفتاح للعبة و التي كان يحاول إستخدامها لفتح اللعبة من غير جدوى .جلس و تنهد و سلم اللعبة لي للتداول معها. بعد ذلك قمنا بتناول الفاكهة. إن سكان منزل **"Grock"** مدعاة للقلق و أن منهم من هو مهرج ... و لكن **"Grock"** كان بنفس شخصيته المرحّة.

لقد كانت مهمتي ترتيب مقاول لتموين معسكرنا باللحم و الحطب و الإحتياجات الأخرى. و كذلك لبناء و لإعادة ترتيب المنزل و المباني الأخرى التي خصصت لنا إلى معسكر جنود.

قال **"Grock"** أعرف الرجل المناسب ... مساعدي هو الرجل المناسب لهذه المهمة ، و صرخ مناديا و حضر رجل ضئيل الحجم مثل "الشنجوب" من غرفة أخرى متقربا من الجوانب لون وجهه كلون الطين و عيونه مريبة مخيفة.

مساعدي القصير ... عرفني **"Grock"** على هذا المخلوق الشبيه بالصدفيات بكل عاطفة و تأثر.

مساعدي القصير ... عرفني **"Grock"** على هذا المخلوق الشبيه بالصدفيات بكل عاطفة و تأثر .

"القصير" ... مضت برهة قصيرة منذهلا و لكن هذا اللقب الشائع للعرب القصار القائمة هو أيضا لقب مماثل يستخدم في إنجلترا. صافحت يده بكل خوف و رهبة و مضينا للتحدث حول العمل.

"القصير" كان ذو قيمة و فائدة لا توصف و أصبحنا صديقين حميمين. كان يعرف الجميع و يستطيع إنجاز أي شيء يطلب منه و لست أدري كيف ستكون أمورنا من دونه.

لقد تمركزت نصف فرقتي تحت قيادة أحد الضباط (كابيتين) في عبري على بعد نحو مائة ميل إلى الجنوب من البريمي حيث قاموا بإصلاح مخلفات كشافة ساحل عمان التي تركت الموقع في حالة يرثى لها و كذلك لجعلهم يتأقلمون مع المنطقة. أنه من المعلوم و منذ حصار الطراودة أنه لم تتسلم أي وحدة موقعا من وحدة أخرى من غير أن تجد نفسها أنها ترث حالة من الفوضى المقيتة و أن هذا عادة عسكرية متوارثة أن تتسلم وحدة عسكرية موقعا من وحدة أخرى بوضع غير نظيف و سليم و لذلك كان علينا تنظيف الموقع بعد خلوه من أولئك الجنود الشبه الإداريين.

في تلك أثناء جهزت مقرّي الرئيس في البريمي و برفقتي الرقيب أول السمين و الضباط (الكابيتين) الآخر. و كنت مشغولا بشكل مستمر لعدة أسابيع لتحويل البيت المبني من الطابوق الطيني و الحوش إلى موقع عسكري. لقد كنا مهتمين لتجهيز أنفسنا بموردنا المائي الخاص و نتيجة لبحثنا في المكان وجدنا بئر ماء داخل المبنى الرئيسي. قام "القصير" بالإستعانة بشخص شبيه بإنسان الكهف متخصص بحفر الآبار القديمة.

لقد قام هذا الرجل بالنزول إلى حفرة البئر شبه عاري. سألته عن إسمه فأجاب: "بدو" و رمشت عيوني مجيبه: "بدو" ؟ ... فرد: "بدو بن سفوف" و إستمر بالحفر بينما تعجبت أنا من إسمه. لقد تعرفت و سمعت العديد من الأسماء الرنانة من خلال ترحالي فقد قابلت فيما بعد رجال فخورين الذين يحفرون بأدوات مثل مثل "هزهاز" و "حيض الحوض" و "دب" و حتى "طماطم" و لكن بدو بن سفوف يبقى شخصيتي المفضلة. كان يقضي اليوم بعد الآخر في قاع البئر يحفر و يخرج الركام و الزباله من البئر التي كانت تستخدم كمزبلة من قبل الأشخاص الذين كاموا قبلنا الذين كانوا مذكرا و مقتعا نفسي ليسوا سوى كشافة ساحل عمان. شاحنة إثر شاحنة نقلت تلك النفائات إلى الصحراء للتخلص منها و تدريجيا بدأت التربة بالنعومة و الرطوبة و بعد ذلك قطرات الماء. "بدو عثر على الماء.

أدلى "بدو" حبله للشحنة الأخيرة. هو الآن يعمل في مستوى الماء بعمق صدره و كان عليه أن يغمس رأسه تحت كميات من النفائات. قطعة واحدة بقت ... تردد صوته عبر جدران البئر. كان هناك رشّة من الماء و خرير الماء و شد على الحبل. سحبنا الحبل و رأينا الدلو و نهاية الحبل. قمنا بدفع مبلغ بسخاء "لبدو" و شكرناه و عدنا نستخدم ماء البئر.

بخلاف إجازتي و مهمتي في صحار لقد كانت هذه المرة الأولى التي أسكن بها في منزل منذ حوالي سنتين. و كان

هذا يبدو طبيعيا و مفيدا بأن أقوم بتأملّي اليومي في الخلاء المعطر و تحت السماء الصافية بدلا من أن أوصد نفسي في حجرة مغلقة. كما أنه من الناحية النفسية مفيدا لي التعود على كيفية الجلوس على الطريقة العربية بتقصيف الركبة و الجلوس على الأرض الأمر الذي منحني راحة نفسية و إحياء مريح. ظاهرة واحدة في البريمي التي تجعلها مكانا للرعاية الصحية و المحافظة على سلامة الجسم من كل المدن العربية بخلاف التغيير اليومي في كتاباتها الرملية هو خفافسها المتحمسة المثابرة. هذه المخلوقات المثابرة المشاكسة التي ما أن يكون الإنسان آخذا الموضع التقليدي لإخراج البراز إلا قدمت هذه المخلوقات بشكل منظم منسق حاملة معها في طريق عودتها ما تستطيع حملة تاركة لا أثر من ما خلف منظمة المكان متجهة إلى الصحراء بشكل منظم و بعمل دؤوب. لم أستطع معرفة ما تفعل هذه الكائنات بما حملت.

إن سنتي الثانية تقترب من نهايتها و تجهزت للعودة إلى الوطن في إجازة مرة أخرى.

و خلال تلك الأهازيج التي إنتشينا بها و الحياة الريفية البسيطة منذ سقوط الجبل الأخضر لم يكن هنالك ما يثير القلق على سطح الخليقة. لغم أو إثنان إنفجرا على نواحي نزوى و إزكي. و لكنهما كانا و بدون شك من مخلفات الألغام التي تم زرعها في الطرق و التي لم تتمكن كاسحات الألغام من إستكشافها و إبطال مفعولها ... لا أحد يستطيع زرع ألغام الآن. لقد كسبنا الحرب و إن الحرب إنتهيت. سليمان و طالب و الإمام مضوا في طريقهم إلى الدمام ... لقد عرفنا ذلك و لكنهم الآن رجال مهزومين .لقد كانت هنالك تقارير غريبة من ماكسويل من مقره العالي في الشريعة بأن هنالك بعض الفتية يغادرون منازلهم بلا رجعة و لا أحد يعرف فيما إذا كان القصير يحوم حول المكان و تروج حوله الأقاويل بهمس و خفاء. و لكن لا يوجد أي شيء يذكر سوى تلك الألغام القديمة التي كانت مجرد حفا عاثرا لنا.

لقد كنت في بيت الفلج في انتظار طائرتي للسفر إلى الوطن عندما حدث دوي قوي قريب منا مباشرة الأمر الذي دفعنا للتقصي و معرفة ماذا يحدث مبجلقين عيوننا في ذهول .

لقد تم تفجير سيارتي في عبري في طريق يستخدم يوميا و في مشوارها الصباحي الأول و بلغم أقوى و أكبر من تلك الألغام التي تعرضنا لها من قبل ... قتل في الإنفجار السائق في الطريق إلى المستشفى متأثرا بجراحه و كنا محظوظين حيث أن سيارتنا كانت من النوع الثقيل (٣ طن).

كان ذلك اللغم لغما جديدا و تم زرعه حديثا و زرع في منطقة خارج عن مواقع المعركة. و تساءلنا سؤالا قد يكون أبداعيا: هل نحن كسبنا مجرد معركة و ليس الحرب ؟

أخذت إجازتي و عدت إلى عمان و إلى جيش كل إنتصاراته في مهب الريح و لا يوجد شيء يمكن إعتباره إنجاز سوى خيبة أمل محيرة بدل ذلك النصر الذي توسمناه .لقد إنتزعنا نصرا و بصعوبة مطلقة في حرب تقليدية قمنا من

خلالها بدك مواقع عدو يبادلنا النيران و خط مواجهة معروف لنجد أنفسنا فقط في حرب عصابات مع عدو خفي و خط مواجهة ذو إتجاهين إفتراضيين بدلا من إتجاه واحد!!! ...

إننا نحن إذن في معركة ضد جميع البلاد و ليس فقط ضد الجبل الأخضر ... ضد شعب عمان و ليس سكان الجبل فقط ... أو هكذا إعتقدنا.

الأهازيج الشعرية الشعبية مع "Grock" إنتهت. و خلال شهري إجازتي السنوية تم نقل فرقتي من الحياة البرية الريفية في عبري و البريمي إلى بيت الفلج الذي يطلق عليه جنودي البلوش "Beetle Plug" و ذلك لعدم وجود الحرفين (F & J) في لغتهم. إن المعسكر الذي تم إنجاز نصفه في البريمي قد تم إخلائه و تركه للرمال و العقارب التي كانت تقطنه قبل مجيئنا و الكنتونات المؤقتة في عبري سلمت مرة أخرى لكشافة ساحل عمان الذين من الطبيعي سيجدوها قذرة حيث إنا تركناها كما تركوها هم لنا في حالة تثير الإشمئزاز.

(Beetle Plug) أصبح يعم بالحدائث و المدنية مقارنة بآخر مرة سكنت فيه. فقد خصص لي و للمرة الأولى منذ سنتين غرفة بها أرضية و سقف و مصباح كهربائي و مياه عبر صنوبر و حنفية و مرحاض حديث. كما أن طمعانا و مآكلنا في قاعة مرتبة نظيفة يخدم بها مضيفون يلبسون ملابس بيضاء و رئيس للمضيفين و قائمة طعام على الطاولة. لقد وجدت هناك حياة بائسة نوعا ما و التي تختلف عن تلك الحياة التي عهدتها في بيت الفلج حيث كانت المجاملات زجاجة وسكي لأحدهم و حديث عن الفاخر المتعالي الأولومبي" ووترفيلد". لقد لعبت لعبة ال "Bridge" مع بوب و ارنر الذي كان جنديا قديما مفعما بالخبرة و الخدع بأنواعها ، و كذلك مع طارق الذي كان يلعب بطريقة حضارية مدنية براق و منح طاولة لعبنا للورق منظرا غريبا مميزا بزيه الملكي المكون من البشت و الثوب و الخنجر الفضي و المظهر الشبيه بالخلفاء. حضرنا أمسيات موسيقية مع مدير البنك في مدينة مسقط الذي تنقل بيننا كغرفة إستقبال متحركة متحدثا مع ضيوفا ، و أكلنا بنهم من وجبات متنوعة كثيرة التي فاقت حجمها حجم مندوب شركة النفط. كما قمنا بتمثيل مسرحيات مكتوبة يتم قراءتها في الحال و تنظيم و ذلك لإرباك الحضور من عرب و هنود الذين يتوجب عليهم إتقان اللغة الإنجليزية بشكل ممتاز لتمكنهم من فهم الكوميديا الإنجليزية من جيل سبق. و شربنا و إستمعنا للجرامافونز (الإسطوانات) و هنا ظهر بوب و ارنر كالنجم فقد جمع صفات عديدة نادرة من الفضول و التواضع و الخصوصية ... و سكرنا حتى الثمالة.

هنا في المركز تجمع كل الأصدقاء الأحباب. كان هناك جاسبر الذي خسر جندرمته و كلف لترضيته مهمة إيجاد قوة بحرية و التي قابلها بكل حماس و رغبة شبيهة بألفريد العظيم و قد كانت تلك المهمة تغير في مهام جاسبر من قائد فرقة طيران إلى عقيد فرقة حمير ممتازة و قائد جنود تحصينات. أما بوب و ارنر أصبح مسؤولا عن كل الأعمال الإدارية للقوات فقد كان مسؤول المعاشات و المدقق المالي و مسؤول الخزانة ... فقد كان ربما الرجل الوحيد إلى جانب ووترفيلد الذي يهابه السلطان. أما الملتحي بات جري فقد إلتحق بكتيبة جيش آخر سيئ السمعة في إحدى

المناطق النائية من الجزيرة العربية. و جون كلارك صاحب الصوت الرخيم الكناسي و الوجه المأساوي أستلم مكانه في ميدان التدريب. ريتشارد أندرسون تنقل بتحكم و ثبات كالرجل الثاني في قيادة كتيبة مسقط. فقد كان مسيطرا على قاعة الطعام حيث كان يطعمنا مثل إطعام المهرجا و كان دائما يختلف مع الضباط المنضمين حديثا إلى أن يتعودوا على طبيعته العصبية المنفجرة. أما مالكوم دينيسون فقد عاد إلى حلبة الإستخبارات بكل بطولة و فخر بمهمة كبيرة شاقة ألا و هي إنشاء جهاز إستخبارات من الصفر. هيو الذي من هيو كول فقد غادرنا ... و عدا ذلك فقد بقيت مجموعتنا الأصلية مرتدين قبعاتنا المميزة.

تميزت هذه الأيام بتوافد مستمر للأطباء الذين يصلون الواحد تلو الآخر. أذكىء مهندمين و تواقين للعمل حاملي حقائبهم السوداء اللماعة و بعد مدة قصيرة يغادروننا ممددين على حمالات. لقد كان عدد ضحايانا أغلبهم من الأطباء. كانوا متعودين أن يأخذوا عناية متعددة في يوم وفاتهم كمثال لنا على كيفية تحمل و تقبل وصفاتهم و تعليماتهم في الرعاية الصحية و الحفاظ عليها. لقد كانوا يفحصون كل مصادر المياه التي يخشون أنها ستصل إلى شفاههم في وقت ما. و بذلك يقومون بإخضاع تلك المصادر للفحوصات الكيميائية المتعمدة و الإعلان عنها أنها لا تصلح للشرب و الإستخدام. فالمياه يجب تصفيتها من كافة المواد السامة بإضافة جرعات و كميات كبيرة من المطهرات الكيميائية قبل السماح لها بأن تكون برفقة الرجال الصالحين. يشنون حربا بلا هوادة و رحمة على الذباب و كل نوع من الحياة الحيوانية و ينظفون فواكههم و خضارهم ببرمانجانات البوتاسيوم أو أي محلول مطهر مشابه. إنهم مجنونو طهارة و رعاية صحية و يستسلمون و يتهاونون مثل أوراق الخريف لكل اضطراب يمكن تخيله عن سوء التغذية. لقد كنا نحن ... جاسبر و جون كلارك و أنا ... الذين أجبروا و بقوة لشرب مياه ملوثة من الغنم و ما شابهها و مياه بها ديدان البعوض و نأكل وجبات التي من ضمنها الذباب كوسيلة للتغذية و مشاركة الموائد الغير نظيفة و نقيه من تمر و غيره مع جنود غير مغتسلين و موبوئين عرب ... كانت لنا تعليمات الأطباء تعد شيء غير مقبول و خرافي و أمر يدعو للتسلية و الإستهزاء .

كل السنوات التي قضيتها في شبه الجزيرة العربية و في معظم الأحيان كانت في بيئة غير نظيفة بل في أحوال من القذارة و "ثورة الغير نظافة". لم أعي أبدا أي إهتمام لهذا الأمر على الإطلاق و لم أكن في يوما من الأيام غائبا عن العمل بسبب مرض ... ربما كنت فقط محظوظا.

ليس فقط النظافة و الرعاية الصحية تم تحسينها بشكل ملحوظ و لكن تم إنتداب عميل سري و هو رجل ذكي برتبة لواء (بريجادير) من وزارة الحرب البريطانية لرفع توصيات للتأكد أنه لا يمكن مطلقا إرسال جنود بريطانيين للمحاربة في عمان حتى ولو طبقت السماء مرة أخرى. لقد منحنا كل الفرص للقول و التعبير و ما نفكر به و ما نحتاجه و ما نتوقعه و ما نعرفه للواء و أن يتم إخبارنا عن ما عرفه و شعر به اللواء عن احتياجاتنا. مثل ما تحتاجه بحرية جاسبر و مثل ما يحتاجه صف الضباط الجدد في كتائب الأسلحة الجديدة ككتيبة سلاح الإشارة و كتيبة الخدمات من هم في رتب نقيب و أعلى الذين يقيمون الآن بالأعمال التي كان يقوم بها في السابق ووترفيلد وحده

منفردا. حتى أننا أصبحنا نملك سلاحنا الجوي المكون من طائرات مروحية خفيفة يمكن سحبها و التي يمكنها حمل و نقل آليات و تثبيت مدافع رشاشة عليها و التي يقودها طيارون شديدي الحماس تمت إعارتهم من سلاح الجو الملكي البريطاني و الذين يعلمون أنه لن تكون هناك متعة و إنسباط أفضل من تواجدهم في عمان من أي مكان في العالم. الكثير من ضباط الجيش البريطاني إنضموا إلينا كما إنضم إلينا العديد من المرتزقة بعقود خاصة الذين يمثلون التضاد بين مفاهيم ضباط و موظفي السلطان و بين أولئك الذين يدينون الولاء و التبعية لملكة التاج و العرش البريطاني و الذين التضاد و الخلاف بينهم مع الأسف كان واضحا. أما ميدان و ثكنات تدريب الجنود تم ملؤها بالمجندين البلوش. جندرية جاسبر القديمة تم تحويلها إلى قوة للشرطة تحت قيادة عميد قائد شرطة سابق ينتمي إلى الحقبة الإستعمارية. لقد أنشأنا ثكنات جيش على طول و عرض عمان و ووترفيلد و نظراته الرحيمة شهدا إتساع إمبراطوريته تحت قدميه بكل أبهة و فخار.

عدم تحمل الأولوية) بريجادير) و الضباط المنعمين المرحلة التي بدأنا الدخول فيها كانت أسوأ ما في الحملة. لقد كسبنا الحرب و لكن طاعون الألغام الممتد حول النصر إلى رماد في حلقنا. لقد كانت الألغام سيئة و كثيرة كما كانت في أوج شدة التمرد عندما حاول طالب إزاحتنا عن الطريق. إن طالب يحاول الآن مرة أخرى و لكنه ليس في عمان. كما أنه ليس لنا أمل أو نستطيع أن نخطط في أن نصنع نصرا عسكريا حاسما لنثبت الطمأنينة و الثقة في العقول. لقد أنتصرنا و لكن هذا النصر كانت نتائجه بسيطة و لم يأتي بنتيجة مرجوة. لقد شاب الغموض و الإمتعاض واقعا لعدم تمكننا من العثور على طالب و جماعته ميتين عسكريا و هذا أصبح هاجسا أقلق سرائرنا و واقعا و هو كان أيضا سببا لتوتر أعصابنا و إحباطنا حيث أننا لم نستطع و نكاد نكون مشلولين من عمل أي شيء للتخلص من هذا الهاجس. و على الأقل خلال السنة الأولى و النصف من تواجدها في منطقة الجبل الأخضر إستطعنا من تطويق الحصار على تلك المجموعة بتكثيف عدد الدوريات و استخدام المدافع و البنادق الكبيرة و إستدعاء الطائرات المقاتلة القاذفة للقتال ... و لكن الآن لا يوجد لدينا أي شيء ... لا أحد نطلق عليه النار و لا مكان لقصفه بالقتال. نجلس قابعين في سكون مثل البط. كانت أكثر الأفكار تقبلا للخروج من هذه المرحلة هي التوقف للخروج و الإستطلاع مع بعض ، يبدو أنه لعيوننا الحاسدة المقيته أن ذلك كل ما كنا نفعله بالرغم من تواجده تلك الرتب المفخمة من ضباط و قوات جوية و قوات بحرية و جنود و كتائب الجندرية ... فكل ما كنا نفعله التجول في الريف العربي لنفجر أنفسنا هذا الأمر الذي لم و لن يكون على الإطلاق إذا كنا لم نتواجد هناك ... على كل حال .

إن الأشباح المتآمرين أصبحوا يستخدمون ألغاما أكبر حجما و بتزايد مستمر حيث كانت إفتتاحية الهجمات في عبري مجرد "فاتحة للشهية". لقد تخلوا عن محاولة مضايقتنا بألعابهم الصغيرة المعتادة و بدأوا في إستخدام ألغام ثقيلة مضادة للدبابات قوية جدا لتدمير دبابة كبيرة ، و جعلوا سيارات اللاندروفر و معدنها كالخردة حتى سيارتنا المدرعة المسلحة كما دمروا شاحنة وزنها ٣ طن.

و خلال كل ذلك الوقت لم نستطع تجميع أي معلومة عن ماذا يحدث في الحقيقة. لقد قرأنا تقارير عدة من مصادر

دبلوماسية أن الثلاثي الخطير في المملكة العربية السعودية يجندون المتطوعين و يعدون جيشا للتحرير ، و لكننا لم نستطيع أبدا أن نؤكد ذلك بشيء ملموس. و كل ما إستطعنا استنتاجه و الوصول إليه و الفرضية المعقولة هي أن هذه التفجيرات التي تحدث يوميا في عمان يقوم بها أشخاص محليين مريضين نفسيا يستخدمون ذخيرة من مخلفات أيام الحرب. و تمشيا مع هذه الفرضية قمنا بتتبع كل همسة و كل إشاعة و حكاية إسطورية ... أما البحث عن "القصير" أصبح أمرا محتما ألا هو مطاردة شخص بعينه و محدد بالإسم. تم تطويق جميع المدن و القرى و تفتيشها كما قمنا بتفتيش البيوت و نهبها و كذلك مزارع النخيل بل أشجار النخيل نفسها قمنا بمسحها لعلنا نجد أسلحة أو ألعاب نارية. تم إعداد قوائم بأسماء المطلوبين المشكوك في أمرهم. كما أنه تم إعتبار أي شخص تربطه علاقة عائلية أو صداقة حتى و إن كانت عن بعد مع قيادات المتمردين ... تم إعتبارهم موضع شك و ريبة و عرضة للتحقيق و المساءلة. كما أن السلطان نشر قائمة من المكافآت حدد فيها جوائز تقدم للعسكريين و المدنيين و لمن يرشد على أي شخص لديه سلاح أو يقوم بزرع ألغام و كذلك لمن يكتشف مخازن الأسلحة و الألغام. أن هذا العرض من السلطان كان مغريا جدا .فقد كان نصيب من يعثر على لغم صغير نحو ١٢٥ جنيه إسترليني و هذا المبلغ يعتبر كبيرا في بلد يكون راتب العامل البسيط فيه ٥ شلنات في اليوم ... إنه مبلغ صعب الحلم به لهم في هذه البلاد. كما أنه أصدر مرسوما قاسيا ينص على معاقبة القرى التي يحدث بقربها أي إنفجار. كما أن الجيش سخر كل قوته و موارده و وقته لمراقبة الطرق محاولا و بدون أي نجاح و توفيق لضبط زارع ألغام و هو يقوم بمهمته.

كل ما طلبناه و سعيانا إليه هو فقط طبقة واحدة من الألغام. فإذا إستطعنا اكتشاف طبقة واحدة شعرنا بالسعادة و المزاج الطيب و كنا بررنا كل الجهد المبذول و كنا استطعنا بمجهوداتنا و تطبيق قراراتنا الصائبة القضاء على مصادر هذه الشبكة المظموسة تحت الأرض التي بالتأكيد تحت التربة العمانية.

و القصير ... لقد سمعنا الكثير عن القصير في تلك الأيام حتى أننا إقتنعنا و بكل أمانة أنه مقاتل واحد شبيه بالمقاتلين في حركة المقاومة أبان الثورة الفرنسية (ماكويس). لقد قال العديد من الرجال أنهم رأوه في البريمي في أوقات متعددة و أشيع أيضا أنه كان يتجول بسهولة مثل الشبح الرحال في سيارة لاندروفر لونها يتغير في كل تقرير جديد و إشاعة إنه كل الهولندي الطائر بسيارة الدفع الرباعي يقوم بزرع الألغام. لقد صلبنا ذات يوم بإخلاص و دعونا الرب يوم من الأيام و في رعاية الله المباركة و في يوم مبارك من عند الله أن يقع القصير في قبضتنا التي نتمنى بكل يأس الإمساك به.

في تلك الأثناء كان مساعد "Groock" القصير يقوم بأداء مهامه في وظيفته الحكومية محصلا الضرائب و مشرفا على الري و الزراعة متنقلا في مناطق نفوذه على إحدى عربات السلطان الغير متشابهة.

بكل يأس قمنا برمي كتاب التعليمات العسكرية و متطلبات كيف أن نكون جيشا عصريا اعتياديا من الشباك. قياداتنا قامت بعقد إجتماعات مكثفة و تبنت إستراتيجية جديدة مختصة .الخطة التي انبثقت في بيت الفلج من هذه الإجتماعات و الإستراتيجية تتكون من شقين توأمين. الأولى معرفة ماذا يحدث في الواقع في المدن و القرى العمانية. الثانية تكمن في رغبتنا في إلقاء القبض على الجناة فور وقوع الجريمة. إن العمليات العسكرية المعتادة غير مجدية في مثل هذه المهام مثل الدوريات التي تنتشر في مختلف أنحاء البلاد في قوافل مثيرة للغبار أو التفتيش بضوضاء و صخب في تلك القرى النائمة بحثا عن الذخيرة و العتاد و المتمردين. و جب علينا أن نكون غير عسكريين و بامتياز في طريقة بحثنا. واجهت هذه الخطة بعض الإعتراضات من القيادات و لكنه تم اعتماد المخطط . مرة أخرى أصدقائنا الطيبون كشافة ساحل عمان أتوا من الشمال لمساعدتنا في أعمالنا العسكرية الإعتيادية و التي زادت من طبيعتها العسكرية و تم تحويل فرق من جيش السلطان إلى دوريات كشافة صيبانية.

عملية جعل آذاننا تصل إلى الأرض و تنتصت على ما هو موجود و هي الجزء الأول من الخطة جعلت الكثير من القيادات التقليدية حزينة و ممتعضة حيث أنهم حرموا من ضباط استخباراتهم و معاونيهم الذين من بلادهم (الإنجليز) و أستعيز محلهم بضباط عرب برتب رفيعة تمركزوا في المدن الرئيسية و تم إنشاء معسكرات و مراكز خاصة بهم تم إشهارها بطريقة إعلامية بها محطات و أبراج لشبكات لاسلكية يستخدمها ممثلو السلطان و حكام ولاياته. ففي الرستاق و العوابي كانت هناك محطة لكل منهما و التي تم تركيب الهوائي لهما في قلعة الحاكم و كانت تلك المحطات تحدث أصواتا مزعجة خلال ساعات معينة على امتداد اليوم. و تم إختيار الأشخاص بدقة و عناية. و لم يسمح للوجه البلوشي للعمل هناك أو إستخدام المورس و الإتصال عبر الشبكة و لأميال عدة. الملازم علي محمد الذي كان رفيقي الأول في الجبل الأخضر كان مسؤولا في العوابي و في الرستاق تم تعيين ضابط عربي سمين و به سمات عربية و يدعى سيف و منح رتبة رقيب و كان يتمتع بعقل ذكي و سرعة بديهية و لديه العديد من الأصدقاء المفيدون في الأماكن العالية و المنخفضة. كما تم إختيار مساعدي التشغيل على نفس المنوال. و تم تشجيعهم على لبس ملابس مدنية و ذلك ليتمكنوا من التجول بحرية في السوق في أوقات الفراغ و التي كانت كثيرة و لزيارة الأصدقاء و التعرف على أصدقاء جدد. و بإختصار كانوا جواسيس. الخطة كانت طفولية و وقحة و لكن مادام الجيش أصبح عرضة للألغام و التفجيرات و أصبح العتاد من سيارات لاندروفر و شاحنات خردة مرمية على جوانب الشوارع و في المناطق الريفية و يجد هذا الجيش نفسه مضطرا للمداهمة القرى و المزارع و أقرب تجمع سكاني بحثا عن المتسببين و المتمردين مدمرين تلك القرى و محولها إلى أشلاء. كانت هذه التجربة البسيطة لوضع عيوننا و آذاننا لمعرفة ماذا يحدث في تلك القرى بدلا من تدميرها تأتي بثمارها. فقبل أسابيع قليلة من تطبيقها عرفني الرقيب سيف في إحدى زياراتي التفقدية الروتينية لمحطته الراديوية ... عرفني على زاهر الصديق القديم الذي تعرف عليه منذ سنوات خلت و تقابلوا مرة ثانية في الرستاق. كان زاهر رجلا لديه معلومات عن المتمردين و عائلته لديها إتصالات

مع مجلس قيادة المتمردين و لديه كره بغيض و عميق للإمام و كل أفراد قبيلته و بعد مضي الوقت أصبح زاهر مصدرا هاما لمعلوماتنا الإستخباراتية.

أما على محمد في العوابي فقد وجد أيضا صديقا قديما الذي لم يره منذ مدة طويلة و الذي كان يؤجر حماره لحمل البابايا و صبغة النيل و لحمل أي أشياء أخرى يمكن حملها. كان هذا الرجل من يعرف هذه المدينة الصغيرة و أزقتها و منافذها الخارجية. و بالتدريج و بحذر و تردد و سيولة متزايدة و تمنع قام هذا "الحمار" بإعطائنا معلومات كثيرة عن أسماء أقارب طالب و ثقافته و مؤيديه و عبيده و أسماء الرجال الذين إنضموا إنضوا تحت رايته في الدمام و أين يعيشون و أوصاف الرجال الذين نطاردهم و نحاول العثور عليهم و المئات منهم الذين لم نسمع عنهم من قبل.

بهذوء و بخطوات مؤكدة بدأنا بتجميع فكرة عن كيفية تفجيرنا و المواد المستخدمة في ذلك. أسماء حقيقية و أشخاص حقيقيون الذين يعيشون على في الحياة و الذين قاموا بالذهاب إلى المناطق الريفية و زرعوا حقائب و صفائح من المتفجرات. أخذنا معلومات عن أمكنة الأشباح العديمة الوجوه و عن الفتى الخارق القصير و السكان المحليين الأصليين المجوهولين الذين كانوا من المفترض التجمع في كل قرية في عمان. الحقيقة ظهرت من غموض الإهمال. لقد كان هناك عدد من المتآمرين النشطين الغير المتواجدين في عمان و لكن في المنفى في المملكة العربية السعودية و أنهم يأتون و يغادرون عمان بصفة مستمرة. و إنهم يرتحلون في عمان عبر وسائل نقل بسيطة متعددة و يزرعون بذورهم المميته و يغادرون مرة أخرى للراحة قبل أن يعاودوا الكرة إستعدادا لمهمة جديدة. و عرفنا الطرق التي يسلكوها و الوكلاء و العملاء الذين يساعدونهم و الوسائل التي يستخدمونها في عمليات تهريب شحناتهم مروراً بالجمارك و مراكز التفتيش و أماكن تجمعهم في عمان ... و أخيرا عرفنا أين يجب أن نكون.

لقد خسرت فرقتي تفوقها الإستخباراتي بسبب أجهزة التنصت و الإرسال في الرستاق و العوابي ، و لذلك أعطيت مطلق الصلاحية لتدريبه لإستخدام تلك الأساليب و الوسائل و للإستفادة منها.

كان طموحي هو تواجد مجموعة من الرجال في المناطق الريفية لحماية بعض المناطق المختارة على إمتداد الطريق و بشكل تمويه حيث لا يعرف أحد بوجودنا في تلك المناطق على الإطلاق. يجب على الجنود مسح المنطقة بالكامل و يوميا ليلا و نهارا و تكون لديهم القدرة على الإنقضاض و الزحف و القبض على كل من يشكون فيه و تسوله نفسه في القيام بعمل تخريبي في الممرات. و يجب أن لا يعرف أحد أنهم متواجدون هناك. و بهذه الطريقة و المنوال نأمل أن يكون زارعو الألغام يطمأنون بخلو المكان و أنه آمن ليتمكنوا من زرع حملهم بحیطة أقل من تلك الوضعية في تواجد جنود يرتدون ملابس عسكرية. كما أن إذا قبضنا عليه متلبسا و نحن في ملابس مدنية سيكون له مردود سلبي على معنويات رفاقه و إيجابيا على معنوياتنا .

المشكلة كانت كبيرة و عظيمة. التدريب يجب أن يكون متكامل و على أعلى الدرجات و الإدارة لا تتحمل الأخطاء.

كان على رجالي التعلم كيف يخفون أنفسهم و يتحركون بحرية من دون أن يراهم أحد و الهروب من الملاحقة و لفت إنتباه رعاة الإغنام الذين يمشون بالقرب من مخبأهم و عليهم كذلك الطبخ و الأكل بخفاء. عليهم أن يتواروا عن الأعين في النهار و يكونوا دوريات أشباح في الليل و أن يتفاعلوا بقوة إذا راوا أو سمعوا هدف. و عليهم كذلك أن يكونوا مجرد رجال و عليهم أن يتحركوا في مواقعهم و يستلموا المؤمن و يتناوبون الدوريات و فوق كل ذلك يجب أن لا يشعر أحد بوجودهم....

لقد قضينا أياما و أياما في كل أنواع البلاد نتدرب على فن مصيدة الأخشاب في حالة تواجد خشب. في أرض عارية و جذباء مثل تلال عمان حيث الأشجار منتشرة فقط على شكل شجيرات جافة بدون أوراق أن المهمة أكثر تحديا و صعوبة من ما كنا نظن. لقد تدربنا على التحرك في سهل عار حيث لا يوجد شيء سوى صخرة واحدة تكسر الأفق الممل. الفن هنا ليس أن تختفي وراء أي شيء بل المحاولة و بذل الجهد بملابس خاكية و جلد بني و ذلك لتتوافق و على امتداد مسافة معقولة مع طبيعة سطح التربة و بشكل غير مميز.

لقد قام الرجال بالتدرب على هذه الطريقة تحت أعين مدرب مراقب محتفظين بجمودهم و واجمين حتى يروه غاض النظر عنهم عندها يقفزون أو يزحفون كلما سمحت الفرصة متجهين إلى أقرب قطعة ظل أو أرض حجرية.

لقد جعلتهم يتأسسون على الإختفاء في تلال صلبة قوية و يتفوقون على فرق البحث التي بعثتها للعثور عليهم. السر هنا هو جعل عيون حذرة مراقبة تحسبا لتقدم الصيادين و ان يكونوا متأهين متخفين إلا إذا كان الباحث يتقدم نحوهم مباشرة و عندما يكون عليهم لزاما للتخفي يتحركون بمهارة و لياقة مستخدمين أي نتوء جبلي صغير أو شجرة متأكدين أنهم خارج نطاق الرؤية.

لقد قدتهم إلى طريق ممتد به تلال منخفضة على كلا الجانبين و كان عليهم الإختفاء و أقوم أنا بحفر أجزاء في الطريق. و على رجالي بعد ذلك التقرب مني لإعتقالي و التأكد من ذلك دون أن أشعر أو أراهم أو أسمعهم. في الصحراء العارية تتطلب هذه مهارة عالية. بعد ذلك جربنا العمل الليلي. متحركين بمجموعات مكونة من إثنين و مراقبين الطريق متخفين و غير مسموعين و منتبهين لأي صوت. كان عند أحد الفرق المكونة من إثنين مصباح الآخر بندقية. و عندما كانوا قريبين من مصيدتهم قام الذي يحمل المصباح بإشعال مصباحة بينما صوب الثاني بندقيته و إذا لزم الأمر أن يطلق النار عليه الإطلاق فورا.

كان التمرين واقعا جدا حيث أنه في النهاية و كان زارع الألغام المزعوم (أنا أو الضابط المساعد) تقريبا تم القبض عليه مباشرة دون أن يشعر بتقدم الجنود المراقبين ... كانت العملية ناجحة في النهار و في الليل.

لقد كان تنظيم و تدبير هذا البرنامج المعد لمكافحة الإرهاب سببا لكثير من صدام الرأس و التفكير. أن الأمر لا يستوعب راحة و تبديل مستمر و لا يمكن للمجموعة أن تظل في الخارج لأسابيع و لذلك قررنا أن تكون المهمة

لخمسة أيام كحل وسط. و لذلك كان علينا توفير منامات للنوم و مؤونة طعام و ماء وشنطة محصنات طبية و يستلزم كذلك أن لا يكون هنالك طابور قاسي لهؤلاء الجنود لمدة خمسة أيام كما أنه عليهم أن يكونوا متواجدين في مواقعهم من دون همس أو التحدث بكلمة أو إبرام نار و دخان. لقد تم تصميم و إعداد مؤونة الطعام بشكل خاص و كانت تحتوي على علب سردين و تمر و خبز تشاباتي مميز يمكنه أن يظل رطبا و طازجا لفترة غير محددة. التشاباتي خلق مشكلة بحد ذاتها حيث أنه يوجد مكان واحد فقط الذي يتم إعداد هذا الخبز الشهى و فقط امرأة واحدة استطعنا التعرف عليها لإعدادده و قد عملت بلا توقف لمدة إسبوع لإعداد هذا النوع من الخبز الشهى. لقد قمنا بطلب كميات كبيرة تجنبنا للشك و التساؤلات حيث أنه إذا قمنا بطلب الخبز على فترات متقطعة من هذه المرأة الطبية فيمكن أن تكون هنالك أقاويل و إشاعات. و قد إحضرنا أجهزة طبخ لا تثير دخان من الجيش و التي بواسطتها يستطيع الرجال إعداد الشاي كما قمنا بتجهيزهم بشنطة طبية بها أدوية و مسكنات بما في ذلك المورفين ليستخدم في حالة أن أحد الجنود أنتابه نوبة يرغب فيها في الكلام و الصراخ .كما إشترينا ملابس خاصة شبيهة بملابس القرويين ليبدو مرتديها من مسافة بعيدة أشبه بفلاح قروي.

و أخيرا كان هنالك اللغز حول كيفية نشر الفرقة في مواقعها في حالة إختيار موقع يقوم فيه المتمرّدون بتنفيذ عملياتهم بشكل مكثف و كان هنالك سؤالا أيضا حول كيفية إيقاض مضاجعهم و إقلاق راحتهم. وفكرنا بعدة خيارات معتبرين بعضها و رافضين للبعض الآخر منها تبني الجمال و حتى الغنم لإستخدامها لحمل البضاعة.

و أخيرا توصلنا لخطة لا تحوي هذه الموارد الغير عادية.

قامت فرقتي بالتحرك جسمانيا و بضوضاء في المنطقة ما بين الرستاق و العوabi حيث تم إختيارها للتمركز في تلك المنطقة. لقد كان هنالك في هذه المنطقة نحو 12 ميل من الأراضي المزروعة بالإلغام المخيفة و تم تكليف مجموعتين لحراستها و مراقبتها. الفرقة تحركت بشكل ضوضائي في المنطقة و بطريقة توحي أنها عملية تدريبية للدورية و مثل مشاركة السكان و تتبعهم للجنود و مشاركتهم التدريب و إحداث الضوضاء الذي عكر سكون منتصف النهار في القرى. بعد ذلك انسحبنا بهدوء و بشكل مرضي لنتمركز على بعد ٢٠ ميلا في اتجاه الساحل حيث يوجد الماء و القرى الصغيرة. فقط نعرف وحدنا أن الفرقة انسحبت ليس بكاملها ... لقد تم ابقاء مجموعتين من الجنود القتلة المحترفين منتشرين على التلال.

و في القاعدة استقرت الفرقة بشكل نهائي على عمل غير ضروري و لكنه معقول ألا وهو تنظيم و ترتيب و وضع علامات لمدرج الطائرات.

بعد ذلك تم اعلان من قبل حكومة السلطان أن منطقة العوabi و الرستاق منطقة خطيرة و التي لا ضرر فيها على المواطنين الآمنين بشرط أن يكونوا يسلكون طريقهم مباشرة و بدون تخفي و لكن كل من يتحرك في الليل أو أي شخص يحاول أن يتلاعب في الطريق حتى في وضح النهار أو أي شخص يذهب لقضاء حاجته الطبيعية على جوانب

الطريق سوف يكون في موضع الشبهة و من المحتمل أن يطلق عليه النار من على بعد و في حالة وجود أي سؤال او نقاش يتم التعامل معه فيما بعد. هذا النوع من الإعلان تم نشره قبل ذلك و لم يوليه أحد أي إهتمام.

و بذلك قضينا أيامنا في بناء مدرج المطارات و لا أحد ذهب في إتجاه طريق العوابي و الرستاق البتة عدا تلك الشاحنة التي تمر كل خمسة أيام بعد غروب الشمس إلى أطراف الرستاق حيث يبدو أنها تقوم بجمع الحطب لإستخدامه لإشعال النار و أشياء ضرورية أخرى للمخيم ... و لكنها في الحقيقة كانت تنتظر حتى حلول الظلام حيث تكون هنالك عملية تبديل الجنود و يمكث الجنود الذين جمعوا الحطب ليتمركزوا في التلال على امتداد طريق العوابي و يحل محلهم زملائهم الذين كانوا متمركزين قبلهم. و تعود الشاحنة بوجوه تختلف عن تلك التي قدمت بها و التي لم يلاحظها أو ينتبه لها أي عربي جالس في الخلاء عملية تبديل الجنود تمت للإيام الخمسة القادمة.

كانت نتائج هذه التجربة مثيرة و لو أنها لم تكلل بالنجاح. أن عارضة اللاسلكي في العوابي تم كشف أمرها مباشرة بعد تركيبها و يرجع ذلك لغباء أحد الأعضاء و الحماس الوطني المتعصب لسكان العوابي. تمرض أحد الجنود و قد أختار أن يكون معاوننا لتشغيل العارضة في العوابي. و في في طريقه و كان يلبس لباسا عربيا و لفتت حركاته و مظهره أحد السكان المحليين الذي رآه قادما من جانب التلال. و الذي شك في تصرفاته و ذلك لحركاته الغريبة و سرعتها من أجل تغطية المنطقة و إخفاء مهمته. و كما يعرف الجميع أنه لا يوجد جنود في المنطقة أو غرباء و ذلك حسب التعليمات الصادرة و لذلك طلب منه المواطن العربي إظهار هويته و هذا ما أدى إلى تخوف مجموعة القتل التي جهزناها و المنتشرة في التلال المحيطة الذين كانوا يحاولون إبعاد الشاي بكاسات من الصفيح من غير إحداث إي أصوات أو لفت للإنتباه. و نتيجة لذلك قام سكان العوابي بالتجمع حاملين أسلحتهم متجهين نحو التلال و قد كان عددهم كبيرا حتى ملؤا تلك التلال البركانية و كان تقدمهم مثل الطوفان. لم يغن التدريب القاسي الذي قمنا به مع جنودنا لمنع هؤلاء من التقدم ... لقد تم كشفهم و بطريقة مخزية و قمنا بسحب جنودنا و حفظ ماء الوجه بطريقة تحفظ لهم كبريائهم و كرامتهم إلى العوابي شارحين للمواطنين أنهم كانوا يقومون بفصل تدريبي.

كما تم كشف أيضا مجموعة الرستاق بنفس الطريقة و لكن قصتهم مختلفة ... لقد قام المواطنون بالتساؤل عن كيفية قيام الحكومة بمراقبة الطريق و تهدد بقتل كل من يتم الشك فيه بين العوابي و الرستاق من غير جنود و لماذا حددت هذه الطريق بالذات و كيف إذا كان المرء يريد أن يقضي حاجته الطبيعية في تلك الطريق هل عليه أن يعرض نفسه للخطر ؟ ! ... كيف للجيش أن يطبق تلك الإجراءات القاسية من غير حراس أو دوريات ؟ ... أين أولئك الرجال الذين سيطلقون علينا النار إذا وقفنا للتبول ؟ ... إن أولئك العمال الجهلة الذين يجهزون مدرج الطائرات على بعد عشرين ميلا لا يمكنهم القيام بذلك. لقد تم إكتشاف الخطة من قبل هؤلاء السكان الذين فكروا و إستنتجوا أنه لا بد أن يكون هنالك سرا و خطة مبيتة لتنفيذ ما تقول عنه الحكومة و أن الأمور ليست كما تبدو. ربما هنالك جنود أنهم يراعون كالأغنام في التلال ... دعونا نتكشفهم.

بالفعل فعلوا ذلك. و لمدة إسبوعين ذهب مفتشون من الرستاق ليكتشفوا بأنفسهم إذا كان حدسهم صحيحا. و على مدى تلك الأيام قاموا بتفتيش و مراقبة التلال من دون أن يعثروا على الجنود الذين دربوا تدريباً جيداً على الاختفاء. تخلى المفتشون عن مهمتهم بحق.

أما رجالي القتلة لم يعثروا على لغم و لكن لم يكن هناك إي انفجار للغم خلال تلك الفترة. و عندما ألغيت العملية تم السماح بنشر أسرارها إلى السكان و ما كنا نفعله خلال تلك الفترة ... أن فكرة تواجد جنود في التلال قللت من مخاطر المتمردين الذين يزرعون الألغام و حدثت من نشاطهم لفترة طويلة.

١٤. كتاب أسود و سجل كبير (A Black Book And A Big Log)

الرجل الكهل صاحب الرائحة النتنة الذي أخبرني قصص عن سيارات الأجرة و الرعاية و الذي أتى لزيارتي في صحار طالبا استرجاع بندقيته التي تم مصادرتها كان و لا يزال يعاود ذاكرتي من حين لآخر و لمدة عام كامل. لقد كان واحداً من العديد من الأشخاص الذين تناستهم أجهزة المعلومات الاستخباراتية ظناً منها أنهم عديمي الفائدة.

كنت أقرأ تقريراً مثيراً أعده قائد الفرقة المتواجدة في عبري المظلة على الجانب الجبلي من المنطقة عندما تذكرت ذلك الوجه الكهل.

فقد قامت الفرقة في عبري بواجبها و ألقت القبض على زارع ألغام أو قريب من ذلك على حد زعمهم .الحلم المستحيل الذي لا يمكن توقعه و تصديقه أصبح حقيقة. لقد أمسكنا بشخص يحمل لغماً.

لقد كان هذا ليس بفعل مجموعة القتل التي خططنا لها و لكنه كان بفعل قائد الفرقة الذي يدعى نيك كارتر و هو جندي محترف و مقاتل يسعى للفوز مثل الملاكين المحترفين فقد كان في دورية معتادة بسيارته اللاندروفر عندما لمح مجموعة من الجمالين يتجمعون حول التلال و بدون سبب واضح لهولتهم. و بشعور انه لزم عليه القيام بالتأكد و ضمن مهامه اليومية الروتينية طلب من القافلة بالتوقف و لكنها استمرت في سيرها متجهة نحو الأفق و في تسارع فما كان من كارتر إلا أن أطلق النار عليها مصيباً بعض الرجال و جمل و بذلك اضطرت القافلة إلى الوقوف. و في ظل الإرتباك و الخوف توجه رجل نحو الصخور و إختفى و لكن بقية الصيد كان ثميناً و بشكل لم نراه من قبل. كان في أسرجة الجمال حقايب ألغام تم تغليفها بحذر و بشكل تمويه ليظن أنها أشياء أخرى.

كان الصيد من ناحية العرف الإنساني يحتوي على رجل كهل و صبي .حمل كارتر أسراه و عقب راجعاً إلى عبري و نشوة النصر تملأ روحه و قام بالتحقيق معهم و بعد فترة إدعوا أنهم أبرياء و يجب التعاطف معهم لأنه تم تضليلهم و التأثير عليهم بالقوة. أما الرجل المفقود فقالوا عنه أنه إستأجرهم حيث أنه لا يعرف إلا القليل عن تربية الجمال و

ركوبها و أنهم مجرد جمالين فقراء يكسبون لقمة عيشهم بنقل البضاعة و ان ذلك الرجل إستأجرهم لنقل بضاعته التي لا يعرفون ما تحويه و لكنهم ظنوا أنها بضاعة عادية شحنوها من مكان ما بالقرب من صحار إلى مكان في الشمال من الجبل الأخضر بالقرب من بلاد سبت ... هل يستطيعون الذهاب ؟ أنهم يريدون العودة إلى ديارهم و من أجل أمهاتهم الأرامل و أطفالهم الجياع و سوف يكونون أكثر حذرا في المرات القادمة و التأكد أنهم لا يحملون أي شيء لا يوافق عليه صاحب السمو السلطان.

كانت هذه مجرد قصة على أي إنسان مليء بالعاطفة أن يصدقها ... و لكن زميلي في عبري كان أقوى من أن يصدقها و أن يطلق سراح أي من المعتقلين و حتى الجمال و التي تعتبر دليلا قاطعا على النجاح الباهر لجميع مراحل الحملة. تم الضغط عليهم و طرح المزيد من الأسئلة و منها معرفة إسم الراعي الذي يسكن بالقرب من صحار و الذي عرفهم على الرجل الهارب و الذي ذكر في التقرير الذي كنت أقرأه و لمحتة عندما كنت اقلب صفحات التقرير و الإسم هو: حارب بن سيف بن بشير (البادي أو البداعي (Al Bida'i) و أقرب البادي لأنهم يسكنون صحار). لقد أبلغني ذلك الرجل صاحب الرائحة النتنة في صحار أنه تم تعريفه في الشارقة على ناقل للمتفجرات يدعى حارب بن سيف بن بشير (البادي/البداعي) و هو شخص من صحار. و بوجود إسم مثل هذا فإنه لا مجال للصدفة في هذا التقرير. هنا و أخيرا و بالتدرج بدأت الأفكار و الألغاز تنحل في عقلي و كانت خيطا رفيعا من الأفكار.

إنها محض صدفة بالفعل. ففي هذا الوقت أعتقدني مايك ريد من فرقتي التي ماتزال تراقب بخفاء التلال السوداء في العوابي و تم تعيني ضابط إستخبارات في كتيبة مسقط. و كان هذا ليس مرتبطا بتذكري إسم حارب بن سيف الذي بالكاد ذكرت إسمه. لقد كان جزءا من مهام الخطة الهجومية الرئيسية هو تحسين إنتشارنا الإستخباراتي. لقد تفهم الآن أسيادنا "سميلي" و "ووترفيلد" و القيادات البريطانية في البحرين إحتياجاتنا و قبل أي شيء آخر ... جهاز إستخباراتي جيد يدار بكفاءة. و مع الدعم الكامل من الحكومة البريطانية التي رأت في هذا الأمل الوحيد في كبح جماح طالب في المهدي التوسع في ذلك مضى قدما. واحد أو إثنان مثلي من لديهم المعرفة المناسبة بطبيعة الأرض تم تعيينهم ضباط مسؤولين ، أما البقية الذين ليس لديهم معرفة بعمان و لكن لديهم الدراية بالتحدث بلهجات اللغة العربية و طرق غريبة في التعامل تم تعيينهم ضباط إستخبارات في المناطق. كانت مهمتهم التمرکز في المدن مثل نزوى و عبري و عزل أنفسهم عن العالم و الإغراءات الجسدية كما كان عليهم أن لا يقوموا بأي عمل خلال النهار و الليل سوى التحدث إلى العرب و محاولة إختراق الستار الحديدي الذي يفصلنا بقوة عن الناس في عمان.

أجهل كل شيء عن فن الإستخبارات قررت أن أبدأ من القاع .بالرغم من أن وظيفتي في كتيبة مسقط هي ضابط إستخبارات و هي المنطقة الوحيدة التي تغطيها كتيبة مايك ريد بما في ذلك الجانب البحري من الجبل الأخضر و التي تشمل الرستاق و العوابي لقد قمت بالتنقيب والإطلاع على كل ورقة إستطعت العثور عليها في مباني قلعة بيت الفلج المغبرة و ذلك لتجميع قائمة بأسماء لها مدلوليتها. أكوام من الملفات و التقارير و أوراق رثة عثة (قرطاسياتنا المعتادة في أيامنا الأولى) وضعتها فوق طاولة طولها ستة أقدام و حول الأرضية التي بقرب قدمي ... كتب تحتوي

على إشارات محفوظة و قضيت إسبوعا كاملا في الموقع مدونا إسم كل عربي أتهم بالكتابة. و قمت بتسجيل ملاحظاتي بالقرب من إسمه و ما قيل عنه في ذلك الوقت. و بمضي الأيام كونت قائمة طويلة من الأسماء بلغ عددها نحو مائتي أو ثلاثمائة إسم و التي قمت بعد ذلك بترتيبها و تصنيفها حسب الترتيب الأبجدي و دونتها في كتاب أسود كبير. و على سبيل المثال الحرف "A" دونته بالشكل التالي: على العوفي - (Ali al Afi) زارع الغام و تلاه على الهامش سجل بجميع المراجع حول ذلك الشخص التي إستطعت كشفها من خلال بحثي. أما بخصوص طالب و الإمام و سليمان بن حمير فقد أهملت ذلك مع شخص أو اثنين آخرين مرموقين و ذلك بسبب عدم وجود داع لتجميع ملف كامل كدليل ضدهم. ما كنت أسعى إليه هو تكوين كتاب مرجعي يبين معلومات تخدم معرفة هؤلاء الأشخاص و سيرتهم مثل كتاب "Who's Who". أما بالنسبة للأسماء التي لم يتم تضمينها فقد توقعت أن أسمع همسات و ثرثرة و لغو عنهم. لقد كان إسم حارب بن سيف هناك في القائمة. لقد إستخرجت تهمة من تقرير أرسلته بنفسه عندما كنت في صحار مستذكرا و مقيما خطواتي الأولى المتعثرة في عالم الجاسوسية و أولئك الأشخاص في ذلك الإنقلاب الميت و سائق التاكسي و العميل في الشارقة و فوق الجميع "القصور" الذي خصصت له صفحة كاملة و في النهاية شطبتة و ذلك بسبب أن أفعاله و المعلومات عنه و تقاريره و صفاته متناقضة. و لكن على كل حال عملت بمبدأ التضمين بدلا من الإلغاء و الإقصاء ... في هذه المرحلة المبكرة من حياتي العملية.

كانت خطوتي القادمة هي الترحال في البلاد حاملا كتابي الأسود تحت إبطي بهدف الإلتقاء بالناس و لرفع الستار. بحثت عن محمد علي و الرقيب سيف هذين الرجلين المتميزين في تشغيل الشبكة اللاسلكية و اللذين ما زالا و بكل إخلاص يرسلون التليغراف و يبذرون الشائعات و يتجسسون من منصتي (عارضتي) التنصت في العوابي و الرستاق متظاهرين بصيانة تجهيزاتهم اللاسلكية أو بتسليم مدفوعاتهم. إنضمت إليهما كصديق جلسنا فوق سجادة القش التي فرشوها على الأرض كل في مكانه و سألتهما إذا سمعوا عن ذكر فلان و فلان أم لا ... و كنت في كل الأحوال أستلم الجواب بالنفي و حثيتهم على الإستمرار بفتح آذانهم (التجسس و التنصت) و إذا سنحت الفرصة السؤال عن هؤلاء الأشخاص ... أين هم ؟ أين يعيشون عندما يكونون في قراهم ؟ من هم أصدقائهم و معاونيهم ؟

و كيف هي أشكالهم ؟

لقد كانت هذه لعبة أطفال و لكنها مثل الأطفال تكبر ، و تدريجيا و من دون إحتجاج يذكر إستطعت التعرف و بطريقة هادئة بسيطة على زاهر صديق سيف ذلك الرجل ذو الإتصالات المفيدة الذي كرهه للإمام مفيد كما إستطعت كسب ثقة صديق علي "الحمار" في العوابي و تحدثت معهم نفس الحديث الذي كان مع محمد علي و سيف و عندما سنج الوقت طلبت منهم طرح نفس الأسئلة و أعطيتهم نفس التعليمات.

لقد كانت هذه لعبة أطفال و لكنها مثل الأطفال تكبر ، و تدريجيا و من دون إحتجاج يذكر إستطعت التعرف و بطريقة هادئة بسيطة على زاهر صديق سيف ذلك الرجل ذو الإتصالات المفيدة الذي كرهه للإمام مفيد كما إستطعت كسب

ثقة صديق على "الحمار" في العوابي و تحدثت معهم نفس الحديث الذي كان مع محمد علي و سيف و عندما سنج الوقت طلبت منهم طرح نفس الأسئلة و أعطيتهم نفس التعليمات.

و مع كل زيارة أصبح التمرين أسهل. و كنت أقوم بالترحال حول تلك الدائرة مرة في الأسبوع متحدثا إلى عدد من الناس حيث لا توجد أجهزة تنصت فيها و كنت أقوم بتسلم المعلومات الشخصية التي تم تجميعها من المندوب المحلي للحكومة. في بعض الأحيان أقوم بطرح اسم معين لشخص تم إختياره بحذر و عناية ضمن المحادثة و نتيجة لذلك أستلم خبر موجز أو جزء من شائعة حول ذلك الشخص .إنها مثل الدقيق لطاحونتي كما أنها ليست جميعها حركة في إتجاه واحد. معظم الأسماء موجودة في كتابي الأسود التي جمعتها في بادئ الأمر من مادة الشائعات و الشك الخامة التي لم يتم التأكد منها بعد و تراكت بعد جد و مثابرة و التي قد تكون ليست ذات أهمية لمضيفي أو تكون أسماء لشخصيات و مواطنين معتبرين أو أسماء لرعاة غنم أو بعض تلك الأسماء قد تكون من نسج الخيال ... و لكن بهذه الطريقة تعرف موظفو الحكومة على شيء بسيط عن الأدوار الموزعة على هذه الدراما المسرحية و تمكنوا بعد ذلك من استخدام آذانهم عندما يتم ذكر اسم مميز .

قضيت عدة أشهر على هذا المنوال من دون أن ألقى القبض على زارعي الغام و لكن عرفت الكثير عنهم. و قد قمت في بعض الأحيان بالإتصال بالجانب الآخر من الجبل حيث جددت معلومات شخصية و المعارف خلال فترة تواجدنا في البريمي و عبري و التي إعتبرناه مثل أيام الإجازات و ضمنت هذه المعلومات و الجديد منها إلى مخزن معلوماتي (الكتاب الأسود). كان هنالك بعض اللحظات المثيرة النادرة عندما يتم ذكر اسم معين و الذي يتسبب في إيقاظ ذاكرتي منبها كصوت الجرس مثل "حارب بن سيف" ... و على سبيل المثال الرجل الذي تمكن من الهرب من كمين كارتر تم تدوين إسمه ضمن تقرير منسي منذ زمن صادر من عبري "كشخص مشكوك فيه و منظما لمجموعة إرهابية تآمرية في الدمام". أي من هذه الحقائق منفردة لم تكن تعني شيئا بالنسبة لنا و لكن إذا تم إعتبارها مجتمعة فإنها ذات أهمية مضاعفة و بالتحديد أنها تعطي مفتاحا لحل ما يقال على تلك الألسن من شائعات و أقاويل التي سمعنا عنها. و بنفس المنوال كقصة حارب أعطت علامة كاملة "لصديقي" في صحار عندما ذكره الذين أسرههم كارتر و بذلك كان العبري الدليل الحاسم و القطعي الذي دعم أقاويل المئات من الأصوات و ثمن قيمة صوت الرجل الذي ذكر الإسم لأول مرة امامي و أنا أحتسي كوب القهوة المنسي الآن منذ نحو سنة و نصف. و للشائعة التي التي مصادرها أصبحت مؤكدة بقصة أخرى و حيث أنها تطورت من مجرد شائعة و قول إلى مصدر معلومة يمكن الوثوق منه و افعتاد عليه. لقد وجدت البحث و الإستكشاف و تنظيم التعامل مع المعلومات و خلطها تهجينها مثل هذه الشائعات أمر مثير للمتابعة و التحقق.

و على هذا المنوال لم أقم فقط بتنقيح كتابي الأسود إلى وقائع حقيقية مهمة صافية برغم ضآلتها و لكنني قسمت مصادر كم المعلومات التي تراكت في مكتبي و جزأتها إلى: أولئك من لا يعرفون شيء و قالوا لنا كل ما يعرفوه و

أولئك الذين يعرفون الكثير و لكن احتفظوا بها لأنفسهم و أولئك الرجال النادرين مثل الجوهرة الثمينة الذين عرفوا الأمر و أخبرونا به. و من دون هذا الفحص الإنتقائي المتكرر لم يكن لدينا السبيل لمعرفة من يكون من.

بينما كنت أعمل بمهنية و رغبة جامحة أشبه بما تكون بطريقة هاو على ترتيب الكم الهائل من المعلومات و تحويلها إلى نوع من البيانات يمكن الإستفادة منها لما يخدم تطلعاتنا كان آخرون يعملون بنفس النمط و بكفاءة أكبر و حرفة عالية و مهارة أكثر. هؤلاء كانوا الضباط الخبراء في مكاتب إستخبارات المناطق و الذين بخلافي الذي لديه رعاية و عناية و اهتمام الإدارات و المراكز الغير كبيرة بينما هم كان عملهم محدود في مناطق معينة و التي فيها يمارسون مواهبهم. هؤلاء الشباب الأذكياء تمتعوا بمطلق الصلاحية في مهامهم حتى أنهم لم يكونوا جزء من جيشنا ، لقد كانوا يتبعون الحكومة و وسيلة لجس النبض فيه و في المقابل تدفع الحكومة لهم رواتبهمهم و لا تتوقع منهم شيئا سوى نسخة من تقارير. لقد سبب هذا بعض الإحراجات عندما اكتشفنا بوسائل ملتوية أن بعض تقاريرهم لم تنسخ بالكامل و ترسل إلينا بنسخ ناقصة تاركة ما تصوره معد التقرير حول المهمة و الخدمة التي كان يعمل عليه ... و لكن إجماليا كان هؤلاء الضباط الإستخباريين في المناطق يعملون بطريقة جيدة.

لقد سمعنا قصص عديدة غريبة عن ضباط الإستخبارات في المناطق. إحداها كانت أن أحدهم خرج متنكرا لابسا بشتا و خنجر و جلس يحك نفسه في سوق عبري و قام بهذه العملية لعدة أيام متنصتا و موجهها أنه نحو مجموعات الناس التي تطلق الشائعات. و في صباح أحد الأيام تم الطلب من مجلس الحاكم (الوالي) من مجموعة من المتسائلين المعترضين الذين طلبوا معرفة لماذا الحكومة سمحت لمسيحي الجلوس في السوق من دون هدف أو عمل طوال اليوم مرتديا ملابس مثل شيوخ ساحل عمان.

ألا يجب إخبار السلطان عن هذا التصرف الغريب و الوقح.

واحد من هؤلاء المختصين كان مكلف لمقابلة جاسوس. و قد تم تحديد الوقت في سكون الليل و تم تحديد المكان ... النخلة الثالثة على اليسار. وصل الضابط الإستخباراتي قبل الموعد بمدة كافية للتأكد من سلامة المكان و خلوه من الأشخاص و كذلك ظلمة الليل و عندما أراد أن يتنكر إكتشف و في رهبة داخلية من الخوف إنه أطول بنحو قدمين من اللباس العربي الذي بحوزته. ... ليس مهما كيف استطاع أن يلبس الملابس العربية المكونة من الدشداشة و الخنجر و البشت و الشال حيث أن طوله الفارع خان ميلاده كونه شخص كافر. لم يكن هنالك متسع من الوقت لإضاعته ... قام بحفر حفرة بعمق قدمين و عندما حضر الشخص الذي عليه مقابلته كان الضابط على مستوى طول ذلك الشخص. و بعد الإجتماع كانت لا توجد عيون لرؤيته لأنه خرج من الحفرة كأنه ميت عاد إلى الحياة.

عندما تخلت فرقتي السابقة عن جهاز مجموعة القتل كان من السرور و البهجة السماح لها البقاء في المنطقة التي عرفتها بشكل مألوف و غير محبب. إن الرستاق هي همزة وصل مهمة و منصة رئيسية لتجارب عديدة و مركزا

للسيطرة على الشمال الشرقي من الجبل الأخضر .إنها أيضا إحدى الأماكن الجميلة في عمان حيث الجو المعتدل و الرطب و أشجار النخيل و ينابيع المياه التي تخترق المزارع و بها تتشكل نباتات برية ألوانها بيضاء و وردية تكتسي بالورود كما تكتمل هذه الخميطة بإشجار الليمون معطرة بياسمين المساء. لقد وجد الضباط سحرا دائما في سوقها حيث يمكنهم شراء دلال القهوة النحاسية و السيوف ذات المقابض المطرزة بالفضة و صوف الماعز الأسود و الأحمر بسعر زهيد ، و في القلعة الكبيرة العتيقة المتهاوية و في أحجارها الهرمية الشكل مرتفعة كأنها جزيرة بركانية في بحر من الأشجار الخضراء المحيطة بها تتخلل جدرانها بشكل متفرق نوافذ و التي من خلالها يمكن للمرء المحظوظ أن يرى زوجا من العيون السوداء لنسوة متواجدين في "السجن الحريمي" تنظر منها نحو عالم الرجال الممنوع. و أن هذا السحر أيضا خلايا بالنسبة للجنود و بشكل أكثر حيث توجد العديد من بيوت الدعارة المنتشرة بشكل كبير محتضنة النساء.

لقد أعجبت بالرستاق و كنت أزورها مرة في الأسبوع في جولاتي. و لكن في إحدى الأيام و بالتأكيد في الصباح الباكر كان هناك صوت و دوي قوي في الضواحي و على الطريق المؤدي إلى الرستاق نتيجة للانفجار لغم سارت عليه شاحنة أسفر عن تدمير جانبها الأمامي. وصلت إلى مكان الحادث المشؤوم بعد دقائق و إلا كان بالطبع أكون أنا من سار على اللغم و كنت الضحية. هنا كان تحدي الكبير الأول. لقد كان من المفروض علي أن أعثر على من زرع اللغم ، و شمريت عن ساعدي و أخرجت معداتي الحديدية لسحب الشاحنة و بدأت بالعمل.

و كبداية طلبت من الرقيب سيف بإرسال أحدهم ليستدعي صديقه. لم أكن في الحقيقة أتوقع أن يكشف زاهر إسم و عنوان زارع اللغم و لم يتوقع هو أيضا و لكنه كانت لديه بعض الأفكار. و في نفس الوقت قام الوالي بإرسال رجل هرم مقوس الظهر و صاحب حاسة شم قوية و الذي كام قاص أثر و كان هذا الرجل يحوم حول مكان الانفجار متحسسا بأنفه باحثا عن دليل يساعده في تحقيقه بينما أنا كنت منتظرا لزاهر.

كانت نتيجة كل هذا البحث هو إرسال فرقة من الجنود إلى مخيم صغير للرعاة يبعد نحو ميلا واحدا عن الطريق ... هل كان هذا بفضل أنف الرجل العجوز و أيضا بفضل زاهر و إحساسه بالشك و الريبة من أولئك الرعاة. و بهذا عادوا بنصر حاملين رجل كهل شكله مأساوي و الذي كان يصرخ بدون إنقطاع باكيا قطيع أغنامهم الذي أصبح من غير راع و عائلته التي أصبحت من دون رجل. لقد قسوننا على قلوبنا و بلا رحمة فالدليل كان قاطعا بأنه من قام بإيواء الرجل الذي بزرع اللغم. زاهر أدانه و أنه واحد من نحو درزنيين من المتعاونين و لكن أنف متقصي الأثر إستمرت بتتبع أثر اقدام حتى بيته المبني من الخشب و إستمر بالدوران حول المنزل ثم إتجه إلى التلال العديمة الممرات.

إستخدمت يدي لأول مرة في التحقيق. و بعد ذلك حصلت على درجة معقولة من التعود على الفن القاسي الصعب

إستيعابه ألا وهو أن التحقيق مع العرب العمانيين أمر يصعب فهمه و غامض جدا و لكن هذه هي بدايات. لقد واجهت حائطا صلدا مكون من ثلاث طبقات متداخلة.

الأولى هي عدم قدرة العربي التمييز بين الحقيقة و الكذب و بين الواقع و الخيال و هذه خاصية فطرية ولد بها العربي. الأوروبي في ظروف مثل هذه يحاول الخداع و الكذب و المراوغة لوقت قصير و لكن عندما يتم مواجهته بالأدلة و البراهين و أن إدعاءاته غير صحيحة و بعد أن يقتنع أن المحققين معه يعلمون أن ما يقوله غير الحقيقة يعاود و يستسلم بصمت و يقول لمعذبيه أنه ليس لديه ما يقوله و يطبق على شفاهه بينما يستمر المحققون في إيدائه و لكنه لا ينبت بأي كلمة. و لكن ليس العربي ... ليس العربي و لا بأي معدل و ليس عربي عماني راعي غنم. فهو يستمر بالقسم مستخدما أكثر أنواع القسم عاطفة ... يقسم بأن لديه ستة أصابع في كلتا يديه و أن السماء خضراء حتى نهاية الخليقة. و بذلك و مع شكي و دليل آثار الأقدام و الصراخ بصوت عال واضح كوضوح صوت المؤذن بأنه إستقبل ضيفا خلال الليل ... كل هذه البراهين و الأدلة تناقض الحقيقة. لم يحاول القول أن الزائر أتى ليحصل دين أو إنه عمه المفقود منذ مدة ... فقط قال انه لم يكن هنالك زائر. إنه مثل شخص آخر مشكوك فيه و قمت بالتحقيق معه بعد ذلك عندما واجهت صعوبة في التحقيق في القضية. ذلك الشخص كان لديه ختم واضح في جواز سفره لدخول و خروج البحرين و عندما سألته عن زيارته للبحرين و الختم الذي في الجواز قال أنه لم يغفل نظره عن جواز سفره لحظة واحدة و أنه لم يزر البحرين في حياته على الإطلاق.

الحجرة الثانية المنيعه هي العقيدة... و هنا واجهت مرة أخرى ما واجهته و صارعتة و خضعت له في أيامي الأولى في الشارقة هو الرغبة الجامحة في الصراخ عندما يتم ذكر اسم الرب كنوع من الحاجز النفسي. أنه من دون جدوى سؤال راعي الغنم العجوز سؤال له صلة بذلك. فسوف يكون رده و بسهولة: "الله أعلم" و إذا ضغطت عليه بالكلام بأنه من دون شك الله يعلم و لكنه هو أيضا يعلم فيكون الرد: "الله هو أفضل من يعلم". و عندما يتم تهديده بالتهجم علي العقيدة يصر على الإنكار و يلتوي بشكل ظنا منه "كل الأمر بيد الله". تسأله عن اللغم و يشرح لك و بكل صبر و تأنية أنه بمشيئة الله مثله مثل أي شيء آخر يحدث في الكون.

و أخيرا هو كبير سنه و مصيره المحتوم الذي لا مفر منه و لا ينفع تضرع و إستجداء و لا تهديد يشفع. علمت في وقت لاحق أن الفتى الشاب يمكن إقناعه أن يتأمل بعمق بمصيره في السجن و ضياع حياته داخله و يمكن مقاضاة الحكم عليه و العفو عنه شريطة تعاونه مع المحققين ليقضي حياته خارج السجن و لكن مع هذا الرجل العجوز الكهل فهذا الأمر لا فائدة منه فكل مافي حياته التي قضاها مع الغنم ناضب و كل ما يتدفق في عروقه لا يسوى عملة حديدية أقدمها له بالمقابل.

سلمته إلى الوالي.

توجد في باطن قلعة الوالي زنزانة ضيقة "Dungeon" و في تلك الزنزانة يمدد السجين ساكنا بذل كالدواجن و كالوحش الجائع لطريدة و بالكاد يستطيع الحركة. و تدعى هذه الزنزانة مقطرة "Maqtara" إن قضاء يومين في المقطرة كافيين بشكل عام ... أخبرني بذلك الوالي عند استلامه لسجيني و إسبوع في الحالات المستعصية. قال لي عن رجل الذي بدون أدنى شك قتل زوجته. و ان جريمته ثابتة عليه من دون خلاف و لكن نتيجة لبعض الإجراءات الغريبة في القانون العماني و التي تستلزمها قضيته بأن يقوم هو نفسه بالاعتراف بالجرم و الذي رفض الرجل الاقرار بجرمه. و بذلك تم تسليمه للمقطرة. و بعد أسابيع عدة تم إطلاق سراحه ... و حسب رواية الناس المحليين ... إذا كان لم يعترف بالجرم ... برئ من الجريمة. لكنه ظل معوقا ... يعرج بقية حياته.

إلى تلك الزنزانة الجدلوية أخذ الوالي راعي الغنم الذي تقصينا أثره لعلنا ننزع منه اعترافا .و لكنه استسلم و بصبر و خنوع مرددا أن هذا الإجراء ما هو إلا إرادة الله. الرقيب سيف كمسؤول "عارضة التنصت" و الذي كان رجل مأدب و طيب كان يزور هذا السجين كل يوم صباحا و مساء يعده بإطلاق سراحه إذا قال الحقيقة او جزء منها و التي أصبحنا نعرفها ... الرجل حتى الآن لم يعترف فيما إذا كانت آثار الأقدام لإنسان على الإطلاق. و لكن كل ذلك من دون جدوى فعزيمته و إصراره اصبحا اقوى بقدر ما أصبحت مفاصلة جامدة.

كذلك أنا زرتة عدة مرات ... كانت زنزاناته مظلمة بالكامل عدا تلك اللحظة التي يتم خلالها فتح الباب. و كان يجلس ململما نفسه فوق كومة من القش و التي كانت سريرة و كرسية و مرحاضه كما كانت لمن كانوا قبله.

الزنزانة (المقطرة) كانت عبارة عن كتلة خشبية بطول ٦ أقدام و عرض و سمك نحو ٣ أقدام لا يعرف من أي نوع من الأشجار الضخمة تم صنعها ، إنها قديمة جدا حتى أن ميلادها و أصلها مجهولين و لكن يعتقد أنها تؤرخ إلى تلك الأيام التي كان فيها سلاطين و أئمة عمان لهم نفوذ و اتصال مع كافة غابات أفريقيا و كانوا يستطيعون اختيار النوعية التي يريدونها. خلال ذلك العمود الضخم يتم حفر حفرتين. تتدلى برأفة من الجانب الآخر قدما السجين المقيدتين بسلسلة حديد و عرض العمود صمم بحيث لا يمكن للسجين أن ينحني و لو بشكل بسيط و لو لتمارين عضلات رجله كما أن الركبتين مغلولتين جامدتين و كل ما يستطيع عمله هو تحريك أصابع رجله. بعد مدة يتم إدخال قضيب صلب لتضييق المساحة و على ذلك تشد المفاصل و تصبح متصلبة كما يحدث في مرض التهاب المفاصل الشديد. و يوضع إلى جانبه على القش طعامه في صحن من الصفيح مكون من تمر أسود لاصق و كوب من الصفيح به ما يمكن أن نسميه قهوة.

لقد كان دائما مؤدبا و بعزة و كبرياء. كنا نحیی بعضنا بكل أنواع و إجراءات التحايا المعروفة في البلاط السلطاني. و بكل حزن كنا نسأل بعضنا كيف نحن و كيف أحوالنا من قبيل المجاملة. و أكدنا لبعضنا الآخر أننا شاكرين الله على نعمه و عافيته. و تبادلنا الأخبار و العلوم بالطريقة العربية المشهورة و نقلنا لبعضنا الآخر أنه لا توجد لدينا أخبار. لقد قال لي أنه ليس لديه شكاوى. و أن حراسه ممتازين و فوق العادة. و أن نصيبه هذا هو

بإرادة الله و ليس بسببهم كما قال لي أنه لا يحملني أي ذنب و مسؤولية لما هو فيه ... و لكنه لم يتفوه بأي معلومة أخرى عبر شفتيه.

إحتفظنا به هناك لمدة أيام ... لقد اقتنعنا أنا و الوالي أنه مستعد للمكوث في تلك "المقطرة" حتى آخر حياته. الأمر الذي سيكون تعيسا في كل الأحوال و أنه فقط أمر غير مريح في هذه "المقطرة" بسبب عدم قدرته على تحريك رجله. تركناه يمضي متمنيا لنا كل الخير و حسن الدعاء و خرج يعرج يرمش بعينه نحو ضوء الشمس و لم يصاب بأي أذى مزمن أو إصابة مزمنة. لقد كنا نقابله دائما بعد هذا مراقبا قطيعه على جانبي الطريق ، و كان دائما يبادلنا التحية كأصدقاء حميمين.

مضت الآن نحو ست سنوات منذ وصولي إلى شبه الجزيرة العربية و لكن الشخصية العربية تزداد غموضا بالنسبة لي أكثر من أن تكشف عن نفسها.

عندما كنت لا أزال ضابط استخبارات في كتيبة مسقط حصلت على زيارتي الأولى لداخل كوت الجلاي. الجلاي كان سجنا للسلطان و يقع على ميناء مسقط. لقد كان أكثر الأشياء رعبا في كل أنحاء عمان و مجرد ذكر الاسم يؤدي إلى توقف الحديث بين جانبين وصيته يحمل ذلك الصيت الذي حملته سجن "الباستيل" أبان الثورة الفرنسية أو سجون ال "تورويمادو" في أسبانيا. و في الجلاي تم الزج بقاتل أتو ثويست في البريمي عام 1953 أن من لم يزورا ذلك المكان يلغنون رحمة و رأفة السلطان الساخرة. و أن من زج بهم في سجن الجلاي لا يملكون إلا الرعب من قسوة الحكم.

لقد تم بناء الجلاي بواسطة البرتغاليون عندما احتلوا مسقط في القرن السادس عشر. أنها قلعة حصينة رمادية فوق جبل صلد شديد الإنحدار. إن مرسى ميناء مسقط معزول و يعتبر محصنا طبيعيا و محاطا بحلقة من الجبال البركانية العارية مبني عليها قلاع مجزأة أو أبراج حراسة منتشرة فوق تلك الجبال. و كلما ارتفعت درجة الحرارة تنبعث من هذه الحلقة الجبلية إشعاعات حرارية تنعكس على الأمواج المتهداية كأنها حمام بخاري على المرسى و تكون قلعة الجلاي محور هذه الإشعاعات المرتدة. هنالك بعض الأحيان ينبعث نسيم رطب يهب على المكان برائحة السمك المتحلل. إن تحصينات الجلاي موصولة بواجهة البحر في حالة الجزر بشريط ساحلي رائحته قوية و لكن في حالة المد يصبح المكان جزيرة و معزولا بواسطة مياه البحر ذات اللون الرمادي الزيتي.

الجدران كلها تطل على جبال صخرية صلبة و الطريق الوحيد للدخول أو الخروج هو عبر مجموعة من درج السلالم الدائرية المتعبة التي تنتهي بمبنى محصن يتمايل بخطورة فوق سطح البحر. في الداخل و في قمة الصخرة يوجد فضاء مفتوح محمي من جانب واحد بصف من المدافع الضخمة موجهة إلى البحر من خلال أقواس مثبتة في الجدران و في الجانب الآخر محمي بقطع حجرية مثبتة على الواجهة و بها نوافذ بها قبضان حديدية. أن وجه القلعة

العالي القبيح يمكن مقارنته و وصف من غير مبالغة بأنه شبيه بأحياء الفقراء الطويلة في غلاسجو .. (Glasgow) و لكن أسوء من ذلك كله هو ... الصمت .

أن الحراس في الجلاي تم تأسيسهم بواسطة كتيبة مسقط و يستلزم تفقدهم من قبل ضابط و بخلاف الضابط المناوب من كتيبة مسقط ذلك الضابط المنفذ المقاتل (C.O) و الضابط الطبيب و القائد الأعلى للكتيبة لا يسمح لأحد رؤية هذا المكان البائس التعيس. ليس لدي رغبة في زيارة أخرى لهذا المكان لقد شعرت بالإحباط و الإكتئاب و الجنون العقلي. السجناء العاديون يتم تقييدهم بشكل دائم بأصفاد حديدية بين كواحلهم. و مؤونة الماء القليلة في ذلك القرن البخاري كأنه نوع من الإثارة و الإغراء و الضحك. السجناء الأكثر أهمية يودعون في زنانات إنفرادية و بشكل دائم. أن قائمة هؤلاء السجناء تشمل عما غامضا للسلطان الذي قضى معظم شبابه في الجلاي لمنعه من إدمان شرب الخمر و كذلك ابن عم من بعيد للسلطان تعرفت عليه في كتيبة ساحل عمان كسائق شاحنة و الذي أخذ يتجول في البلاد شارحا عن ما يعتقد عن علاقته المهيبة الجليلة بالسلطان الأمر الذي اعتبر تهجما و تشمل القائمة أيضا أحد أنجال سليمان بن حمير و الذي اعتقل في نزوى في ١٩٥٧ و كذلك الغير محظوظ الذي وثق كثيرا بكلام السلطان ابراهيم بن عيسى الذي طلب مقابلة صاحب السمو بعد تخليه عن تمرده في الشرقية في ١٩٥٦. و كان يوجد رجل مجنون احتفالي و الذي كان يحيي كل الزوار البريطانيين بشعور يلمس القلب قائلا "God Save the King" ملوحا بعلم وهمي لبريطانيا "Black Jack" و كان يوجد قتلة أتو ثويست. و أيضا يوجد عددا كبيرا من مرتكبي الجرائم الكبيرة و الذين تتراوح جرائمهم بين الطعن في الذات السلطانية و الديون. المكان بأكمله يبدو أنه يبكي بصمت في ذلك الجو المفعم بالحرارة العديم الأمل .

أن الجلاي كلمة يقصد بها صنع المعجزات بالتلويح بالرعب و التهديد المطلق في وجه الأسير الغير متعاون لنزع منه الإعتراف. و لكني حتى هذا الوقت استخدمت "المقطرة" في الرستاق و الخطر الغامض للمصير المجهول في تحقيقاتي. و لكن مهمتي القادمة أعطتني المفاتيح و الجرأة للتحدث و بقوة عن الجلاي الرهيب و التهديد بهذا السلاح المرعب .و شعرت أنني أكثر جاهزية لأكون رئيس استخبارات السلطان.

١٥. إرهابيان وهميان (Two Improbable Terrorists)

كان الحبسي مشعوذا من تنجانيقا. والده كان عمانيا عربيا و والدته أفريقية سوداء و موهبته السحرية توارثها من القارة السوداء و العرب. وجهه كان مثل الكاهن الروحي الهندوسي (Guru) و عيون سفنجلية. و كان يمارس التجارة الروحانية و الشعوذة و كوظيفة جانبية عمل مهريا للألماس في تنجانيقا ... و عندما كانت المشاكل التي أحدثها طالب قائمة و التي لم يكن سمع عنها ... و في أحد الأيام تتبع أثر أحد الأشخاص الذين يطالبهم بعض المال

بشكل لا أحد يعرف. هذا التتبع الخارج عن الطبيعة الذي سلكه بمجهود فردي قاده إلى دار السلام و من هناك إستقل سفينة عربية متجهة إلى أرض البخور و منها إلى السواحل العمانية جنوب مسقط و من هناك اتجه إلى التلال الملونة الناعمة و الأشجار الخميلة لمنطقة الشرقية و منها إلى قلب الجبل الأخضر. قاداته عيونه السحرية بكل ثبات إلى ممر لعمق ميل واحد و منه إلى الأعلى ... إلى السفح المقاتل في الجبل الأخضر.

هنا تخلت عنه روحه الشيطانية فقد ألقت القبض عليه زمرة طالب و أقتيد في الحال عبر أقرب ممر إلى الشريحة حيث تم تكبله بالحديد و حجز داخل كهف. عقب هذا تبع فترة سجن طويلة التي حاول فيها السجانون إقناع الحبسي أنه جاسوس للمسيحيين و يجب عليه الاعتراف. قاوم الحبسي قائلاً أنه قدم من أجل تحصيل دين ... و بعد ذلك عادت إلى صدره روحه الشيطانية. لقد أحضر معه من تنجانيقا مبلغاً كبيراً من المال قام بإخفائه بشكل محكم داخل ثوبه. هذا المبلغ لم يلاحظه سجانوه و استطاع فيما بعد توجيه الأمر و إقناعهم بفك قيده و إرشاده الطريق إلى أسفل الجبل.

بعد ذلك ظهر كروح مسكونة في العوابي حيث ألقى القبض عليه مرة أخرى من قبل جنود السلطان الذين حاولوا بقوة إقناعه أنه جاسوس لطالب و أن عليه الاعتراف. و لكن المغمور الحبسي عاد ليطفو على السطح من جديد بروحه المرنة الساحرة المتجددة قائلاً و مدعياً لحراسه أنه في الحقيقة ليس إلا مهرب ألماس متسكع من تنجانيقا ... تم تسليمه إلى كولين ماكسويل الذي حقق معه بكل تعمق و دقة حول ما شاهده و ما سمعه عندما كان ضيفاً على الثلاثة الغير مقدسين.

بعد ذلك تم توظيفه و إضافته في قائمة المعاشات كعميل سري غير نظامي و في نفس الوقت ألحق نفسه بي عندما كنت ضابط استخبارات القوة.

لقد وضعت وظيفتي الجديدة عن قصد من دون وصف وظيفي محدد و كنت حراً بعمل ما يحلو لي و كما أشاء. أين و متى يروق لي بشرط واحد فقط هو أنني أقوم بتقديم معلومات مفيدة بين فترة و أخرى و بشكل متكرر. كنت مسؤولاً عن كل مناطق عمان و كانت مهمتي هي تأسيس و تكوين اتصالات مع العالم الخفي و تفقد ضباط الاستخبارات في المناطق و محاولة ربط مجهوداتهم الشخصية في شبكة متجانسة متوافقة و التحقيق مع السجناء و إصدار تقارير إسبوعية و شهرية و ربع شهرية عن الوضع الأمني لنشره على وحدتنا و رفعه إلى شبكة الوحدات العليا في الجيش البريطاني و وزارة الخارجية البريطانية.

أصبح الحبسي شيطاني المعتاد و المفضل و لبعض الوقت إلى أن خبوت قدرته و أصبح إسمه و وجهه و الرعب الشديد اللذين يوحياه في العمانيين الذين يؤمنون بالخرافات مدعاة للفضول الشديد مألوفاً. الحبسي يستحق بالفعل جهاز استخبارات مستقل بحد ذاته. استخدمته في غالب الأحيان للتحقيقات. الرجال الذين يظن أو عرف عنهم أنهم من المتعاونين مع طالب يتم وضعهم في زنزانة صغيرة إنفرادية مع الحبسي و لفترة قد تطول مدتها حسب احتياجات

التحقيق. بالجلوس فقط فوق أرضية الزنزانة يتمكن مساعدي من جلب معلومات سرية من ذلك الأسير الغير مشكوك فيه حيث يقوم بعدها بتمريرها إلي لعمل تقارير عن التحقيق و التي أنال الشكر و التقدير على معظمها.

في أحد الأيام قابلنا عينة عنيدة غريبة ، و علمت بدون شك أن عيسى كان أحد جنود طالب خلال معارك الجبل الأخضر. و علمت بشكل مؤكد أنه تم تدريبه بواسطة المنفيين بطريقة فنون الغطس العسكرية و أنه في الوقت الحاضر أرسل إلى قريته إنتظاراً لتلقي أوامر الانقضاء السريع. لدي ملف كامل عن الرجل و و الشكر يعود بذلك لأحد ضباط الاستخبارات في المناطق. لكنت كنت أعرف الكثير عن عيسى و بقدر ما أعرفه عن ووترفيلد. و لكن لم يقل كلمة. إن الوضع مرة أخرى شبيه بالرساق و الراعي. أنه لم يتكتم و لو يقل "ليس لدي شيء أقوله" لقد جاب و رد على جميع الأسئلة بكل إحترام و مودة و لكن بشكل مخادع كبير. و عندما يتم الضغط عليه ينفجر في البكاء و يجعل المقابلة إلى تعاطف و تأثير في القلب.

حتى الحبسي لم يستطع عمل أي شيء معه بطرق التنويم المغناطيسي المعتادة.

و لذلك قام الحبسي بالجوء إلى الأركان الغامضة في الصيدلة العمانية و أتى بدواء الحقيقة. كان هذا الدواء مسحوق بني اللون مركب من بعض الخضروات من منطقته و التي تستحق التحليل الطبي. كان فعل المسحوق مذهلاً برغم أن الحبسي ليس متمكناً من هذه الخلطة.

لقد وضعنا خلطة المسحوق في شاي عيسى. و الحبسي أكد لي أنه بلا طعم و أن السجين سيشرّب الشاي من غير أن يلاحظ التغير في طعم الشاي. بعد ذلك انتظرنا أنا و الحبسي في مكتبي لمدة نصف ساعة منتظرين مفعول الدواء.

عندما حان الوقت توجهنا إلى السلم هابطين إلى زنزانة عيسى. تقدم الحبسي بروية و انا اتبعه. و قفت على الجانب للمشاهدة بدون حاجز بينما توجه الحبسي للعمل. و بكل هدوء و سكينه و كساحر صامت قاد السجين إلى الماضي مثل الطبيب النفساني يأخذ مريضه إلى أيام الطفولة. كانت فكرة الحبسي جعله يتحدث عن أيامه القريبة في المنفى عن تدريبه عن رفاقه و ليصف تنظيم المتمردين و الكشف عن خططهم و للتحدث عن تلك الأمور كما يناقشها مع رفاقه قبل أن يعود إلى عمان .

و لكن الحبسي أخطأ في حساباته. بعيون حالمة و وجه أحمر فتح الرجل فمه و بدأ بالحديث مستخدماً الفعل المضارع عن أيامه في الجبل ... ثم قال بكل إستغراب: علي أن أذهب ... "لقد تأخرت خلفان سيقلق علي و سوف يسأل أين أنا". أن خلفان الذي ذكره قد قتل منذ نحو عام و نصف. "أنه ينتظر."

بينما كان الحبسي يقوم بجهد دؤوب لاستعادة ذاكرته للوقت الحاضر أصبح عيسى أكثر يأساً و قلقاً على مواعده مع خلفان المتوفي منذ مدة. أخذ يهذي بخوف عاطفي و يتحدث عن تأخره عن الموعد و قام من سريريه واقفا محاولاً

الخروج متجها نحو الباب ... الأصفاد الحديدية في رجليه أعاقَت سيره و لكنه استطاع أن يبعدها عن حركة سيرة و عاد سائرا متجها نحو الباب بينما كنا نراقبه بذهول و شبه مشلولي الحركة. مسك قبضان الزنزانة و استطاع ثنيها الأمر الذي جعل الحبسي يقفز واقفا على قدميه ... لقد كانت قوة عيسى و هو تحت تأثير المخدر تفوق قوة الإنسان العادي خصوصا في حالة أن الأمر عاجل جدا.

أخذ يصرخ بهول: الكهف ... الكهف ، يجب علي الذهاب إلى كهف خلفان ، يجب علي الذهاب إلى كهف خلفان.

كان هذا كل ما استطعنا الحصول عليه منه. و نظرا لعجزه و حزنه لعدم تمكنه من الوصول إلى خلفان و كهفه استسلم لنوم عميق الذي صحي منه بعد ساعات سليما و كذابا مثل ما كان قبل التجرب. هز الحبسي رأسه بثقة قائلا بندم: اعطيته جرعة كبيرة ... انه عاد بذاكرته إلى وقت طويل ... و تعجبت متسائلا: أي جرعة زائدة تفعل ذلك بإنسان ، و أمرت بمنع استخدام هذا اللواء المهلك مرة أخرى.

كان لدى الحبسي ألعاب شعوذة غريبة في جعبته. لقد كان خبيرا في طاولة الرمال التي من خلالها يتنبأ بالمستقبل من خلال طاولة ينثر عليها الرمل بشكل عشوائي يتم تحديد خطوط و نقاط عليها. و لكن الحبسي كان رجلا حديثا فقد كان يستخدم ورقة و قلم و حين كنا نتقاش في الأمور العادية الطارئة في مكتبي تأتي من وجهه نظرة حاملة و يخرج قلمه و يسحب ورقة بيضاء و يقوم بالكتابة عليها و رسم خطوط و وضع نقاط بينما كان يتأمل إلى الأعلى نحو السقف. و عندما ينتهي من تأملاته و رسوماته على الورقة ينظر إلى الورقة و يعاود مراجعتها كما تكون العملية الحسابية و يضيف الرموز و يجمع و يطرح و كل ما أعرفه أنه يقوم بعمليات تفاضلية لها علاقة بحسابات التفاضل و التكامل و عندما ينتهي من جمع محصلة حساباته ينظر جوابه الذي يبدو أنه اضافة خطوط و نقاط جديدة. بعد ذلك يذهب الحبسي إلى صندوق مغلق الذي احتفظ به بشكل دائم و يخرج كتاب أصفر رث هذا الكتاب هو مفتاح لرموزه اللوغاريتمية. بعد دقائق قليلة من التأمل يغلق الكتاب بابتسامة غامزا بعينه نحوي قافلا الصندوق و يستمر في النقاش و كأن شيئا لم يكن او ان النقاش لا يزال مستمرا بدون توقف. لم يقل لي مطلقا عن ماذا هذا التصرف بالرغم من توسلي إليه و لا حاول إخباري عن سر طاولة الرمل ... و لربما أنا سعيد لعدم معرفتي بذلك.

خلال تلك الأيام أثمرت فروع جهاز الاستخبارات أيضا. ببطئ في البداية و لكن مع بذور تنبت بنفسها ... امتلأ الجلاي بشكل سريع كما امتلأت ملفاتنا.

ضابط استخبارات منطقة نزوى رجل شاب و كان نحيفا بشكل غير طبيعي و له فك مثل تمثال "جزيرة عيد الفصح" أنجز هذا الشاب أكبر نجاح في ذلك الوقت المثير. لعدة أشهر و لسنوات كنا نسمع عن جيش تحرير عمان و هو عبارة عن كتيبة مخصصة لغزو عمان من قاعدة في المملكة العربية السعودية. التقارير من القنصليات كتبت بعناية

و بطريقة دبلوماسية غير ملتزمة تحدثت بنفس الحديث عن هذه المؤسسة الحربية. و لكن كان من المستحيل استيعابها و تأكيدها بطريقة سلسلة معتمدة بأن هذا الجيش من نسج خيال طالب أو حتى بأجهزتنا السرية .

و لكن في أحد الأيام وصلني تقرير طبع بآلة كاتبة و بصفحات عديدة مقصفة كتب بطريقة قاسية وجد له مكانا على طاولة مكتبي في بيت الفلج. لقد كان العرض الاسبوعي لضابط استخبارات منطقة نزوى و يشمل عرضا شاملا عن جيش تحرير عمان ... مثل النازيين مع "سيسيرو" لقد كنا متأثرين جدا بهذا الاكتشاف حتى انه في البداية اعتبرناه مثل "السردين الأحمر" أو محاولة للأثارة و الغيرة ... لقد ساهمت في هذا التقليل من شأن التقرير لأنه كان يحتوي على معلومات استخبارية دسمة لا يمكن تصديقها و توهي بردة فعل قوية.

لقد كنا وقعنا من قبل في شرك مثل هذا الطبق المغربي . أن ضابط الاستخبارات في كشافة ساحل عمان قام مرة بالتحقيق مع رجل يدعي أنه أحد خدم سليمان بن حمير و الذي أعطاه ملفا كاملا عن منظومة المتمردين في عمان. كان التقرير يحتوي على أسماء جميع المدن و القرى بمختلف أحجامها و مقابل إسم مدينة أو قرية قائمة بأسماء و عناوين الخونة و ما يحتويه مخزونهم من خطر.

عبري ... كذا و كذا منطقة ، مقابل مسجد ، بيت فلان الفلاني ، خادم لطالب ، يحتوي على ألغام ، قنابل يدوية و قنابل. حملة تفتيش مكثفة قمنا بشنها في كل المناطق و بالتزامن في مدن العوابي و الرستاق و نزوى و عبري و في كل الأماكن الأخرى التي يتواجد بها رجالنا ... تم تحديد المنازل و تطويقها و تفتيشها ... أما السكان القاطنين و بقدر ما استطعنا أسرهم قمنا بالتحقيق معهم . و بعد أن استهلكنا الكثير من الوقت و الطاقة و البترول و صلنا إلى الإستنتاج الذي لا يمكن تفويته أن الأمر كله ما هو إلا خدعة مضللة أو خطأ. أن الناس الذين تم إعتقالهم أبرياء من أي جريمة خيانة البيوت التي تمت مداهمتها كانت خالية من حتى اصغر قبلة و لم نعر حتى على رسالة تثبت أن من في المكان خاضع للمتمردين. من يكون الشخص الذي أبلغ عن ذلك و ما هي الدوافع ... بقيت إلى الأبد غامضة لنا. و لكننا توصلنا إلى أمر هو عدم تكرار ذلك مرة أخرى.

و لذلك لقي تقرير نزوى المعارضة من العقل ... أنه جيد جدا ليكون حقيقة. و بينما تنقلت من مكتب إلى مكتب ... من "ماكسويل" إلى "ساميلي" إلى "ووترفيلد" كان التقرير يزين و يتوج بكلمات لماعة مثل "ممتع للغاية" أو "جدير بالإهتمام" و بكل هدوء تم وضعه على الرفوف للحفظ. فقط موظفي الصبور قام بالعمل عليه مسجلا كل الأسماء كما يحكمه الواجب في بطاقات توضع في الخزانة.

و لكن في يوم ما كشف الغطاء عن توافقتنا. فقد عثر ضابط استخبارات المنطقة ثلاثة من مجندي طالب الذين كانوا عائدين إلى بيوتهم في إجازة. و أخذهم إلى منزله على أطراف نزوى و قدم لهم القهوة و المأكول و كسب ثقتهم و تمكن من الحصول منهم على إقرار كامل و بسهولة. و من غير تلوؤ أو مجهود أرسل التقرير الذي حدثتكم عنه إلى بيت الفلج حيث إطلعنا عليه. بعد ذلك سمعنا الكثير عن جيش تحرير عمان كما عرفنا عنه من مصادرنا. و خلال

الأشهر التالية قمنا بشطبهم من سجل جيش تحرير عمان واحدا تلو الآخر ... كلما إعتقلناهم و تحدثنا معهم و أطلقنا بعد ذلك سراحهم. كان طالب يدير عصابة ضغط في حقول النفط حيث يعمل الكثير من الشباب العماني و كان معظم هؤلاء المتمردين المترددون سعداء جدا بتوقف عن الهروب و المطاردة. بعضا منهم أصبحوا عملاء للاستخبارات ... الغزو الذي تم التهديد به لم يحدث على الإطلاق.

في تلك أيام أيضا استطعنا حل لغز "القصير". فعدة سنوات كنا موبوئين بالرجل. كشافة ساحل عمان أرسلت لنا إشعارات بشكل منتظم حول نشاطات القصير المرعب ، تبلغ عنه أنه هنا و هناك و في كل الأنحاء ، سيارته اللاندروفر تظهر في فترات مرهقة و بألوان مختلفة في أي مكان بين أبوظبي و نزوى. أن إسم هذا الفطر المتحرك احتكر التقارير الاستخباراتية. القصير الذي يتحرك بكل سحر و براعة وفق تلك التقارير و القصير الذي يزرع الألغام ... قد تملكنا. إضافة إلى أن إسم العزيز "Grock" نعم العزيز "Grock" قد زين تلك التقارير. نعم "Grock" العديم الأسنان حاكم البريمي تم ضمه بقوة إلى المسرحية و بكل إعتراض مني. لقد قيل أن القصير يزور "Grock" في الليل و أن "Grock" يثق بالقصير و كذلك أن القصير يستخدم سيارة "Grock" اللاندروفر. بدأ الكشف بالضغط للعمل على نقل صديقي القديم الكومدي.

لقد كان بمساهمة "Grock" استطعنا حل اللغز نفسه. لقد استعدت أيامي في البريمي و تذكرت أنني طلبت من "Grock" مقاولا و رجلا لحفر بئر الماء الملوثة ... و تذكرت الرجل صاحب البشرة الطينية القصير القائمة الشبيه بأقزام الأساطير الذي جعل من نفسه معاوننا ل. "Grock" القصير ... يطلق عليه أصدقاءه.

لقد كان هناك دائما إثنان "القصير". الذي كان يرى في جميع أنحاء ساحل عمان و شمال عمان هو مساعد "Grock" متتبعا وظيفته القانونية في إحدى سيارات اللاندروفر الحكومية و التي يختلف لونها حسب لون السيارة المستخدمة. و الشخص الذي يعتقد أنه يزرع الألغام في عمان هو شخص آخر و قد علمنا فيما بعد انه لم يطأ قدما في عمان منذ السيطرة على الجبل الأخضر. أن قصة "القصير" قريبة لطبي صفتها و ملفه تم تحويله إلى الأرشيف.

إننا ببطيء نطبق على المشكلة.

لقد كان لدي ميزة واحدة على الضباط الذين يتعاطون مع وظائف مشابهة في بقية أنحاء العالم. كانت لدي - بشكل إفتراضي - مفاتيح الجلاي. لم أكن بحاجة إلى حكم قضائي أو أي قانون قبل إدخال أي رجل إلى زنايات "Dungeons" الجلاي و ذلك بسبب أن سلطنة مسقط و عمان تعترف فقط بقانون الإسلام السلفي و هذا مأخوذ كلية من القرآن. لقد تم تجميع القرآن منذ ١٣ قرنا و لا يوجد ذكر لزرع الألغام أو تخزين متفجرات أو أي جريمة نتابعها نحن الآن. و يبدو أنه ليس من المجدي تقديم أي من سجنائنا لأي محكمة لأنهم لم يرتكبوا أي جريمة

قرآنية. و لذلك ليس لدينا أي خيار سوى حجزهم بدون محاكمة. السلطات في مسقط كانت متشجعة و متعاونة بحماس حول ذلك. لقد كان علي فقط إرسال أحد سجنائي إلى وزير الداخلية مع ورقة عليها ملاحظة أقول فيها: "هذا كذا و كذا ، أنه زارع ألغام" ليقوم بإستلامه و تقوم أبواب الجلاي بابتلاعه إلى الأبد. لقد وفرت هذه الطريقة على الجميع مشاكل كثيرة جدا.

بهذا كانت الجندرمة بكامل استعدادها. كانت قوتها الدافعة تكمن في شرطي قدم من فلسطين متبطئ مسدس أنه شخص حيوي مجهز للإعتقالات يدعى "Carl Seton -Brown" و به و بجنود جندرمته تم التطويق و التكتم على كل العمليات في المسالك الشمالية منعا لتسرب المعلومات "Seton-Brown". كان رجلا صاحب وجه مكتسي بالشعر و شرطيا محترفا ليس مثل البقية منا الذين كنا جنودا هواه. لقد كانت أساليبه مستوحاه من أيامه عندما كان مسؤولا عن مكافحة الإرهاب في فلسطين ما قبل إسرائيل. ما هي تلك الأساليب ؟ ... لم أعرفها قط و لكنها كان لها مردودا و تأثيرا ممتاز. لقد كان مفعول التحكم في منطقته و دائرته و قيادته صارما فعالا.

مازلنا نصفي الألغام و لكن الألغام لا تزال تنفجر فينا مرات و مرات أخرى. الحفر الكبيرة يتم دثرها و لكن هذ الدثر للحفر مثل تغطيتها بالقماش. العملاء الكبار المؤثرين تم رميهم في الجلاي و لكن كان هناك آخريين ... أقل ريبا و شكا. زارعا الألغام الكبار تم إزاحتهم عن الطريق أو يتم تحذيرهم عندما يتم الإشارة أو الصياح لهم من قبل رفاقهم و لكن هنالك العديد من المجموعات الصغيرة التي لا تزال تعمل. و على سبيل المثال كان هناك سالم محمد و راشد السيابي اللذين ربما كانا أخطر ثنائي وهمي من المتآمرين الذين تعاملوا مع القنابل.

كان سالم محمد مجرد إسم في قائمة ملفاتنا ... لقد أتى من الشريحة عاصمة سليمان بن حمير و قد قام بخدمته أثناء التمرد كحارس شخصي. و بعد الهروب من الجبل الأخضر تبعه إلى المنفى و استمر في خدمته.

أما الآن فقد قام الجنود باعتقال رجل يحمل بندقية حيث أنه تم منع حمل أي أسلحة تخص القرن العشرين. و قد تم التعرف عليه أنه يدعى سالم محمد. التقرير الذي رافقه إلى بيت الفلج يقول أنه عاد إلى الوطن حاملا ألغام مع أحد مؤيدي صالح بن عيسى يدعى راشد السيابي. بحثت في ملفاتي من دون جدوى لذكر إسم لهذا الرجل ... إنه نجم جديد. و لكن تهمة حيازة المتفجرات يمكن تأكيدها و واقعية ... إذا لم تكن ملفقة ... أن مؤلفها كان من الذين تم تطويعهم من قبل أحد ضباط إستخبارات المناطق و الذي لعب دور جاسوس في غرفة حراسة مع سالم ... لم يكن عندي أي سبب للشك في ذلك.

عندما رأيت سالم محمد إنقبض قلبي من ناحية التحقيق معه. رجل في منتصف العمر و حجم ضئيل. كان رأسه كبير جدا مقارنة بجسمه و تعبيرات وجهه لا يمكن مقاومتها. كان يبتسم لي بأدب كلما إلتقينا داعيا الله بالبركات و التوفيق لي و يأمل بكل إخلاص و مودة أن كان بصحة جيدة و طالبا مني سيجارة .

لم يسبق له مغادرة سفح الجبل الأخضر المغطى بالسحب إلا نادرا حتى أصطحبه القادة معهم إلى الدمام ... كان مرة أو مرتين في السنة ينزل إلى سوق نزوى لقضاء أمور محلية و يرجع عائدا إلى بلده مرة أخرى.

و كما أن العمانيين مختلفين عن بقية شعوب شبه الجزيرة العربية كان سالم أيضا بعيدا و مختلفا عن حياة المدن العمانية ذات الحياة المعاصرة نوعا ما في السهل العماني. كان بسيطا مثل الطفل و لكن كانت لديه نوعا من الحكمة الغير غامضة المشتقة من الجذور العميقة للطبيعة. كنا أنا و أياه مختلفان جدا و مبهمان لبعضنا البعض كمثل النسر و الحلزون و كان علي التحقيق معه .

المهمة الأولى و هي الأصعب و هي إختراق نفسيته الطيبة الخارجة عن الطبيعة الغير المعتادة و النبيل الكبير و الفضيلة التي تبدو عليه مكتسبة منذ ظهور الإنسان في الخليقة. كيف يمكن جعله إدراك دورنا الفعلي في التعاطي مع خائن معين و محقق ناقم ... لقد كانت هذه مثل الأحجية و فك لغز. كان فقط ينظر إلي غير مبدي أي تذمر يذكر أو شكوى عن قيوده أو زنزانتة و يبدو أيضا واضحا أن لا يستطيع فهم لماذا أسأله كل هذه الأسئلة.

و لكنه أيضا لم يرد على أي من أسئلتي و لو بشكل مرض بالنسبة لي. كان ولاءه لزعيمه كما أنه ليس لديه إلتزام نحو المحقق الكافر الذي يحاول لأسباب عدة و لغرض في نفسه وحده للتدخل في شؤون ملك النباهنة. إنتهى لقائنا الأول بحرق و غضب بالنسبة لي و بالرضى و اللؤام بالنسبة لسالم محمد.

و عندما زادت مجاملاتنا و نضجت بدأ بالحديث و بالتفصيل و لكن ليس حول أي نقطة مهمة. لقد وافق أنه كان أحد حراس سليمان بن حمير .لقد قالها لي كأني جندي كبير يستضيف أحد معجبيه مقتبسا بعض العبارات من الأيام البطولية الخوالي. نعم ... أوما برأسه متشجعا و بفخر ... لقد كان مع سليمان في المنفى. و لكنه شعر بالقلق و الشوق إلى الوطن في بلاد الغربية و طلب القاعد الذي تم منحه إليه. و بذلك قام برحلة العودة إلى الوطن بدون أن يسبب مشاكل حيث لم يتوقع ... و بدون شك كانت مشيئة الرحمن القادر ... أن يعتقله الجنود و يقع في الأسر.

و يأمل ... و لكن لا يتوقع ذلك ... بأن أقوم أنا أو يقوم رؤسائي بإطلاق سراحه في القريب العاجل و يعود إلى بلاده. قال: "نعم لقد كان رفيقه في السفر يدعى راشد السيابي الذي قابله في الطريق و الذي إنفصل عنه عند وصولهم عمان. الألغام ... محركا رأسه ... لم يسمع عن هذا الشيء مطلقا . بندقيته ... تم إعطاؤه إياها من قبل صديق .

الخطوة الثانية كانت واضحة. لم أستطع إحراز أي تقدم مع هذا المخلوق إبن الطبيعة حتى أقوم بمسائلة رفيقه راشد السيابي و في النهاية واجهتهم ببعض بطريقة كلاسيكية شبيهة بالبرتوكولات الفرنسية الفاخرة. طلبت إحضار راشد. و وجد بسلام يحلب بعض الغنم في بلدته المليئة بالأشجار و يبدو أنه لم يكن لديه فكرة عن سبب إستدعائه ... فأتى طوعا بنفسه.

كنت اتوقع نوعا من الانفراج في التحقيق مع راشد السيابي و لكنني سرعان ما تخلّيت عن آمالي في ذلك. لقد كان رجلا كبيرا بتفكير محير و مظهر مثل الحيوانات ذات الحوافر . أنه ماعز تمشي على رجلين. ألقى التحية علي بحركة و ابتسامة خالية من المعنى التي لم يتغير طابعها منذ اللحظة التي رأيته فيها إلى اليوم الذي ودعته فيه مدة ناهزت الأربعة أسابيع. راشد السيابي غمرني بأحاساس غير تفاؤلي و ليس أكثر من الذكي و البسيط جدا سالم.

راشد السيابي كان صريحا للغاية و بالكمال. مبتسما بلطف و بصلافة ... قالها بكل وضوح أنه لم يحضر أية ألغام مع أي سالم محمد. أنه لم ير أو يسمع بمثل ذلك الاسم. و علاوة على ذلك أنه لم يسمع بكلمة "ألغام" في حياته من قبل عندما سئل إذا كان كان أحضر ألغاما من عند صالح بن عيسى. و أنه لم يرجع عن قريب من الخارج مع و بدون سالم محمد. أنه لم يرجع من أي مكان. و أنه لم يذهب إلى أي مكان في حياته ... أبدا. لقد بدا مثل حيوان الساطير في الأساطير الأغريقية. كان يتنفس بطريقة بخارية عفنة.

لم أستطع كسب أي معلومة حتى ولو إنشا واحدا من هذا حتى هذه اللحظة و بالتحدث إلى الإثنين المجنونين على حدة. و لذلك قررت أن أرى ماذا يحدث في حالة جمعهما ببعض و التحقيق معهما. هاهما أتيا ... سالم محمد يدعو لي بالبركات بأدب و احترام و بيدين مرفوعتين و قلب نظيف بينما راشد السيابي كانه يجتر طعاما رطبا. نظر كل منهما إلى الآخر ... كيف حالك يا صديقي سأل سالم محمد ... من أنت سأل راشد. جلس الإثنين على الأرض كل واحد منهما و قدميه المكبلتين ملوية تحته. أوما سالم رأسه بأدب نحو الغاضب القلق راشد الذي بدأ و كأنه محتار حول كيفية تعرف سالم عليه.

المحادثة توقفت مثل ثقل القيود التي تطوق السجينين إلا أن نطقت كلمة ... جلالي ... جلالي ... و صرخت بأعلى صوتي ... جلالي المكان الذي أرغب بإرسال أي سجين يقوم باستثارة غضبي أولئك و على سبيل المثال الذين يكذبون علي لأنني لدي من الفضائل تمكيني من عدم احترام من لا يقدرعون العقائد و المبادئ الفاضلة. راشد فقط نظر إلي و لكن سالم إلتفت إليه و قال له ببعض السخونة أن لا يكون أحقق أكثر من اللازم . إذا كان راشد يريد الذهاب إلى الجلالي ... قال سالم ... فإن هذا شأنه هو و لكن سالم كان قلقا أن يأخذه راشد معه إلى الجلالي. لماذا ينكر أنهما عادا إلى البلاد معا ؟ ... سأله سالم بكل عاطفة. إخترت هذه اللحظة لصرف سالم و التركيز على راشد الغير سعيد الذي كان الآن يرتعب.

أقنعت راشد بأنني على علم بكل سفرياته قمت بتضييق الخناق عليه ... ألغام ... قلت له ... ألغام ؟ ... رد علي بسذاجه. سالم قال لي عن ألغامك ... سالم و واصلت الحديث ... سالم رجل حساس ... سالم سيذهب إلى بلاده قريبا ... لقد قال لي كل شيء عن ألغامكم و بذلك سنكافئه بإطلاق سراحه ... أما أنت ... ختمت حديثي ... أنت من جانب آخر ستذهب قريبا إلى الجلالي إلا إذا بالطبع إخترت التعاون معنا.

تبع ذلك أيام عدة من هذا التحقيق. قمت بمقابلتهم لمدة طويلة شاقة و مملة مجتمعين منفردين و التبادل نهارا و ليلا

في زنراتهم و في مكتبي. أطلقت زمام "الحبسي" عليهم عدة مرات و كذلك مجتمعين و فرادا. قمت بالتهديد و تطبيق عقوبات و أساليب أقسى كل مرة ... مكبلي اليدين و القدمين و منعت عليهما السجائر و تم عزلهما في زنرات إنفرادية ليتأملوا بعزلة استمرت أياما ... و بالسجن الطويل و بهذه الأساليب إستطعت تحطيم براءة سالم و الغباء المفرط والشاق لراشد. لقد اتهم كلاهما الآخر بحماس. الآن استطعت فهم و السيطرة على شخصيتهما و التعرف على أن سالم كان شخصا صادقا و كما يجب أن يكون و يحب أما راشد فكان شخصا كاذبا مراويا ... ساعدني هذا على تقييم شهادتيهما.

و في النهاية ... ظهرت القصة و بالتجزأة و بنوع من الإرباك و التعقيد. سالم حن لدياره في الجبل من منفاه و أراد العودة إلى بلاده. و أعلم سليمان بن حمير بذلك و طلب منه العودة. قال سليمان أنه يمكنه الذهاب و لكن عليه أن يأخذ بعض الألغام معه و يفجر أحد ما عندما يصل عمان. نظرا لسنه و عدم قدرته و لإهماله ... إعتذر سالم و لكن شيخه أصر على ذلك ... فاضطر سالم للموافقة . أنه سيقوم بزرع الألغام شريطة أن يتم تزويده بها داخل عمان و أنه لن يجازف بتهريبها من خارج عمان. رفق سليمان بكل حنق و ذكاء و أشر بصبعه إلى أحد عبيده و أرسل إلى أحد أبناء "حارب بن سيف البادي" الذي كان لا يزال طليقا و الذي صادف أن يكون متواجدا هناك . شرح ابن حارب لرئيس الجبل انه يمكن توفير العديد من الألغام بسلام من الحدود العمانية. سيقوم ابن حارب بمرافقة سالم و سيقوم سالم بجمع هذه الإلغام و يعود بعد ذلك ابن حارب و يواصل سالم طريقه زارعا الألغام في ذلك الطريق.

تم ... قال سالم ، و أرسل الأثنين عبر سفينة إلى دبي و منها إلى الوطن.

في الطريق انضم إليهما راشد السبائي الذي لم يكن على الإطلاق نجما من نجوم المتمردين و لكنه كان مرافقا لصالح بن عيسى في المنفى آملا بوظيفة. و لكن لم يتم توفير الوظيفة و لذلك قرر العودة إلى الوطن. وصل الثلاثة الغير متجانسين إلى دبي و منها انطلقوا إلى صحار. يقع مخيم حارب جنوب صحار وبالقرب منه مزارع نخيل. تاركا سالم و راشد تحت شجرة غادر ابن حارب إلى مزارع النخيل و عاد بعد حلول الظلام و معه حمار و أربعة ألغام مضادة للدبابات حجمها مثل جردل الصابون و بندقية حديثة و مدفع قديم صغير الحجم ... استودعهم الله و إختفى الرجل في الظلام.

سار سالم و راشد على الطريق العام و المتفجرات مخفية بالتساوي بينهما ، و بالتأكيد مرا على دوريات عسكرية عديدة و نقاط تفتيش الحكومة و لكن لا أحد أعطاهما اهتماما و شك بهما ... لم ينتبه أحد لسالم صاحب الرأس الكبيرة و رفيقه صاحب النظرات الفارغة و حمارهما المحمل بالمتفجرات.

تقطن عائلة راشد بالقرب من بعض التلال البركانية على بعد عشرين ميلا من مسقط و من أجل رفقة الطريق ذهب

سالم معه حتى تلك التلال قاصداً أن يسلك الطريق الرئيسي بين مسقط و نزوى فيما بعد. و فور وصلهما إلى سلسلة الجبال السوداء بدأ في المناقشة و الخلاف:

-ماذا عسانا أن نفعل بالألغام ؟ ... سأل سالم.

-أه ... قال راشد

-إننا لن نقوم بزرع تلك الألغام ، أليس كذلك ؟ ... أريد أن أذهب إلى بلادي و العيش هناك بسلام. إذا كنت تريدها يمكنك الاحتفاظ بها.

-نعم ... قال راشد ... و أريد البندقية أيضا.

-لا يمكنك الاحتفاظ بالبندقية و بالألغام في آن واحد ... قال سالم. و إذا أردتهما فسوف أحتفظ بالحمار و كذلك ماذا تريد بالألغام.

-أريد البندقية ... أصر راشد.

-لقد قلت سأحتفظ بالبندقية ... قال سالم بإصرار ... أريدها في الجبل الأخضر هنالك ذئاب. ماذا عساك فاعلا بها هنا؟ أضف إلى ذلك أنك لا تعرف الرماية.

-سوف ابلي عن ألغامك إذا لم أحصل على البندقية.

-و سوف يكون مصيرك في نفس المكان معي.

-أريد البندقية.

تعاركا حول نصيب من تكون البندقية لليومين الأخيرين من رحلتهم. و في النهاية توصلا إلى إتفاق. سالم يأخذ البندقية. راشد يحتفظ المدفع الصغير و الحمار و الألغام. أبرقت عينا راشد. سالم انفصل عنه و اتجه إلى الطريق الرئيسي. حاملا بندقيته بكل فخر و تقدم نحو الطريق الرئيسي (**Highway !!!**) متجها إلى بلاده و لكن صادفته دورية عسكرية التي أوقفته و صادرت سلاحه المزعوم و اعتقلته و أخذته إلى نزوى. هناك تم التعرف عليه و تحدث إليه في زمرته جاسوس ضابط استخبارات المنطقة و ها هو هنا معتذرا و لكن غير نادما أو خجولا.

أما راشد فقد تغلب على وضعه و وصل سالما إلى بلدته و معه حمار و بندقية و لكنه يحمل أربعة ألغام خضراء

كبيرة و التي ليس لديه أي فكرة كيف يشغلها حالها من حال كيفية سيطرة حافلة و لكنها في كل الأحوال تذكر دخول مباشرة إلى الجلاي إذا تم العثور عليها معه. و بكل خوف ورهبة أخبر أخاه بهذا الأمر الذي كان بكل الأحوال و الحسابات مخلوقا أكثر مسؤولية من راشد. أبعد الأخ الكبير الألغام إلى أقصى التلال و طمرها. مكث راشد في بلدته مفكرا كالغنم إلى أن جاءه طلب الإستدعاء من السلطات و هنا أيضا كان متهاونا و متقاعسا و قلقا غير قادر على التغير.

أطلقت سراح سالم و أرسلته إلى بلاده حيث أن تهمته يمكن التغاضي عنها و كذلك استرجع بندقيته.

المشكلة الآن كيف يمكننا العثور على الألغام التي يمكك راشد مفاتيح الوصول إليها. راشد كان أكثر تطرفا و إعاقة من التحقيق الأولي معه و كان عليه الذهاب إلى الجلاي لبعض الوقت كتجربة عقابية تصحيحية. أرسلنا دوريات صغيرة مرتين إلى المناطق التي ذكرها راشد و لم يتم العثور على أي أثر للألغام. و أخيرا اكتشفت الحقيقة ... لقد كان المسكين خائفا من أخيه بشكل كبير ، فإذا ذهب الجنود مباشرة إلى الموضع سيعرف الأخ من أرشدهم و ستكون عواقب ذلك نتائج غير مرجوة .كان راشد في موضع لا يحسد عليه. أنقذته بوقف عمليات البحث و إرسال مشعوذي الأليف " الحبسي" ليسحر الأخ يرافقه أحد مشائخ قبيلة راشد ليعطيه سلطة التحدث و التفتيش ... و أخيرا في ظهر يوم جميل أتى الحبسي حاملا بكل نصر أربعة ألغام ذات منظر رهيب. بعد فترة مفيدة أطلق سراح راشد من الجلاي و أرسل إلى بلده مع إنذار.

قصد "Carl Seton- Browne" مع جندرمته إلى نخيل حارب و قام بالحفر من طرف إلى طرف. وجدوا تحت نخلة صغيرة حفرة كان مخفيا بها شيئا ما بأكياس ... لا شيء غير ذلك.

و هذه كانت نهاية الأمر.

١٦. من فجر "فادر كريسماس (Who Blew Up Father Christmas?) "

"أهلا بك" ... قال صاحب الصوت الجوهري من مكان ما قريب من اليد حيث كنت أصعد السلم المتأرجح بقلق و صوت أنبوب المياه الذي يسبب آلاما في الأسنان يتردد الشبيه بهدير أمواج البحر. و حيث أنني عدت إلى توازني نظرت إلى الموسيقى. لقد كان رجل عربي كبير في السن هزيل الجسم يرتدي ملابس زرقاء و فوطة بيضاء حول رأسه و بعض الأشياء الأخرى. بعد ذلك نظرت إلى الضابط الذي كان يقف بشكل صارم و على أهبة واضعا يده على قبعته في وضع تحية شبيه بالجنود البحارة. لقد كان جاسبر الأدميرال الكبير لأسطول صاحب السمو لقد إلتقيت به على متن سفينته .

حاسب على رأسك من إرتفاع الصارية ... قالها جاسبر بصوته الجهوري الملحي ... هيا أنزل و سنذهب إلى قمرة القيادة ، كان جاسبر يرتدي قبعة بيضاء متقمصا شخصية الكابتن القائد وفق مواصفات قيادة السلطان البحرية ... فتحول حصان جاسبر إلى بحار متمكن بكامل عدته. كانت سفينته ذات محرك مصدي و يرافقه فيها إثنان أو ثلاثة بحارة عرب من بقايا السفن العربية الشراعية و بحارهندي مسؤول عن الصيانة تعلم البحرية في محطة الهند الشرقية هذا التحول لم يؤثر على قدرته أو حديثه ... فالتحول إلى ضابط بحار قد تم.

جلسنا بثبات في مقصورة القبطان و التي كانت أيضا قمرة القيادة مخزن نجار السفينة. قام جاسبر بصب شراب الجن الوردي و كانت الشمس على إرتفاع ياردة من الذراع و بدأنا الحيث عن قصص البحر. و حان وقت الغداء و تناولناه هناك ... كمية من المرق العربي مع السمك و الرز و بعض الصلصة المشهية. "هل تريد الذهاب إلى الرؤوس" سأل جاسبر ... لقد كان شراب الجين الوردي اللون الذي قدمه جاسبر يدعو إلى ذلك ... فوافقت و كانت الرؤوس هي وجهتي الثانية. لقد كانت جرادل مراحيض بدائية ملحقات معقدة من الأنابيب و المضخات و الأحواض .. إلخ و التي يجب أن يتم متابعتها و صيانتها بشكل دائم لتجنب حدوث كارثة. لقد كدت أقع على ظهري في كابينة القيادة حيث وجدت جاسبر في حديث عمل مع بحاره الهندي ومعهم بعض الخرائط. و يبدو أن جاسبر باستطاعته قراءة خرائط و رسوم الأدميرالات حتى إذا كان سيده في البحرية لا يستطيع ذلك. لقد كان لديه صناديق ملئ بالخرائط و أدوات الملاحة مخزنة حول قمرة القيادة و ليس لديه أفضل من أن يقوم بتفحصها الواحدة تلو الأخرى .

كان جاسبر رجلا ذكيا. لقد كان هنالك شيئا غير محدد بخصوصه مما دعاه إلى حب البحرية و هو الآن يحب البحر من و متأثر بها من قبعته البحرية إلى أطراف قدميه. كان يقضي يومه مبحرا شمالا و جنوبا على شواطئ عمان مطاردا لمهربي الأسلحة متفقدوا الولاة المنتشرين في البلاد و مقيم علاقات صداقة مع الصيادين ... بعض الأحيان يرافقه الطبيب ... و هو طبيب هندي مرح و الذي يتصرف بنشاط . هذا الرجل النشط الفعال كان يرتحل في البلاد بشنطة طبية سوداء سوائل من أكسير الحبز حيثما يضعه جاسبر على الشاطيء بالقرب من قرية صيادين بعيدة و على الفور يحيط به رجال كبار في السن محبطين و الذين تزوجوا حديثا من زوجات صغيرات في العمر و اللاتي لا يستطيعون إرضاء رغباتهن. يتجمعون بكل قلق حول شنطة الدكتور السوداء طالبين بكل أدب و مدعاة للرحمة و أصابعهم الصغيرة تشير إلى الشنطة و تشرح حالتهم. يقوم الدكتور بلحس شفتيه و يفتح شنطته و يهم للعمل ... و يقوم بإعطاء مرضاه حقن بها دواء لتقوية القدرة. يؤكد الدكتور أن هذه الطريقة تقنع المريض بفعالية الدواء ... حقنة من غير ألم و دواء من غير طعم يقوم بحقنها في منطقة أسفل البطن المليئة بالشعر ... وما على المريض أن يزيل وسواسه و يستعيد نشاطه ... و عندما ينتهي الطبيب من علاجه يتحول هؤلاء العجزة إلى قمة من النشاط متجهين إلى منازلهم فالوصفة مفعولها بدأ بالتأثير و أن العلاج ناجح حيث أنه دائما كان هنالك تجمعات متحمسة لمقابلة الطبيب حين وصوله إلى قرية ما ... الأمر الذي لم أستطع معرفته ... مثل دواء الحقيقة الذي استخدمه الحبسي ... كان هذا المخلوط السائل لغزا عربيا أيضا.

آخر مرة رأيت فيها جاسبر كان في صباح أحد الأيام الضبابية بعد أن رافقته في تمرين مشترك مع إحدى فرقاطات بحرية صاحبة الجلالة. ولولعه الكبير بزي الأزرق و العمل في البحرية إختلس من صانع الأشرعة و النجار و مهني السفينة بعض المخزونات المذهلة كالصمغ و قماش الأشرعة و حجر مسامي لتنظيف السفن و القار. و بهذه الأشياء رجع إلى سفينته المحكمة بعد أن شرب كمية من الجين الوردي ... رحلت الفرقاطة و اتجه جاسبر إلى طيوي أو إلى أي ميناء آخر مجهول.

و بينما كان رجل الحرب الأشيب النشط يختفي في الأفق ... تذكر جاسبر أنه نسى شيئا ما كدبوس أو مفصل حبال أو صفيحة فاخرة من صفائح السفينة أو حتى بعض الجين الوردي. مهما كان ذلك شيء فقد تطلب الأمر الاستدعاء العاجل للفرقاطة للعودة فورا. بدأ جاسبر بعد أن صعد على قمة صارية السفينة أخذ بإعطاء الإشارات إلى الفرقاطة بشكل مذل و رهيب و كانت ذراعه المليئة بالشعر تقوم بأداء متناسق وسط ذهولي و متابعتي. لقد كان هنالك صمت طويل رهيب و لا تجاوب من الفرقاطة. و لكن أخيرا قام المراقب في السفينة الملكية بالانتباه لتلك الإشارات و عرف أن هنالك أمرا يجب أن يرد عليه ... فأطلق إشارات رادا على جاسبر مؤكدا أنه فهم إشارات. كانت قدم جاسبر الآن ملتفة حول الصارية و محركا ذراعيه بإصرار مطلقا إشارات و مستمرا بمحادثته. قامت الفرقاطة الملكية بعد ذلك بأداء التحية بكل إحترام لجاسبر و تبادلت السفينتان التحية و التناء لجاسبر و التقت السفينتان و تبادل بينهما ما يجري عادة من تسليم في الأمور البحرية و أعطى بحارة الفرقاطة نوع من التحية و النداءات الوطنية البحرية لجاسبر رجل البحر الكهل أرتحل إلى بلاده.

لبقية الفترة من خدمتي في عمان كنت منغمسا في العمل الاستخباراتي. و المنوال الذي كشفناه أصبح أكثر تعقيدا. المشكلة الأصلية كانت مباشرة و معروفة إذا لم تكن محددة: أن طالب في الدمام يقوم بإرسال رجاله إلى عمان لزرع الألغام. هذا كل ما هو هناك بهذا الشأن. كل ما علينا فعله معرفة من هؤلاء النخبة و القبض عليهم واحدا واحدا و عندما نلقي القبض عليه يقوم بالكشف عن بقية زملائه و يكون الأمر سهلا بعد ذلك للقبض على المجموعة التالية.

و لكن تدريجيا و بإكتناز ملفاتي بالمعلومات و الأسماء ظهر عنصر جديد بارز للعيان. لقد وقعت حوادث و التي بدت أنها غير اعتيادية حتى في التركيب الغريب لعمان. "فاذر كريسماس" وزير الداخلية المعتق العتيد تم تفجيره يوما ما. كان على متن سفينة هندية بريطانية ذاهبا لقضاء العطلة في الهند. في ليلته الأولى من الرحلة قرر أنه يفضل النوم بطريقة تكون رجله على الوسادة و رأسه على الطرف الآخر ... لماذا بخلاف التأثير العقائدي ... بقي الأمر لغزا. و على كل الأحوال لقد كان يهيء نفسه للنوم بهذه الطريقة عندما حدث دوي لإتفجار قوي و إمتلأت الغرفة بالدخان و الرغو. قدماه أصيبتا و بحروق طفيفة و لكنه على كل حال لم يصاب بأذى. و التحقيقات اللاحقة التي قمنا بها أظهرت أنه تم وضع قنبلة موقته تحت وسادته و أنه لولا رغبته الغير محسوبة بتغيير موضع نومه كان مصيره الموت نتيجة لذلك الإتفجار.

بعد ذلك كانت هنالك قضية فقد طائرة و هي في الجو التي إتصلت بالشارقة قبل هبوطها المتوقع بعشر دقائق و بعد ذلك لم يسمع عنها مطلقا . ظلت هذه الحادثة لغزا إلى أن ظهرت تقارير من الدمام تتحدث عن إثنين من المتآمرين المعروفين اللذين إنضما إلى ركاب الطائرة بقصد الذهاب إلى الشارقة حاملين معهم قنبلة موقوتة في أمتعتهم. و لحظهما العاثر و إلى جانب الكارثة المروعة لبقية شحنة الطائرة من ركاب قام الأثنان بحساب الوقت بالخطأ و انفجرت القنبلة عندما كانت الطائرة في الجو.

السفينة الرائعة "دارا" إحدى السفن الهندية البريطانية إشتعلت بها النيران و غرقت و معها مئات الأرواح من المسافرين. الدليل و التحقيقات أشارت إلى قنبلة موقوتة. قنبلة موقوتة أخرى انفجرت على ظهر السفينة الرائعة المماثلة "دواركا" و كذلك زورق عسكري بريطاني بالإضافة إلى السفينة التي كان يستقلها "فاذر كريسماس" و تجربته المنبهة.

انفجارات في مطرح الضاحية القريبة لمسقط و التي أصبحت مكانا شائعا للانفجارات . انفجارات الألغام تسمع لأول مرة من بيت الفلج المكان البعيد جدا من مركز عمليات طالب. الألغام و بدون تمييز تزرع في الطرق التي تستخدمها الشاحنات المدنية. انفجرت قنبلة في مكتب خدمات البريد في البحرين كانت موضوعة في طرد معنون إلى السكرتير الخاص للسلطان. إحدى طائرات القوة الجوية السلطانية تم تخريبها بوضع مخلفات أنسجة قطنية وضعت في خزان الوقود و من حسن الحظ تم اكتشاف الأمر قبل حدوث أية أضرار.

معظم تلك الظواهر الغريبة لم يستطع تحسبها بسهولة مثل ذلك الانفجار الذي حدث على طريق إزكي. سالم محمد و راشد السيابي و الجميع لا يمكن تصورهم بأنهم يقومون بزرع قنابل موقوتة في الحجرة المخصصة للحكومة في سفينة عابرة للمحيط أو بخلط وقود الطائرات بالقطن. هذه الآن من تدبير منظمة متطورة تعمل بنشاط. السؤال هو هل هذه المنظمة يديرها طالب ؟ أم هي مستقلة ؟ و إذا كانت مستقلة هل هي متحالفة معه ؟ أم هي منسقة عنه و ضده ؟ حيث أنه من الصعب التخيل أن رجال طالب المتشددون العرب المسلمين يقومون بتفجير السفن ، و لذلك أنه كان من المستحيل التخيل أن هؤلاء يقومون بمثل هذه العمليات التآمرية من غير أن يكون لهم تنظيم راق منظم يساعدهم على ذلك حيث أنهم تواقون أن يروا عودة الإمامة للحكم من جديد.

السلطان كانت ردة فعله كافية و قوية ضد معظم الناس. لقد منع التدخين عدا في الأماكن الخاصة و في جميع مناطق نفوذه. لقد كان القنصل العام البريطاني ضيفا عليه في قصره و الذي كان يخدم بنظام صحي يمكن شرحه و بيانه أنه غريب. كان القنصل يستغل عزلته في جناحه الخاص في صباح يوما ما من أجل أن يأخذ شقطة من سيجارته عندما رمى بقية السيجارة في حفرة حيث يشق طريقه نبع غير معروفة نهايته. لم تمض دقائق معدودة من عودته إلى غرفته إلا و خادم أسود ضخم قرع عليه بابه و دخل عليه و في يديه صينية فضية صغيرة و في تلك الصينية بقايا

سجارة القنصل التي رماها في مجرى النبع. تم ابلاغ القنصل أن بقايا تلك السجارة لو لم يعثر عليها في الوقت المناسب لكانت في طريقها إلى مقر السلطان و سوف يكون الأمر ماداه حادث دبلوماسي غير لائق .

و لكن على الأقل كان السلطان يعيش في القرون الوسطى. و كانت الإمامة تنضوي تحت أيام الرسول. حيث كان السلطان يلعب و يوصف بواسطة رعاياه في المدن بأنه خليفة من القرون الوسطى. لقد كان يوصف من قبل أنصار الإمام بأنه ملعون و أنه شخص شبيه إبليس لا تبعده عنه إلا خطوة واحدة . انه رجل حداثي و موبوء بالعلمانية حيث أن رجال الداخلية المقدسين دينيا نظرون إليه أنه ربيب أوروبا و يعتبرونه مثل روبسبير و لينين. السلطان يمشي على حبل مشدود مثل بلوندن ... محافظا على توازنه. (روبسبير أحد شخصيات الثورة الفرنسية و لينين ثائر روسي و زعيم شيوعي و أول رئيس للاتحاد السوفيتي و بلوندين رياضي (بهلوان) فرنسي كان يمشي على الحبال و عاش في أمريكا.

لقد قمنا بحك رؤوسنا مفكرين و متسائلين ما هو هذا التهديد الجديد الذي نواجهه ؟ ... لقد كنت أسمع منذ وقت عن حزب سياسي سري ينسب إلى بعض الشخصيات المرموقة في مسقط و في الساحل و الذي أشتهر كونه تنظيم سري شيوعي يتم الانضمام إليه بالافئاع. لدي قائمة بأسماء من هم يزعم أنهم منضمون لهذا الحزب و الذين يلتقون بالسر ليلا و يخططون. هل هذا الحزب حقيقة ؟ ... و إذا كان كذلك هل هو تمرد مدمر يهدف للسيطرة و الإطاحة بالحكم أم أنه فقط خلاف مع التوجهات ؟ و إذا كان تمردا مدمرا هل هو مسؤولا عن التهديدات الجديدة ؟ قمت بدراسة و تفحص و تتبع و فلترة هذه المعلومات الاستخباراتية الغير واضحة و خلصت ببعض الحقائق الدقيقة. من كل ذلك الغبار إنبتق إسم واحد و لمرات عدة مثل النغمة في السمفونية . عبد المجيد ... و سرعان ما أدركت أن هذا الرجل هو الأخبار. بحثت في قائمة الملفات لعلي أجد شيئا. لم يكن هناك شيئا يذكر. لقد كان أحد ضباط طالب في الجبل الأخضر خلال حملتنا على الجبل و قد أصيب بجرح و منذ ذلك الحين انسحب من الحياة العامة. و آخر خبر سمع عنه أنه يؤسس عملا حرا في البحرين.

من كل ذلك الغبار إنبتق إسم واحد و لمرات عدة مثل النغمة في السمفونية. عبد المجيد ... و سرعان ما أدركت أن هذا الرجل هو الأخبار. بحثت في قائمة الملفات لعلي أجد شيئا. لم يكن هناك شيئا يذكر. لقد كان أحد ضباط طالب في الجبل الأخضر خلال حملتنا على الجبل و قد أصيب بجرح و منذ ذلك الحين انسحب من الحياة العامة. و آخر خبر سمع عنه أنه يؤسس عملا حرا في البحرين.

بينما كنت أجمع الأدلة ضد رجل الأعمال هذا المثير للجدل كانت مراجعه في قوائم ملفاتنا تتزايد. عبد المجيد ، و كما علمت ، رجلا محبا لبلاده و أسرته و رجل مقتدر ماليا من خلال تجارته في البحرين و أن تأثير بقاءه الدائم في المنفى كان ثقلا كبيرا عليه. أراد عبدالمجيد العودة إلى وطنه أو على الأقل أن تلتحق أسرته به. أن عائلة عبد

المجيد كانت تحت وصاية و رقابة عيون السلطان كرهائن محليين و لم يكن بمقدورهم السفر إلى البحرين و كان عليه أن يعود إلى أحضانهم في بلاده ليلتأم شأن الأسرة

إبن عم عبدالمجيد و صديقه الحميم يدعى زاهر ... صديق سيف القديم في الرستاق.

المكيدة و الخطة بدأت تأخذ مجراها ... نحن وراء عبدالمجيد.

لقد استدعى الأمر قضاء أيام كاملة في منطقة الرستاق مستدعيا أشخاص من العامة بقدر استطاعتي متظاهرا الاجتماع بهم و لكنني في الحقيقة كنت متخفيا لاستشارة شيخ معين من شيوخ المنطقة. و تعاون زاهر معي كان غير مجدي إلا إذا كان الأمر يتم بالخفاء و الموارية. و لذلك تقيت عند الوالي مع استقراطيين متبحرين و متعلقين و العديد من المواطنين الأقل قدرا بكل ضجر و ملل مطلق.

كنت نتيجة هذا العمل الهجومي أن زاهر أخذ إجازة لعدة أيام من بلده و ذهب إلى دبي على نفقتنا مدعيا قضاء بعض الحاجيات المحلية الخاصة.

بعد نحو عشرة أيام من ذلك كنت جالسا في مقري ببيت الفلج مستمعا لجهاز الجرامافون (البشتختة أو جهاز الاسطوانات) عندما سمعت قرعا خفيفا على بابي و إذا بزاهر قادما للقائي. لقد اتصل بعبدالمجيد ... قال لي بكل إثارة كالطفل. و أراني رسالة غير معنونة و التي احتفظت بها حتي استطعت مقارنة خطها بعينة خط يد عبدالمجيد التي لدينا و التي كانت منذ أيام الجبل الأخضر .لقد كان الخط مطابقا لما لدينا.

تبادل الرسائل الأخرى تبع بعد ذلك ... و في المرة التالية التي قابلت فيها زاهر و التي كانت في الرستاق هذه المرة أظهر رسالة مشفرة و التي من خلالها عبر عبدالمجيد عن شوقه و رغبته بالانضمام إلى عائلته و لكنه أشار ان هنالك الكثير من الأمثلة التي تبين قيام بعض العمانيين بالرجوع إلى عمان بحسن النية مقابل تعهدهم بعدم معارضة و محاربة و التعاون مع السلطات و لكنه تم الزج بهم في سجن الجلالي و لذلك فهو لا يثق بالرجوع إلى عمان و ليس لديه الرغبة بذلك .لقد طلب استخراج جوازات سفر لعائلته و خروج سليم من عمان إلى البحرين حيث ينوي الاستقرار هناك. و كبادرة حسن نية قام بتضمين إسم الشخص الذي نفذ عملية التفجيرات الأخيرة كان ذلك الإسم ضمن قائمة الأسماء التي لدينا نتيجة تحقيقات أخرى و لكنه دعم بنية عبدالمجيد الصافية.

بعد ذلك أقنعت "فاذر كريسماس" الأخذ بعين الاعتبار مسألة العائلة - الزوجة و طفل أو طفلين صغيرين - السماح بذلك من حيث المبدأ تمت الموافقة عليه. في الرسالة التالية التي أرسلت لعبدالمجيد طرحت عليه الشروط التالية: عليه تقديم وصفا كاملا للمنظمة التي كانت مسؤولة عن التطورات الجديدة و العمليات الارهابية - أجهزة خلايا

التآمر المتطورة التي قامت بوضع القنابل في السفن و الطائرات و في شوارع مطرح و التي قامت بزرع الألغام في الطرق الرئيسية حول مسقط و التي وضعت القنابل في طرود في البحرين.

تم تسليم شروطتي الشاملة إلى عبدالمجيد من خلال تشفيرات زاهر و العناوين الوهمية. و سرعان ما أتى الرد. على زاهر زيارة عبدالمجيد في البحرين حيث سيتم مناقشة الصفقة بينهم. قمت بعمل إجراءات سفر زاهر إلى البحرين و بعد ذلك و من أجل كسب الوقت أعطيت له الصلاحية بالاتصال و ابلاغ الضابط المسؤول عن الاستخبارات العسكرية في الجيش البريطاني في البحرين ... و بهذا غادر زاهر.

تم تسليم شروطتي الشاملة إلى عبدالمجيد من خلال تشفيرات زاهر و العناوين الوهمية. و سرعان ما أتى الرد. على زاهر زيارة عبدالمجيد في البحرين حيث سيتم مناقشة الصفقة بينهم. قمت بعمل إجراءات سفر زاهر إلى البحرين و بعد ذلك و من أجل كسب الوقت أعطيت له الصلاحية بالاتصال و ابلاغ الضابط المسؤول عن الاستخبارات العسكرية في الجيش البريطاني في البحرين ... و بهذا غادر زاهر .

بالصدفة كان ضابط استخبارات منطقة نزوى - ذلك الرجل الشاب ذو الفك الشبيه بالجلمود الذي اخترق جيش تحرير عمان - في إجازة في البحرين. كان يمشي بالقرب من مركز الضباط للاستخبارات في مساء أحد الأيام لمح صديقي على الرصيف متأهبا لتقديم تقريره بعد مقابلته لعبدالمجيد. تحدث معه ... أخبره زاهر بالتفاصيل و بكل خيال وثقة و تحكم بالتصرف في الحادث قام ضابط استخبارات نزوى مستقلا سيارة أجرة و صحب زاهر للتحدث و التفاهم مع عبدالمجيد.

تبين أن عبدالمجيد رجل له وجه المعجنات و نظرة كالبومة و يرتدي نظارات. رجل شاب ممتلئ الجسم و مغرور. لقد فرض الأمر الواقع قائلا أنه لا يرغب بإحضار عائلته حيث انه في حالة الإطلاق الفوري للعائلة الغير مبرر يضعه في موضع الشك و أنه متواطئ مع السلطات. أنه يريد حماية دائمة مشروطة كتابيا و موقعة و مقسوم عليها من قبل وزير الداخلية. أنه يريد عفوا لنفسه و بعض معاونيه. كما أنه يريد عشرين ألف جنيه إسترليني نقدا. و من أجل هذا ... و قالها بتواضع ... سينسف كيان المنظمة كلية.

و أبان الحديث استطاع ضابط الاستخبارات بذكاء معرفة أسماء بعض المتآمرين من عبد المجيد و التي كانت متداولة و مطروحة للمناقشة لدينا كمتآمرين يجب التحقيق معهم. و لكن عبدالمجيد رفض أن يعطي المزيد و يستمر في النقاش. لقد قال :عشرون ألف جنيه و بعدها نستطيع أن نجد الأمر في أحضاننا. لم يكن مهتما بالتفاوض حول تخفيض المبلغ. لقد كانت البحرين تزدهر و تجارته ناجحة. و المائة روبية التي تستخدم بكفاءة و تأثير في عمان ليس لها قيمة هنا. عشرون ألف جنيه ربما تبدو كشراب البيرة (الجعة) للتاجر البحريني و لكنا تجعل مدير الخزانة الجائع في مسقط يرتعد. قالوا بكل دهشة و خوف لا. و بدأت أعجب من الوحش الذي ربيته ... المسألة كلها خرجت

بسرعة عن نطاق سيطرتي و صلاحيتي. عدت شاكرا للمستوى البسيط لصديقي الذي من الرستاق و ناقشت مع زاهر ماذا تعلمنا من المسألة. و يبدو أننا تعلمنا أموراً كثيرة و معتبرة. كانت لدي قائمة بأسماء قام ضابط الاستخبارات استنباطها من عبدالمجيد كانت مهمة بالنسبة لنا أكثر مما كان يظن التاجر. تمت مقارنة هذه الأسماء بما هو موجود في ملفاتنا .وجدت أن القائمة غير مطابقة و غامضة عن تلك التي قمت بجمعها بصبر و مثابرة من هنا في داخل عمان و يبدو أنه هنالك حزبا سياسيا. المؤامرة الراقية متواجدة و نحن بصعوبة و بجد نفتفي أثرها. كان هناك موظف بنك في قطر (حيث انفجرت قنبلة في الحجرة المحصنة) و كان هنالك تاجر في الكويت كما أنه يوجد أيضا أخوة في الكويت مع بعض أخوتهم في مسقط و أماكن أخرى ... دبي كان لها نصيب. كل هؤلاء القوم كانوا أعضاء في عصابة صغيرة متطرفة من المتعلمين العمانيين (السلطان كان دائما يعتبر التعليم شيئا موبقا و ينظر إليه بنفس النظرة التي ينظر إليها للتدخين). هؤلاء المثقفون الرواد القلائل الذين تمكنوا من التهريب لأنفسهم شيئا من العلم متضامين و متفقيين على كره السلطان. كما أنهم متأثرين بالفكر القومي العربي و شعاراته و الذي كان لا يزال لم يصل إلى مرحلة النضج و الذين كذلك يكونون العداوة للتواجد البريطاني و التأثير البريطاني في عمان و في كلا هذين الأمرين متقاربين مع طالب و يشاركونه فكره فهو الذي كان يزودهم بالألغام و القنابل. و كلاهما يريدان القضاء على حكم السلطان و الوجود البريطاني في عمان. كيف عساهم أن يتفقوا لحكم عمان القديمة التي تعيش القرون الوسطى ... هذا شأن آخر و الذي حتى الآن لم يجدوا الوقت لتدارسه .

كتبنا لعبد المجيد مرة أخرى أنا و زاهر. و أرفقنا مع الرسالة شهادة السلوك الجيد و العفو مع بعض المبلغ المتواضع الذي استطعنا توفيره و طلبنا منه إرسال لنا شيئا كان ينقصنا من المعلومات ... إسم الطرف المتآمر في مسقط. و بكل تأكيد و كما يجب أن يكون رجل الأعمال المقتدر قام عبدالمجيد بتزويدنا بالمعلومات التي أعتقد أنها تساوي المبلغ الذي أرسلناه ظانا أننا لازلنا غافلين عن الشبكة الخارجية الكبرى. أرسل إلينا ما أعتقد أنه مناسب لنا كطعام الدجاج: الخلية المحلية. بعد ذلك قام بملى الفراغات. كان هنالك رجل يعمل في قوة السلطان الجوية و كان يقوم بوضع القماش في خزانات و قود الطائرات. كذلك كان هنالك عضوا في جيشنا في بيت الفلج. هناك أيضا كان آخرون و بشكل مثير و لسوء الحظ مسؤولون كبار في الحكومة و من الطبقة الإستقرائية في مسقط ... الأمر الذي يجعله غير مجدي و ليس في صالحنا للتبعه عن عمد كي لا تكون النتائج في غير صالحنا. و لكن هذه المعلومات قوية ... و أخيرا عرفوا أيضا أننا على إطلاع و معرفة بتنظيمهم. نحن الآن في مستوى متجانس و متساو مع الأعداء الذين كانوا و لأمد طويل يعملون بوجوه خفية تشكل لنا كابوس مخيف.

في نهاية عام ١٩٦١ شعرت أنني مكثت في عمان مدة طويلة .تقدمت بطلب تعييني موظفا سياسيا في حضرموت و الذي ظننت أنه سيكون تغييرا سعيدا موفقا بعد قضاء خمس سنوات في عمان.

بالطبع كنت أعرف منذ البداية ... إريك جونسون سبقتني إلى الجنوب و "Gunpowder Joe" و بوب وارنر و جاسبر مكثوا في عمان كجنود و "Grook" توفي بسلام.

في وقت مبكر من السنة الجديدة قام أصدقائي بعمل حفلة وداعية صاخبة و وضعوني في طائرة متجهة إلى المكلا .

كنت متجها لرؤية المزيد من شبه الجزيرة العربية.

الخاتمة

الستة أشهر التي تلت مغادرتي كانت وقت النصر لرجال السلطان.

الجيش المتمركز في قمة الجبل الأخضر كانوا يخوضون حرب عصابات مع المتمردين هناك. لم يقوم المتمردون بزرع ألغام هناك حيث أنه لا توجد طرق و لكن الطبيعة الوعرة للجبل من صخور و وديان و ممرات كونت مجالا طبيعيا من الفوضى لنصب الكمائن و حرب العصابات و بيئة خصبة لتكون عصابات مقاتلة من سكان المنطقة و الذين قاموا بنصب كمائن لجنود الدوريات. لم تؤدي هذه التراشقات و حرب العصابات إلى كوارث ظاهرة و لكن الفدائيون و هذا النوع من الحرب يعتبران خطرا و يشكلان إزعاجا دائما و عاقبة للمضي في العمل و البناء.

بعد ذلك جاء الفرج. كتيبة الحدود الشمالية و بعد محاولات عدة تمكنت من الإمساك بمن يقوم بنصب الكمائن بقتل إثنين منهم و جرح آخرين. قائد العصابة و زارع ألغام مجهول تم تصفيتهم من اللعبة. الدرس كان قاسيا و الكمائن توقفت.

هذا النصر الصغير و الحاسم تبعه في أغسطس الإمساك بسفينة بالقرب من ساحل الباطنة. كان من ضمن ركبها إثنين من أكثر المطلوبين من رجال قوة طالب ... واحد منهم هو الرجل الذي هرب من نيك كارتر في كمين عبري في عام ١٩٥٩ و الذي كان في صدارة قائمة المطلوبين. القائدان كانا برفقة عشرة آخرين من الذين كانوا على رأس قائمة قائمة المطلوبين و كان معهم شحنة كبيرة من الأسلحة و الألغام و بعض المعدات الحربية الأخرى. التحقيق مع هؤلاء الصيد الثمين أدى إلى اكتشاف و اعتقال نحو ثلاثين متمردا آخر و المتعاونين معهم في عمان. كما تم ضبط مواد خطيرة و قاتلة.

شبكة طالب في البلاد تم تطويقها و إنهارت بعد هذه الإعتقالات و لم تستعيد عافيتها بعد ذلك. إنها نهاية الأمر الذي بدأ منذ نحو خمس سنوات مضنية. تم سماع انفجار أو انفجارين بعد ذلك و لكن لم تكن ذات صلة بالإمام و أخوه المتعب.

بعد أن استقر الثلاثي في الدمام اتجهوا إلى الدبلوماسية و السياسة الدولية. بدهاء طالب و شهرته و كالعادة قضى

هؤلاء جل وقتهم و بنقود الآخرين يتجولون في العواصم العربية محاولين كسب التأييد و المناصرة لهزيمتهم. جامعة الدول العربية تبنت قضيتهم و كذلك الأمم المتحدة التي عينت مفوضين إثنين للتحقيق في مطالبهم و شكوايهم. إحدى هاتين المفوضيتين زارت عمان و برأت السلطان من التهم بالعدوان و التي رفعت ضده. المفوضية الثانية و التي لم تدعى إلى عمان طالبت بسحب الجيوش البريطانية من البلاد و لكنها فشلت في اعلان نفسها أنها محايدة و ليست مع المتمردين. معظم المندوبين في الأمم المتحدة وجدوا أنه من الصعب أن يكرسوا معظم وقتهم لمناقشة أمور تتلاءم مع مطالب غالب بن علي إمام عمان ضد السيد سعيد بن تيمور سلطان مسقط و عمان أو إعتبارها أكثر من مجرد عراك حقير بين شخص سلطوي جبار متنفذ و رجل دين خطير .

الأمر لم يصل إلى طريق مسدود و لكنه وأد بمهارة ، و بالاكتشاف (عام ١٩٦٤) و التطور الأخيرين في التنقيب عن النفط الذي بسببه بدأ النزاع كله فإن شعب عمان بدأ يدرك أنه هذا النزاع غير مجدي و ليس من المعقول إبقاء شيء من تاريخ القرون الوسطى لبلادهم .

و بتطهير سقف عمان الأصل مركز الثقل تحول إلى ظفار ... إقليم بعيد ناء اختاره السلطان ليكون مزرعته المحلية الخاصة و يبعد نحو ثمانمائة ميل جنوبا من ساحل مسقط. في ظفار احتفظ بجيشه الخاص منفصلا تماما و بعيدا عن قوات الجيش في عمان و هو كذلك أيضا غيور جدا لتعرض ظفار على التأثير الخارجي و التغيير من طبيعتها أكثر من ما كانت غيرته على مسقط.

و لكن كانت هناك شركة أمريكية للتنقيب عن النفط تأمل في اكتشاف النفط في براري الصحراء (و التي منع عنها الخمر بأمر من صاحب السمو) و مطار صغير لسلح الجو الملكي البريطاني (الذي كان يسمح لهم فيه تعاطي الكحول) . شخص معين خاطئ غير سوي يدعى "بن نفل" انشق على السلطان و هاجم شاحنة لشركة النفط ، قتل خلال الهجوم حارس حكومي. هرب بن نفل عبر الرمال و عاد من المملكة العربية السعودية في أواسط عام ١٩٦٤ حاملا معه تلك الأشياء التي تعتبر للذكريات عندما يسافر المرء للخارج ... ألا وهي الأسلحة و الألغام. استخدم هذه الأشياء إلى درجة أن تأثيرها جعل قوات السلطان تسرع بكامل طاقاتها إلى ظفار... هذه البلاد التي لم يسمع عنها أبدا من قبل. اتسعت حركة بن نفل بمساعدة و حماس العراقيين الذين دربوا رجال عصابته و كذلك بمساعدة المصريين المستعدين دائما لمثل هذا النوع من الحركات و الذين أمدوه بالوسائل لتنفيذ مخططه. هذا الجزء من القصة لم ينتهي بعد و أنا اكتب هذا الكتاب.

في نفس الوقت تغير وجه عمان. يوجد الآن طريق للسيارات ترابي ممهد يربط مسقط بالشمال ممتدا على طول الشريط الساحلي لساحل الباطنة حيث قضيت في أحد المرات يومين كاملين وفي عناء تام محاولا الوصول إلى جاسبر في صحار. محطات تريض طبية و التي كانت يعتبرها طالب إحدى الأهداف الحيوية لتنفيذ عملياته و قنابله الموقوته أصبحت الآن منتشرة و بكل حرية في جميع أنحاء البلاد. يوجد الآن خط أنابيب نفطي بطول ٢٧٠ ميل

على امتداد الخط الذي كانت مدرعات و كاسحات شركة النفط تمسح فيه الطريق بحثا عن الألغام في إزكي ... هذا الأنبوب يمتد من مصادر آبار النفط إلى نقطة التجمع و التخزين بالقرب من بيت الفلج. و حيث كان الضباط الوحيدين لدى السلطان امثال ماكسويل الألمعي الهرم و جاسبر و وارنرز و المولود محليا علي محمد توج هذا الطاقم بعودة ابنه و ولي عهد الأمير قابوس من ساندهيرست محفوفاً بالمهارة و الحرفة و هذا الجيش الذي سيتحول من جيش هواة إلى جيش ملتزم منضبط.

تدرجيا و لكن باصرار مسقط و عمان ستخرج نفسها من القرون الوسطى. لا نملك إلا الدعاء لها بالخير و إني سعيد أنني علمت ذلك قبل التحديث و العصرية.

فيليب إس. آفري:

-انضم إلى الجيش الإنجليزي في ١٩٤٨ و إلحق بكتيبة إيست سيريو خدم في ليبيا و الخليج العربي من ١٩٥٤ إلى ١٩٥٥.

-تم اعارته إلى جندرمة ساحل عمان بعدها إلتحق بقوات السلطان المسلحة بالعقد من ١٩٥٧-١٩٦٢.

-بعد تركه الجيش عمل كموظف سياسي في محميات شرق عدن و التي الآن جزء من الجمهورية اليمنية . قام بتدوين فترته هذه في كتابه صقور حضرموت.

-من شبه الجزيرة العربية توجه إلى كينيا حيث إدار منتجعا سياحيا قبل أن يعين مساعدا لتحرير مجلة أخبار كينيا الأسبوعية.

-في عام ١٩٦٨ إلتحق بوزارة الخارجية البريطانية حيث عمل دبلوماسيا في عمان و بيروت و صنعا. بعدها عين في لندن حتى تقاعده من الخدمة في ١٩٩٠.

-توفي في ٢٠٠٦ عن ٧٥ عاما.